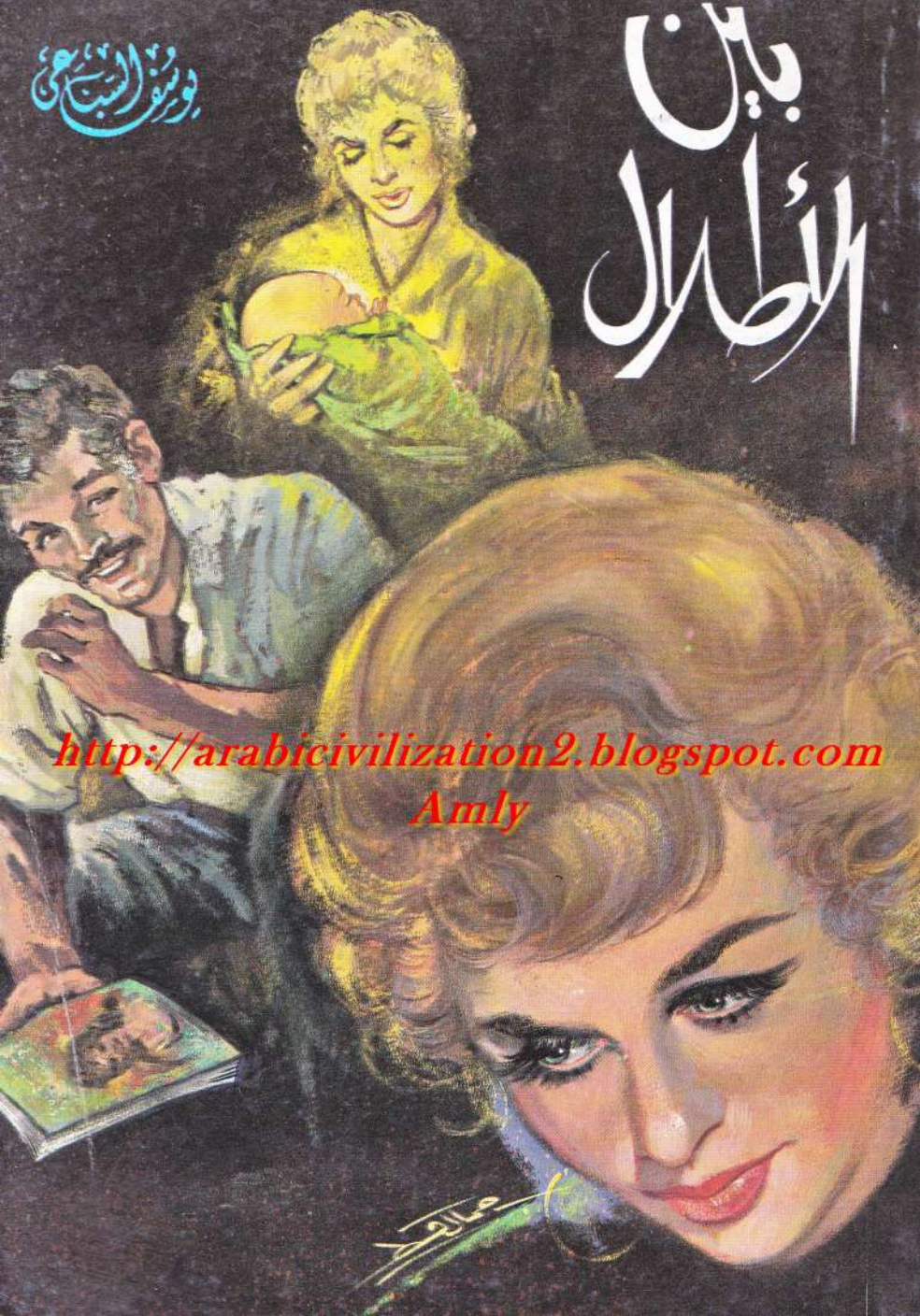


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين الطيران



<http://arabicivilization2.blogspot.com>
Amly

عالم

Amly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>



يوسف السباعي



بين الله طرد

اذكريني

للمؤلف

(قصص قصيرة ١٩٤٧)	أطراف
(رواية ١٩٤٧)	نائب عزرائيل
(قصص قصيرة ١٩٤٨)	اثنتا عشرة امرأة
(١٩٤٨ ١ ١)	خبايا الصدور
(١٩٤٨ ١ ١)	يا أمة ضحكت
(١٩٤٩ ١ ١)	اثنا عشر رجلا
(رواية ١٩٤٩)	أرض النفاق
(قصص قصيرة ١٩٤٩)	في موكب الهوى
(١٩٤٩ ١ ١)	من العالم المجهول
(١٩٥٠ ١ ١)	هذه النفوس
(رواية ١٩٥٠)	إلى راحلة
(قصص قصيرة ١٩٥٠)	يبكى العشاق
(١٩٥٠ ١ ١)	بين أبو الريش وجنية ناميش
(١٩٥١ ١ ١)	أغنيات
(مسرحية ١٩٥١)	أم رتيبة
(قصص قصيرة ١٩٥١)	هذا هو الحب
(١٩٥١ ١ ١)	صور طبق الأصل
(رواية ١٩٥٢)	بين الأطلال
(١٩٥٢ ١ ١)	السقامات
(قصص قصيرة ١٩٥٢)	سمار الليلي
(١٩٥٢ ١ ١)	الشيخ زعرب
(١٩٥٢ ١ ١)	نفحة من الإيمان
(مسرحية ١٩٥٢)	وراء الستار
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ست نساء وستة رجال
(١٩٥٢ ١ ١)	هذه الحياة

(رواية ١٩٥٣)	البحث عن جسد
(مسرحية ١٩٥٣)	جمعية قتل الزوجات
(رواية ١٩٥٣)	فديتك بالليل
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ليلة خمر
(..... ١ ١٩٥٣)	هسة عابرة
(رواية في جزأين ١٩٥٤)	رد قلبي
(قصص قصيرة ١٩٥٥)	ليال ودموع
(رواية ١٩٥٦)	طريق العودة
(مقالات ١٩٥٧)	أيام تمر
(..... ١ ١٩٥٨)	من حياتي
(..... ١ ١٩٥٩)	لطمات ولثام
(رواية في جزأين ١٩٦٠)	نادية
(..... ١ ١٩٦١)	جفت الدموع
(مقالات ١٩٦١)	أيام مشرقة
(..... ١ ١٩٦١)	أيام وذكريات
(..... ١ ١٩٦٢)	أيام من عمري
(رواية في جزأين ١٩٦٤)	ليل له آخر
(مسرحية ١٩٦٦)	أقوى من الزمن
(رواية في جزأين ١٩٦٩)	نحن لا نزرع الشوك
(رواية ١٩٧٠)	لست وحدك
(مقالات ١٩٧٠)	من وراء الغيم
(..... ١ ١٩٧١)	أيام عيد الناصر
(رواية ١٩٧١)	ابتسامة على شفثيه
(رحلات ١٩٧١)	طائر بين المحيطين
(قصة ١٩٧٣)	العمر لحظة

الإهداء

إلى المهمة النائية ...

أينما كانت ...

وكيفما كانت ...

يوسف السباعي

مقدمة

سألتني أحدهم عما يدعوني إلى هذه المقدمة التي تعودت أن أبدأ بها كُتبي وأنبأني أنها لا فائدة منها ولا داعي لها .

وقد يكون على حق ، فما حاولت من قبل أن أقرأ مقدمة كتاب ، بل إنى غالباً ما أجتاوز عن بضع الصفحات الأولى ، وأبدأ القراءة من أول الكتاب .

ويبدو لي أن هذا ما يفعله الكثير من القراء ، ومع ذلك فإنى مصر على أن أكتب المقدمة ، إذ أحس برغبة في التحدث إلى قارئى ، وأكره أن أجهد نفسى فى كتابة كل هذه الصفحات ، ثم ألقى بها إليه بلا كلمة واحدة بينى وبينه .. بل أقدمها فى صمت .. وأنصرف عنه فى صمت .. بلا حتى « سلامو عليكم » أو « خذ أقرأ هذه .. عليها تعجبك ! » .

وعلى ذلك فأنا أكتب المقدمة لأشعر نفسى أنى لا أكتب الكتاب ثم ألقى به فى بحر خضم متلاطم القراء .. مجهول الحدود ، مبهم التفاصيل .. بل أكتب لإنسان مميز معلوم أعرفه ويعرفنى .. وأحادثه ويحجب عني .

وقبل أن أذكر للقارئ شيئاً عن هذه القصة التى بين يديه ، أود أن أسرد له حديثاً جرى بينى وبين الأستاذ « بديع خيرى » عندما كنت أزوره فى المستشفى عقب عملية جراحية أجريت له ، وكان قد انتهى من كتابة مسرحية جديدة وهو طريح الفراش .. وقلت مبدئياً رأيى فى المسرحية عقب مشاهدتها :

— إنها رائعة .. مضحكة جداً .

فأجابنى وهو يهز رأسه فى عجب :

— لو علم الذين ضحكوا منها كم قاسيت فى كتابتها لما ضحكوا .. لقد كنت

أكتبها وأنا شاك موجه .. بين الحقن والغيارات .

من ثم هز رأسه وأردف قائلاً :

— هذه حرفة .. لا بد من كتابتها في أى ظرف وفي أى وقت .. لقد زرت ذات مرة صديقاً لي في عزبته ، فأنبأني بأنه سيبقى لي جواً عظيماً للكتابة : نسيماً عليلًا ، وماء سلسيلاً ، وخضرة صفتها كذا وكذا ، ووضعني صاحبي في هذا الجو الساحر .. فلم أكتب شيئاً ، ودهش صاحبي وسألني : ما بالك لا تكتب ؟ فقلت له : يا عم أنا مش واخذ على الحاجات دى .. متخسرنيش .. أنا واخذ على الكتابة على الرصيف وسط الكلاسات وصرخ العربجية الخطور .. وهوه أنا لو كنت ما اكتبش إلا في الخضرة والهدوء والنسيم العليل .. كان عمرى كبت حاجة ؟ .. ومنين بس حاجيب النسيم العليل ده كل ما احب اكتب .

ويبدو لي أني من نوع الأستاذ بديع .. أعني كاتب غير مرقه .. لا أحتاج قط إلى نسيم عليل وماء سلسيل .. فأنا عندما أبدأ الكتابة أصبح كالبحر في عليه بالكتابة مع الأشغال الشاقة .. فأنا آخذ نفسي بغير رفق ولا هوادة ولا راحة .. بل أحبس نفسي في حجرة .. وأظل أكتب ، وأكتب بلا توقف .. كأني أعشى أن تفر مني القصة ، ويدخلني إحساس بأنني لو لم أكتب القصة في نفس واحد ، وكتبها على فترات أعطى نفسي في خلالها الراحة الكافية لخرجت القصة غير متماسكة ولا متناسقة .. بل مرقعة مهلهلة .

هذا هو ما أتخيلة . لست أدري مداه من الصواب والخطأ .

وهذه القصة كتبها بنفس الطريقة .. طريقة السجن مع الكتابة .. فقد بدأتها في رمضان سنة ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م) إذ وجدت الصيام يهيئ لي ساعات طويلة متواصلة من الكتابة بلا توقف .

وهكذا بدأت عملية الحبس يومياً من الساعة التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساءً ، وفي اليوم العشرين كنت قد انتهيت من القصة .
ومرة أخرى أشعر بقلبي شديد . فإن هذا الاندفاع في كتابة القصة أفقدني

قدرنى على الحكم عليها ، وإن كان يطمئنى بعض الشيء .. التقدير الذى لميته
قصة « إني راحلة » التى كتبها بنفس الطريقة المندفعة السريعة .

وبعد .. هذه هى المقدمة .. — وكما سبق القول — إني أعتبرها مجرد « سلامو
عليكم » فهى تحية صداقة لقارئ قديم ، وتحية تعارف لقارئ جديد .. فإن لم
يقرأها القارئ فلا سلام عليه ، وإن قرأها فعليه السلام .

يوسف السباعى

الجزء الأول

سوط على قلب

امتحان

١

أطالت « سامية » الوقوف أمام المرأة .. وأخذت تفحص نفسها جيداً .
إنها تشعر لأول مرة .. أنها تهتم باستعمال سلاح ظلماً احتقرته .. واستكبرت
عليه .. وأنفت من استعماله .

إنها توشك أن تستعمل سلاح جماها وفتنتها .. وهو سلاح عتيق في نظرها
ما ظنت قط أن الظروف ستلجئها إليه .
ولكنها الآن وهى تستعرضه أمامها بعد أن باتت فى حاجة إليه .. ترى أنه لن
يخذلها .. إنه ليس بمفلول ولا صدىء .

كانت « سامية » مخلوقة ذكية .. مفرطة الذكاء .. شديدة الثقة بذهنها
وسلامة تفكيرها .. وقد دفعها هذا الاعتداد بعقلها .. إلى الإنكباب على
الدراسة والميل إلى التحصيل والاندفاع وراء الشهادات .
كانت تلميذة أكثر منها أى شىء آخر .

ويعلم الله أيهما كان أسبق من الآخر .. أو أيهما كان علة الآخر ، أهو برودها
العاطفى وضعف الأثوثة فى نفسها الذى سبب اندفاعها فى الدراسة ، وإفراطها
فى التحصيل والقراءة .. أم أن هذا الاندفاع والإفراط هما اللذان سببا برودها
وعدم إحساسها بأنوثتها ؟

على أية حال .. سواء أكان هذا سبب ذاك .. أم ذاك سبب هذا .. لقد كانت
هى لا تشعر بأية غرابة فى تصرفها وإحساسها . بل كانت تجد أن هذا هو الطريق
الطبيعى الذى يجب أن تسير فيه كل فتاة .

كانت تدرك أن هذا هو طريق استقلال المرأة .. وحصولها على حريتها فى
التصرف فى الحياة .. والبت فى مصير نفسها .

كانت تعرف أن سبب الاستعباد هو العجز والحاجة ، فالمرأة مستعبدة ..
لأنها تجلس على قارعة طريق الحياة .. منتظرة من يأخذ بيدها فيأويها ويطعمها

ويكسوها .. ويعطيها اسمًا ومعاشًا .. إن مصيرها في الحياة وأملها في الأرض
معلقان على عابر السبيل الذى سيتناولها من بين آلاف المنتظرات .. ليسير بها في
ركب الحياة .. وبغير هذا تبقى العمر مترقة تتلهف في إعياء ويأس ..
حق !! وغباوة !! هذا هو ما جعل النساء في الأرض مستعبדות
ذليلات .. إنهن يشكون لأن الرجل يتحكم في مصيرهن !

ماذا يمنعه من ذلك ؟ . ما دمن هن قد وضعن مصيرهن في يده ، وعلقن به
حياتهن .. لا .. لا .. يجب عليها ألا تجلس في انتظاره .. إنها ستسير من البداية في
الركب .. إن حاجته إليها أكثر من حاجتها إليه .. ستسير معه جنبًا إلى جنب ،
بل ستسبقه في السير .. ستكون هي المسيطرة على نفسها .. المتحكمة في
مصيرها .. وإنها لن تجلس قط في انتظار « العروس » .. بل لن تحاول أن تشعر
نفسها أنها في حاجة إلى رجل .. ولن تدع مخلوقًا يتحكم في مصيرها .

وبهذا التفكير .. أخرجت من ذهنها ومن قلبها كل إحساس بأنوثة .
كانت تكره العجز والاستكانة ، وكانت تشعر في نفسها أنها أذكى من كل
من حولها .. فلم لا تسير في طريق الاستقلال دون أن يكون لأحد سيطرة
عليها .. كقلب .. أو روح .. أو جسد ؟

ولقد نجحت في خطتها ولا شك .. إن طبيعتها الهادئة ، وتفكيرها الرزين ،
وتربيتها الطيبة .. وعاطفتها المستكنية في هدوء بلغ حد البرود .. كل ذلك قد
ساعدها في ميلها ، وجعل منها نموذجًا لطالبة علم .

وإن لم تحاول « سامية » أن تتبع طريق الوقار والجد والتحفظ ، والمبالغة في
الاحتشام والانطواء ، فقد كان هذا لا يلائم طبيعتها ولا ذكاءها ، وكانت
تعرف أن هذا طريق كبت ووجوم لا يلبث أن يؤدي بها إلى الضيق بحياتها والتبرم
بدراستها .

وكانت مخلوقة ، ضاحكة ، وكان مظهرها المرح لا ينسب عن هذا التفوق
الذى تحصل عليه ، ولذا فقد كانت دائمًا موضع دهش مدرّساتها اللاتي كن

يتمنئ دائماً بأنها « لعبة » .

وعندما حصلت على « البكالوريا » أنبأت أمها أنها تريد أن تتم دراستها في الجامعة ، فرحبت أمها بطلبها ، إذ كانت دائمة الترحيب بكل مطلب لها فهي شديدة الحب لها والثقة بها .

وفي الجامعة وجدت مشقة كبيرة في الاستمرار على طريقتها في معاملة الناس ، فقد كان من العسير عليها المحافظة على سمعتها الطيبة مع مرحها وعدم تكلفها . كانت المسألة تختلف كل الاختلاف عن مدرستها الثانوية التي لم يكن بها سوى البنات ، والتي لم يكن هناك موضع لسوء تأويل مرحها وبساطتها وضحكها وحبها لزميلاتها .

لقد بدأت تقاسى في الجامعة من الفتية ما لم تتعوده . كانت كل ضحكة استهتاراً ، وكل ابتسامة .. غمزة ؛ وكل كلمة رقيقة وقرواً في هوى . قابست طبيعتها في أول الأمر .. ولكنها لم تلبث أن تفرض عليهم شخصيتها كما هي ، ولم يلبث الكل أن فهموها على حقيقتها ، وعندما فشل كل فتى في أن يجعل منها حبيبة خاصة ، أحبوها بالإجماع حباً يملؤه الاحترام والتقدير وجعلوا منها صديقهم جميعاً .

كانت مخلوقة جذابة مسيطرة .. لم تحاول قط أن تستعمل في سيطرتها سلاح المرأة .. فقد كانت تعلم أنه قد يكون مرهقاً حاداً ، ولكنه قصير الحد ، سطحي الإصابة ، محدود الأثر .. أما سلاح الذكاء وفطنة الذهن ، وطيب الخلق ، وحسن المعاملة ، فقد كان أوسع أثراً وأبعد مدى .

وكانت تكره أن يمتدح أحد مظهرها ، ولم تحاول قط أن تفحص بعين الإعجاب وجهها أو تتبين قوامها .. فقد كانت لا تجد في هذه الميزات السطحية ما يستحق الفخر ، وكانت دائمة الصد لكل هجوم عاطفي .. شديدة التباعد عن كل إرهاب للمحس وإثارة للمشاعر .

وانتهت الدراسة الجامعية ، وحصلت على دبلوم الآداب بتفوق .. ولم تكن

سنتها تزيد على الاثنين والعشرين عاماً .

وسألتها أمها وهي تقبلها وتضمها إليها :

— ماذا تنوين بعد هذا ؟

— الدكتوراه .

وهزت أمها رأسها في عجب وتساءلت :

— وما آخر هذا .. إنك تجهدين نفسك ، وأنت لست في حاجة إلى كل هذه

الشهادات .. إن مصيرك إلى الزواج كمصير أى فتاة ، ولن تكون الدكتوراه

التي ستعين نفسك في الحصول عليها ، بذات أثر كبير عند ما تقعين في بيتك .

— لن أقبع في بيت .. سأواصل الدراسة حتى النهاية . إني لن أتزوج ، ولن

أفكر في الزواج .

وضحكت أمها وربت على كتفها وقالت لها كأنها غدت طفلة غريبة :

— بل ستزوجين يا حلوة .. وستنسين كل هذه الخرافات التي تدرسينها ولن

تحتاجي إلا إلى مهارتك في تربية أولادك والسهر على راحتهم وترويض زوجك

على ما فيه سعادتكما ، ولا أظن الدكتوراه ستمنحك خبرة كبيرة في هذه

المسائل .

— لا تخشى علي .. ستسمعين عني في الغد .. سأجعلك أمّاً لأول وزيرة في

مصر . إن لي أهدافاً كبيرة .. سأحرر المرأة وأعطيها حقوقها .

وهزت الأم رأسها في يأس . وقالت لها :

— يالك من فتاة حمقاء !.. ألا تعلمين أن حق المرأة في بيتها .. بين زوجها

وأولادها !

— إن هذا هو الذي يفسد كل شيء . إن حق المرأة في الحياة والمجتمع كحق

الرجل سواء بسواء .

— ما علينا .. أنت وما تشائين .. قومي للعشاء .

واستقر رأيها أخيراً على الطريقة التي تحصل بها على الدكتوراه .

كان عليها أن تدخل معهد الصحافة ، فندرس به ثلاث سنوات .. فإذا ما حصلت على الماجستير أمكنها أن تتقدم برسالتها للحصول على الدكتوراه . وكان سبب اختيارها لمعهد الصحافة .. هو ميلها إلى الكتابة واعتقادها أن طريق الصحافة هو خير وسيلة لتحقيق غرضها وبلوغها أهدافها التي تسعى إليها في تحرير المرأة .

وكان عليها أن تؤدي امتحان الدخول . وفي عصر اليوم المحدد كانت تجلس في المدرج المتسع لمئات الطلاب والطالبات ، وكان المدرج يطن بأحاديثهم كأنه خلية النحل وقد أخذوا يتحدثون قبل بدء الامتحان .

واستطاعت أن تميز الكثيرين والكثيرات من زملائها وزميلاتها في الكلية ، وأخذت توزع التحيات والابتسامات والضحكات هنا وهناك ، وكان بين المتحنيين كثيرون من خريجي الكليات الأخرى ممن لم ترهم من قبل .

وبدأ المراقبون يتوافدون الواحد بعد الآخر ، ثم أخذوا في توزيع أوراق الإجابة ، وبعد برهة قصيرة أقبل أحد الأساتذة يحمل مطروفاً به ورق الأسئلة ، ووزعت الأسئلة ، وساد السكون إلا من بضعة أسئلة تتصاعد من هنا وهناك .. ما لبثت حتى خفتت وانهمك الكل في الإجابة .

ولم تكن قد استعدت للامتحان استعداداً خاصاً ، فقد كان الامتحان غير محدود الأبواب وكان لا يستلزم إلا معلومات عامة .. كان امتحاناً في العربية والإنجليزية والترجمة .

ولم تكن تقيم وزناً لامتحان العربية .. فقد كانت تعتبر نفسها في العربية أستاذة .. كانت كاتبة مجيدة ، وكثيراً ما نشرت لها الصحف الكثير من المقالات .

ولم تكن أيضاً تأبه للترجمة ، لأنها كانت تعرف أنها ترجمة من الإنجليزية إلى العربية ، ولو كانت العكس .. لأقضت مضجعها .

أما الذي كانت تكرهه وتخشاه فهو امتحان الإنجليزية. لقد كانت على قوتها في

كل المواد .. تكاد لا تحصل في الإنجليزية من الدرجات إلا على الكفاف ، على ما يكاد يجعلها تمر ، وكانت تقول مازحة .. إنها تقصد مقاطعة الإنجليز وإعلانهم بكرمها لهم ورغبتها في جلاتهم .

وكان أول امتحان هو الإنجليزية .

وجلست تقرأ الورقة مرة ثانية ، وهي تتسلى بقضم أظفارها .. عادة مخزية في مثل سنها .. إذ كانت لا تترك لأظفارها فرصة الثمو والطلاء ، ولكنها لم تكن تستطيع التخلص منها .

كان الامتحان لا يزيد على كتابة موضوع إنشاء .. وكانت مطمئنة إلى أنها ستعرف كيف « تدرش » . وإن عجزها في الإنجليزية لن يمنعها عن ملء بضعة صفحات بالكلام « الفارغ » .

ولكنها فوجئت في رأس الموضوع الأول ، بكلمة لا تعرف لها معنى .. كلمة لم تسمع بها من قبل .

وتركت الموضوع الأول . حمداً لله . إن لديها فرصة للاختيار .

وهبطت بنظرها إلى الموضوع الثاني .. إنه يبدو سهلاً !! ولكن سحاً له .. ما معنى هذه الكلمة ؟ . إنها لم تسمع بها أيضاً من قبل .

وتملكها ارتباك شديد .. ماذا يقصدون بهذا ؟ وماذا تستطيع أن تكتب وهي لا تفهم ماذا يطلبون منها ؟

وتلفتت حولها في قلق فلم تجد أحداً تعرفه ممن يحيطون بها .

ويجها ! أهكذا يخذلها الامتحان هذا الخذلان ؟ أترسب في امتحان الدخول وهي التي أنبأت أنها بثقة وسذاجة أنها قد نوت الحصول على الدكتوراه ؟ . أتقف كلمة في سبيل مستقبلها ، وتحريرها للمرأة ؟

لو تعرف نساء مصر أن مصيرهن معلق بهذه الكلمة ، لأحضرن لها قواميس الأرض .

ولكنها لن تخذل . لن تيش .. إنها ستسأل جاراها .. إنه يبدو سميناً

« كالحلوف » وقد أكب على ورقته ، وأخذ يزفر ، وينفخ ، ويمسح العرق المتصب من وجهه ، كأنه في عراك مع ورقة الإجابة . ترى من أية كلية هو ؟ إنه لا يبدو متخرجاً في كليات .. إن به شيئاً كبيراً من بقال رومى قريب من دارهم . كيف سمحوا له بدخول الامتحان ؟ ولكن ما لها هي ولهذا . إن عليها أن تسأله فقد يجيبها .

وتلفت نحوه ، ثم همست متسائلة عن معنى الكلمة . ولم يد عليه أنه سمعها .. فعادت تهمس مرة أخرى . وأخيراً تلفت إليها في ضيق ، ونفخ بأنفه نفخة حارة .. ثم عاود الانكباب على الورق .

وأحست بالحيلة ، وعادت تقرأ ورقة الأسئلة ، ثم هزت رأسها في يأس . وتلفت نحو المراقبين ، وقد تناثروا في أنحاء المدرج . إنها تعرف أحدهم ، معيداً في اللغة العربية . ترى هل يعرف معنى الكلمة ؟ لا تظن ، وباللهس خافة !! ما فائدة أن يحضروا مدرّس العربية في امتحان الإنجليزية !

وهي تعرف البعض الآخر بمجرد النظر .. سبق لها أن رأتهم في أنحاء الكلية ، ولكنها لا تعرفهم معرفة شخصية . ولا شك أنهم لن يخلوا بالإجابة . ولكن من هذا ؟

إنه فتى صغير ، يتحدث مع أحدهما ، لا شك أنه طالب . ولكن ماذا أوقفه في زمرة المراقبين ؟ ولماذا لا يجلس للامتحان ؟ قد يكون طالباً من الخارج ، يسأل عن أى شيء ؟ ولكن ما له يتحدث هكذا بدون كلفة ، ويتكئ بيده على المنضدة ؟ قلة أدب ، إنه طالب وقع .. إنها تكره الطلاب الوقحين ، على أية حال هذا ليس وقته الآن .. المهم أن تجد من يذكر لها معنى الكلمة .

ووجدت الفتى قد غادر موقفه أمام المراقب ، ثم أخذ يتجول في المدرج .. انتهى قلة الأدب . إن شكله لا بأس به .. فهو أنيق إلى حد ما .. ولكن هذا لا يعطيه الحق في التجول في مدرّج الامتحان . إنه يقترب منها .. يقترب . يقترب .. لقد وصل بجوارها .

ورفعت رأسها تحديق فيه بدهش .. وأصابه من تحديقها شيء من الارتباك .
وتجسس كرافته وياقته ، ليطمئن على أن ليس به شيء مثير .. ثم لم يتالك أن هزَّ
رأسه وسألها مستكراً :

— فيه حاجة ؟

وقاحة . ماله وما لها .. وسألته بنفس الاستكثار :

— ماذا تفعل هنا ؟

وعلت وجهه الدهشة وأجابها ببساطة :

— أراقب .

— تراقب ؟ تراقب من ؟

— المنتحين .. أنت وأمثالك ؟

— أنت مراقب ؟

— أجل ! أفي ذلك ما يزعجك ؟

— أبداً .. أبداً .. فقد ظننتك طالباً .

وبدا كأن الحديث قد أزعج « الخلوف » المنهمك في الكتابة بجوارها . فقد
التفت إليها في غيظ وقال مسكناً إياها وعلى وجهه علامات الحقن :

— ههش .

وأومأت برأسها مهدئة ، وقالت له :

— حاضر .. لقد سكنت .

وأكبت على الورقة في صمت .. فسألها الفتى (كانت تأبى أن تسميه في
ذهنها إلا كذلك) المراقب :

— ما بالك لا تكتبين ؟

— سأكتب .

— ولكن مضى نصف ساعة أو أكثر وأنت لم تكتبي شيئاً !

— وما أستطيع أن أكتب ، وأنا لا أعرف ماذا يريدون مني أن أكتب ؟

(بين الأطلال)

— ماذا تقصدين ؟

— لست أفهم رأس الموضوع .

— اكتبى عن الآخر .

— ولا الآخر .

— كيف ؟

وعاد « الحلوف » ينظر إليها مغتاظاً ويزجرها بقوله :

— هش .

ولكنها صاحت به ناثرة :

— هش أنت .. بلاوى .. حد عملك حاجة ؟

ثم أردفت قائلة للمراقب :

— يوجد كلمة لا أعرف لها معنى .

— ما هى ؟

— أظنك ستعرفها ؟

— ربما .. فأنى مدرّس إنجليزية .

— أنت . مدرّس إنجليزية ؟

— أجل !

ودفعت الورق أمامه، وأشارت بقلمها إلى الكلمتين واضعة خطأ تحت كل منهما.

وأجابها المراقب ببساطة :

— هذه تعنى كذا ، وتلك تعنى كذا .. أظنك تستطيعين الكتابة الآن ، بدل

الحملقة فى المراقبين ، والتشويش على الممتحنين .

وخرجت من الامتحان راضية .. وعادت إلى الدار فقصّت على أمها القصة

ضاحكة.

وبعد بضعة أيام انتهى الامتحان .

وبضعة أيام آخر ظهرت النتيجة ، فإذا بها قد اجتازت الامتحان .

هزلت

٢

وفي أكتوبر حل موعد الدراسة ، وكانت قد حصلت من قبل على جدول الدراسة ومواعيدها .. كانت الدراسة تبدأ يومياً من الرابعة إلى الثامنة ، وكانت العلوم في نظرها (لطيفة) ولا شيء يبدو معقداً ، أو عسيراً .. ومعظم الأساتذة الذين سيقومون بالتدريس لها هم الذين درسوا لها في الكلية : أستاذ العربية ، والإنجليزية ، والترجمة .. أما بقية العلوم كالقانون والمذاهب الاجتماعية ، فإن الذين سيقومون بتدريسها أساتذة معروفون سبق أن سمعت بهم ، وكذلك ما يختص بالصحافة .

وكانت تقطن في « الدق » في أحد الشوارع المتفرعة من ميدان «عبد المنعم» في « فيلا » صغيرة كانت تسكنها هي وأُمها منذ طفولتها ، وقد تعودت أن تقطع المسافة بينها وبين الجامعة سيراً على الأقدام ، إلا إذا كانت في عجلة ، أو كان الجو رديئاً .

ولم تكن اليوم في عجلة ، وكان الجو خريفاً صحواً إلا من قصاصات السحاب المتناثرة في السماء ، المتلاحقة على وجه الشمس ، وكانت تشعر بنشاط وسعادة ، لأنها مقبلة على مرحلة جديدة من الدراسة ، الدراسة العليا التي ستهيئها للدكتوراه ، وستجعل منها « الدكتورة سامية » رئيسة الحزب النسائي ، ومحررة المرأة ، ووزيرة الشؤون الاجتماعية وربما (لو اختشى الحظ على دمه وتساهل معها) تكون رئيسة وزراء .

ولم تكن تحمل حقيبتها ، التي تعودت أن تحملها دائماً وهي ذاهبة إلى

الجامعة ، فهي لا تعرف ماذا سيطلبون منها من كتب .. كل ما كانت تحمله هي كراسة بيضاء ، كتبت الجدول في صفحة منها .

وكانت ترتدى ثيابها التقليدية التي لا تحاول تغييرها وهي « التاير » أبيض في الصيف ، ورمادي في الخريف ، وكحلياً أو بنيّاً في الشتاء .

كانت ترى أن هذا هو الزى النموذجي للدراسة . وأنه يجب أن يوجد بين جميع الطلبة والطالبات ، على أن يستبدل بالجيب بنطلون للطلبة ، وكان وجهها نظيفاً أبيض متورداً بلا مساحيق ولا طلاء .. وشعرها معقوصاً في مؤخرة رأسها وكانت تسير بخطوة منتظمة أشبه بالمشية العسكرية .

ولم تكن بها في الواقع أنوثة فيّاضة أو جمال فاتن .. لم تكن ناعسة الطرف ، ولا دعجاء ، ولا حوراء ، ولا كان بها ما يبهّر أو يثير أو يبعث على الاشتاء ، ولكنها كانت ما نسميه « لطيفة » . لم يكن فيها إغراء يجذب عن بعد ، ولكن عندما يجالسها المرء ويتمعن فيها ، ويسمع حديثها ، يحس بجاذبيتها ، ويجها ، ولا يصيبه منها ملل ولا سامة ، ويود أن يطيل الجلوس إليها ورؤيتها مرة ثانية وثالثة .

كانت ساذجة في كل شيء .. ساذجة حتى في تركيب جسدها ووجهها .. فهي أميل إلى النحافة ، لا بروز كبير في صدرها وردفها ، ولكنها مع ذلك لم تكن ممسوحة جرداء .. بل ملفوفة في شيء من الضمور « مكسمة » ، رشيقة في غير امتلاء .. أما وجهها فكان منتظم التقاطيع ، دقيق الملامح ، بفمها بعض الانساع ، ولكنه اتساع مستحب ، ينفرج عن أسنان منتظمة بيض ، وينتهي بفرجتين لطيفتين .

ووصلت إلى الجامعة واتجهت يمينا إلى مبنى الكلية ، وأقبل عليها فرّاش المعهد ، وكان يعرفها جيداً وحيها بقوله :

— مبروك يا ست سامية .. عقبى للماجستير والدكتوراه إن شاء الله .. أظن الدراسة ستكون في المدرّج « ج » أول مدرّج على يدك اليمنى .
— ألم يحضر أحد من الطلبة بعد ؟

— أظن واحداً قد حضر ، ودخل المدرج .. والدكتور « زكى » حضر .. وهو منتظر في مكتب الأساتذة .

واتجهت إلى المدرج ودلفت إلى داخله ، فوجدت به الطالب الوحيد الذى حضر .. ولم يكن غريباً عليها .. كان « الحلوف » المتأفف من حديثها فى الامتحان .

عجيب أن ينجح .. إن عليها أن تحتل رفقته ثلاثة أعوام !

وأومأت إليه برأسها بتحية خفيفة ، فصاح مرحباً :

— أهلاً وسهلاً .. نهارك سعيد مبارك .

واتخذت مكانها فى أول مقعد فى الصف الأول .. وأخذت تتسلى بقراءة مجلة كانت تحملها مع الكراسة البيضاء .

وبدا صاحبها يجاذبها أطراف الحديث . قال بصوت أجش وهو يجفف عرقه بمنديل فى يده :

— حضرتك خريجة الآداب ؟

— أجل !

— أى قسم ؟

— الفلسفة .

— فلسفة ؟ وأى صلة بين الفلسفة والصحافة .. ماذا دفع بك إلى هذا

المعهد ؟

— كلها دراسة ، وكل دراسة تنفع .

— طبعاً !

— وأنت متخرج فى أى كلية ؟

— من الطب البيطرى .

ولم تستطع أن تكتم ضحكها ، ولم تستطع كذلك أن تكتم النكتة التى انطلقت إلى شفتيها .. وكان ذلك من شر عيوبها ، وسأله ضاحكة :

— طيب . وإلا .. مريض ؟

وهزّ « الخلوف » رأسه .. إنه لم يفهمها . هذا ستر من الله . وإلا ماذا كان مصرها . لو فهمها ؟

وواصلت هي حديثها بسرعة حتى لا تعطيه فرصة لإعادة التفكير فيها .. خشية أن يكتشف ما فيها من إهانة .. قالت بلهجة حادة :

— الصلة كبيرة بين الطب البيطرى والصحافة . أقوى بكثير من صله الفلسفة بالصحافة . والواقع أنك ستستفيد كثيراً من دخول المعهد . وأشار برأسه مؤمناً على قولها .

وبدأ الطلبة يتوافدون . وانتظموا في أماكنهم بعد بضع تحيات فيما بينهم ، وكانت تعرف منهم البعض ممن شاركوها دراستها في الكلية ومن بينهم فتاة تدعى « زينب زكى » خجولة صامته ، لا تنبس بأكثر من بضع كلمات في الساعة . ودقت ساعة الجامعة الرابعة مؤذنة ببداء الحصّة ، ولم تكد تنتهى دقائقها حتى أقبل الأستاذ .

كانت قد سمعت عنه من قبل ، وكان له ما يقرب من عشرة مؤلفات ، وكانت تجدها فرصة طيبة لأن تعرفه وتسمع محاضراته ، ولكنه لم يكد « يهل » من الباب حتى تذكرت المثل « تسمع بالمعدي خير من أن تراه » .

دخل الأستاذ المعدي .. ويده « منشة » ، وباليه الأخرى كتابان ، وعلى عينيه منظار « دوبلكس » سميك ، ووجهه أبيض منتفخ ، وجسده قصير بدين أكرش ورأسه أبيض لامع من غير سوء إلا بضع شعرات مرفوعة من جانب الرأس في شبه فرق وملقاة على « قراعة » الرأس في محاولة لحجب الصلع ، وقد التصقت بلحم الرأس والتوت أطرافها في شبه علامة استفهام .

ولم يكن شكله أو تكوين جسده بمثير عجبها أو يخافض من قدره في نظرها ، إذ لم تكن تقيم للشكل وزناً كبيراً .

وكانت ترى أن هذا الشكل هو المفروض أن يكون عليه الأساتذة والعلماء

والكتب والعرض الحلية والحلاقون وغيرهم من عباد الله المشتغلين بالرغوس ..
رغوسهم .. أو رغوس الغير .. لم يكن هذا بالعجيب في أستاذ القانون ولكن
العجب كان في إفراطه في الأناقة بطريقته الخاصة التي تثير الضحك .

كان يرتدى حلة كحلية ، وحذاء أصفر شبيهاً « بالبلغ الفاسي » ، وصديراً
أصفر من الصوف ورباط رقبة أصفر بنقط حمر .

كان به شبه كبير من « القرد أبو صديري » لا يكاد يفرق عنه إلا بوردة حمراء
في « عروة الجاكتة » ، وبأن « القرد » ليس بأستاذ وليس له عشرة كتب .

ولا شك أن الأستاذ كان يمكن أن يكون معتدلاً .. لولا « الطقم » الأصفر
الفاقع الذي شذبه عن الناس ، ولا شك أيضاً أن عنده امرأة رأى فيها نفسه ، ولا
شك أن عنده بعض التمييز ليرى أنه يبدو مخلوقاً مضحكاً ، ومع ذلك فقد ارتداه .
وجلس على مقعده ، وكما ارتدى اللبس الذي لم يكن يجب أن يرتديه ..

جلس الجلسة التي لم يكن يجب أن يجلسها . لقد وضع ساقاً على ساق ، وساقاه
قصيرتان ، وبطنه مدلى والأمر يحتاج إلى جهد ، والجلسة غير مريحة ، ومع ذلك
فعلها ، وكشف — بتشميم ساق البنطلون — عن ساق بيضاء جرداء .. كأنها
قطعة من العجين .

ولكن ما لها ولكل هذا ، لعنة الله على عينيها الناقتين ، وعقلها الساخر ..
بكل شيء .. أليس من الخير أن تنظر إلى وجه الرجل وتركز ذهنها في حديثه بدل
هذا التشقيب في شكله ورسجه ؟ ثم .. إنه أستاذ .. رجل علم .. ومفروض فيه
أن يكون على شيء من الشذوذ .

وأخيراً عندما نجحت في تركيز ذهنها في حديثه .. كانت قد مضت نصف
الحصة ، وبدأت تلتقط بضعة ألفاظ عامة عن حرية الرأي ، والتشريع ،
والقانون .

وبدا الأستاذ الإملاء ، وانهمكت في الكتابة ، فلم يكن لديها فرصة سانحة في
معاودة فحص بقية الطلبة .

وانتهت الحصة ، وانتهت التى بعدها ، وغادرت الجامعة عائدة إلى البيت .
كان الظلام قد حل ، وكانت قد أحست بشيء من التعب ، فسارت متجهة
إلى محطة الأوتوبيس ، ولكنها ما كادت تتحرك بضع خطوات حتى سمعت صوتاً
يصيح :

— إني ذاهب إلى ميدان الإسماعيلية ، من يريد أن أوصله فليتفضل .
ونظرت خلفها فوجدت أحد الزملاء يقف أمام سيارة فخمة داعياً زملاءه
لتوصيلهم .

وبمتى البساطة عادت إلى السيارة وقالت له :

— تسمح بتوصيلي في طريقك إلى ميدان عبد المنعم ؟

— بكل سرور .

وجلس بجواره وجلس طالب آخر في المقعد الخلفي ، ولم يجب الدعوة
غيرهما من الزملاء .

وأمام البيت هبطت من العربة وحيته شاكراً ودلفت إلى الداخل .

ومضت أربعة أيام ، وفي كل يوم عندما تنتهى الدراسة كان يدعوها للركوب
فتلبى دعوته ببساطتها المعهودة .

وعرفت منه أنه يعمل بالحمامة ، وكان يبدو إنساناً رقيقاً مهذباً ، حسن
المظهر ، عريق الأصل ، طيب المنبت .

وكانت تجده إنساناً محتملاً .. يمكن احتماله خلال بضع الدقائق عندما تركب
بجواره ليوصلها إلى بيتها ، ولم تكن حمقاء حتى لا تدرك أن ركوبها بجواره سيثير
لفظ الزملاء ولكنها لم تكن تخشى اللفظ ولا تحاول تجنبه ، بل كانت تقدم على ما
لا تجد فيه خطأ ولا جرم ، وترك اللفظ يثار ، وتستمر في مظهرها المرح
الساذج وحقيقتها الجادة المستقيمة .. حتى تصمت الألسنة خجلاً أو يأساً ،
وحتى يهبط الغبار من حولها ، وتبدو محبوبة بشخصيتها المحترمة وخلقها القويم .
ولم تكن تجهل أنها تثير مطامعه بركوبها بجواره . وأنه قد يتوهها غنيمة

سهلة ، ولكنها لم تكن المرة الأولى أن تتعرض لمثل هذه التجارب ، ولو كانت المرة الأولى التى تخرج منها .. مرفوعة الرأس ، موفورة الكرامة .

وكانت بعض الزميلات ينصحنها بأن توفر على نفسها هذه التجارب ، ولكنها كانت تحب المقاومة وتكره الهدوء والانطواء .

وفى اليوم الخامس ذهبت متأخرة بعض الوقت .. إذ استلقت فى فراشها بعد الظهر ، وكانت قد سهرت فى الليلة السابقة ، واستغرقت فى النوم فلم تستيقظ إلا فى الرابعة .

رارتدت ثيابها على عجل وهرولت فى الطريق ، وتصادف بجىء الأونويس فصعدت إليه ، وبعد بضع دقائق كانت فى طريقها على سلم الكلية .

وبصادفت عبد السلام الفراش ، وكانت تجد فيه شخصية هزلية تساوى المعهد بأكمله .. كانت له آراء عجيبة فى المدرسين والأساتذة ، ولم تكن هذه الآراء بالطبع أو على الأقل معظمها .. مما تنشرح له نفوس الأساتذة .

كان عبد السلام سمين الجسد أسمر البشرة ، دائم احمرار العينين ، غير حليق ولا ملتئح .. بل يتناثر الشعر الرمادى الخليط بين الأسود والأبيض على ذقنه ورقبته وصفحة وجهه ، وهو دائماً — أعنى شعر ذقنه — بنفس الطول .. ولست تدري كيف يبقى على حاله .. إن كان يحلقه فلا بد أن يقصر فى أى يوم .. وإذا كان لا يحلقه فلا بد أن يطول فى اليوم الآخر ، ولكنه يبدو كأنما يحلقه ولا يحلقه ، وهو يرتدى حلة صفراء من حلل جنود الجيش المصرى ، ولكن يبدو أن الجيش المصرى لا يعترف بحجم عبد السلام ، فالسترة لا يكاد يزرر منها إلا زراران العلوى والسفلى .. أما الباقية فهى مفتوحة حتى تعطى لبطنه الفرصة للتححرر والانطلاق فهو يبدو كأنه قتيل متحرك ذو كرش مفتوح .. أو بطن مبقر .. لا سيما وأن البنطلون قد اشترك مع الجاكيت فى تهيئة فرصة التححرر هذه .. فلم تنطبق أزراره العلوية وبقي مفتوحاً من أعلى لا يستقيه فى مكانه من بطن عبد السلام إلا « دكة لباس » ربط بها .

أما الحذاء فقد بدا كأنه من الممتلكات السابقة لأستاذ القانون .. إذ به أثر

لصفرة حائلة وبه نفس الكعب العالي الذى تعود أن يلبسه الأستاذ .
وأقبل عليها عبد السلام مرحباً وهى تهوول مسرعة نحو المدرّج فقال لها :
— على مهلك يا ست سامية .

— عندنا درس إنجليزى . المستر « لى » يكره التأخير

— إن المستر « لى » لم يأت

— لم يأت بعد ؟

— ولا قبل ، ولن يأتى .. إنه لم يحضر من أجازته من بلده ، وقد عينوا بدله
مدرّساً جديداً .. جدع صغير ، لا يملأ العين ، لقد هزلت ، منذ بضع سنين كان
الأستاذ ...

ولم تسمع « سامية » بقية حديثه عن الأساتذة منذ بضع سنين ، بل طرقت
الباب ودخلت ، وفى أذنها يطن قول عبد السلام « لقد هزلت »

حقاً .. لقد هزلت .. إنه هو بعينه ، الفتى التى قد ظنته طالباً .. إنه سيقوم
بالتدريس لها ، هذه منتهى المهزلة .. ولكن لا بأس .. إنها لن تزيد عن حصة أو
حصتين ، يحضر بعدها المدرّس الأسمى .

ونظر إليها المدرّس الفتى ، وأشار لها فى شىء من العيوس والتجهّم :
— تفضلى .

ماله يعبس هكذا .. كأنما يظن نفسه مدرّساً حقاً .. ولكنه لا شك يختره
مركب النقص .. إنه بالطبع سيبلغ فى الجدة .. حتى يبدو محترماً .. لا بأس
عليه ، ستعرف كيف تزيل هيئته وعبوسه .

وكان قد وقف أمام المنضدة ، ووضع أمامه كتاباً مغلقاً وأخذ يتحدث
بالإنجليزية الملتوية :

— سنعيد ما قلنا من أجل الآنسة .. كنا نقول إن المنهج المقرر هذا العام
سيشمل عصر النهضة ، ثم تطور الفكر فى أوروبا فى خلال القرنين الثامن عشر
والتاسع عشر ، وسنقدم لهذا بالطبع شىء عن الحضارة الإغريقية ثم دراسة

هو جزة لعهد الاقطاع أو ما نسميه العصور المظلمة لأوروبا ، وسأمل عليكم الآن المراجع التي يمكن الرجوع إليها .

ثم أخذ يلى عناوين بضعة كتب إنجليزية وكتبت هى حوالى عشرة عناوين ، ثم رفعت رأسها فى دهشة متسائلة :
— ستقرأ كل هذه الكتب ؟

— هذا هو المفروض

— وغير المفروض ؟

— إلا تقرئها ترسى ، ولا أظنك ستجدين دائماً من يذكر لك معاني الكلمات فى كل امتحان !

إذا فهو يذكرها . يذكرها كمخلوقة غبية بالطبع . لا بأس ! ستريه كيف يحترمها . إنه مخلوق مغرور ، صعب المراس ، ولكنها ستعرف كيف تروضه وعاود الأستاذ حديثه قائلاً فى تودده وثقة كبار الأساتذة :

— إن طريقتى فى الدراسة هى التركيز فى الجوهر ، وهذه هى الطريقة التى أنصح باتباعها ، إذا قرأ أحدكم كتاباً أو موضوعاً ، فيجب أولاً أن يعرف الهدف الذى يرمى إليه الموضوع . ثم يتخسب بذهنه صلب الموضوع .. أو الأركان التى يرتكز عليها .. إن كل موضوع يرتكز على بضعة نقاط يمكن تلخيصها فى بضعة كلمات .. أما طريقة العلاج أو الحشو فهى تأتى بعد ذلك فى الأهمية .. لأنك لو علمت النقاط الأساسية ، لاستطعت بشئ من المران فى اللغة أن تملأ الموضوع .. على أية حال أنا أحب التركيز وأكره الإسهاب ، وأفضل لأى منكم أن يكتب فى الامتحان صفحة واحدة صواباً من أن يكتب أربع صفحات خطأ وهزت رأسها فى شئ من الدهش وتمتمت قائلة :

— طبعاً هذا بدهى معروف .. مفهوم تماماً .. ولكن الذى نود التأكد منه

مسألة أخرى .

— ما هى ؟

— إن صفحة صواب خير بالطبع من ثلاث صفحات خطأ .. ولكن عندما لا يعرف الإنسان الصواب (وهو الأمر الذي غالباً ما يحدث) فأى شيء تفضل .. صفحة خطأ أم ثلاثاً خطأ ؟

وحاول المدرّس أن يكسو نفسه حلة من الوقار وأن يكتم ضحكة توشك أن تغلت من شفتيه ، ولاحظت هي ذلك ولم تستطع أن تمنع نفسها من أن تقول له بسداجة :

— اضحك ما شئت .. فالضحك ليس ممنوعاً على الأساتذة .. قد يحرم الأساتذة الضحك على الطلبة ؛ ولكن الطلبة لا يحرمونه على الأساتذة .
وضحك الطلبة .. وضحك المدرّس .

هذه الفتاة .. دمها خفيف ، ولكن يجب ألا يتساهل معها أكثر من ذلك ، إذ تبدو أنها من نوع لعوب .. يجب قمعها حتى لا تتأدى
وبعد أن تمالك نفسه أجابها في تودة :

— صفحة من الخطأ تستوى مع ثلاث صفحات ، لأني لن أقرأ سوى بضعة أسطر .. ثم أشطب الباقي .

— إذاً من الأفضل كتابة بضعة الأسطر التي ستقرأها ولا داعي للباقي حتى توفر عليك مشقة الشطب .

بهذا بدأت المعرفة بينهما ، هو يراها فتاة لعوباً ، قبيحة طويلة اللسان ، قليلة الأدب .. وهي تراه فتى دفعه الحظ إلى أن يسبقها في الدراسة بسنة أو سنتين فأضحى مكانه أستاذاً لها ، بدل أن يجلس كتلميذ بجوارها أو بدلا من أن تكون هي أستاذة له .

هذه هي عقبة أخرى من العقبات .. ستزيلها من طريق المرأة .. يجب أن تتخذ المرأة مكانتها في الجامعة كأستاذة وكمعيدة .

صبراً .. صبراً .. أيها الرجال .. ستريكم الدكتور « سامية » مركزكم وقيمتكم .

غيبية

٣

انتهى الدرس ، وكان الأستاذ يتحدث بطلاقة وثقة ، ولكنها مع ذلك أصرت على احتقاره ، وإن كانت لم تستطع أن تمنع عينيها من استراق النظر إلى وجهه وقوامه وثيابه .

إن وجهه جذاب ، ولكن ذلك لا يعنينا في شيء ، ولن تشفع له وجاهته ، فهي لا بد أن تزيل غروره .

وغادر المدرج دون أن يلقى إليها بنظرة .. لقد أشار بتحية عامة للطلبة جميعاً ، تماماً كما يفعل كبار الأساتذة .

وأبصرته وهو يجلس في سيارة صغيرة ثم يغادر الجامعة وجلست هي بجوار صاحبها الذي تعود أن يوصلها إلى بيتها وتحركت بهما السيارة .

وفي الطريق سألتها ببساطة :

— أتذهبين إلى السينما ؟

ابتدأت المحادثات ، وابتدأت السخافات ، هذه هي أول بشارات الهجوم

العاطفي الصياني !

والتفتت إليه في دهش وقالت :

— وهل هناك مخلوق متمدين لا يذهب إلى السينما ؟

— أعني تذهبين وحدك ؟

— ولم ؟

— أقصد أن نذهب معاً لكي نتسلل برفقة بعضنا

— إني أذهب إلى السينما لمشاهدة السينما ، بحيث لا يكون لدى وقت للتسلية برفقة أحد ، وهذا لا يعنى أنى أكره أن أذهب إلى السينما معك .. فأنا أجلس أحياناً بجوار رجال ، إذ لا أستطيع أن أحجز صفاً من السينما ليكون خالياً لى ، ولا أستطيع أن أجلس فى (لوج) بمفردى .. وسواء عندى أن أجلس بجوار غريب أو بجوارك ، فلا أظنك ستضايقنى كثيراً .. ولكن ليس هناك ما يدعو لأن نذهب معاً عن قصد .. اذهب أنت إلى السينما وسأذهب أنا إلى السينما ، فإذا تصادف أن كانت السينما واحدة وتصادف كذلك أن كان مقعدانا متجاورين جلسنا معاً .. ولكنى لا أرى هناك ما يدعو أن نكلف نفسينا مشقة تحديد المواعيد وارتباط كل منا بموعد الآخر . ليس بيننا ما يحتم علينا هذه المشقة . أليس كذلك ؟ اللهم إلا إذا اعتبرت جميلك فى توصيلى إلى البيت بسيارتك ، يعطيك حقاً على ، ويحمى على رده

وكانت قد وصلت إلى بيتها ، وأحس صاحبنا أنها قد لقتة درساً هادئاً ، ولم يملك إلا أن يقول لها متمتماً :

— إنى آسف .

— لا داعى للأسف .. كان لا بد من شىء كهذا لكى تفهمنى على حقيقتى . وفى اليوم التالى عند انتهاء الدراسة وجدته يسير بجوارها متردداً ثم يهمس بقوله :

— هل أستطيع أن أو صلك كما تعودت ؟

وهفت بصراحتها وسذاجتها :

— طبعاً .. إذا لم أكن قد أغضبتك بقولى أمس ؟

— لا .. لا .. إنى أرجو ألا أكون أنا أغضبتك !

— أبداً .. لا أغضب مطلقاً ، نستطيع أن نعتبر المسألة انتهت فى وقتها .

وجلس بجواره فى السيارة كعادتها ، وأوصلها حتى البيت دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة

ومرت بضعة أيام .. وفي يوم الأربعاء . أحست وهي ترتدى ثيابها للذهاب إلى الجامعة ، بشيء من الحبور والرضا .. لقد كانت منشحة الصدر في معظم أوقاتها ، ولكنها أحست بمزيد من الانسراح وهي ترتدى ثيابها .

كان انشراحاً أكثر مما يستلزمه ذهابها إلى الجامعة ، كان انشراح الذاهبة إلى حفلة لطيفة ، أو الذاهبة إلى السينما لتشاهد رواية جيدة . كان اليوم موعد الدرس الإنجليزي وسيسرّها أن ترى الأستاذ المغرور ، وتقدم إليه بعض ما عندها من المشاكسات والسخريات

إنها بالطبع ليست معجبة به ، ولو أن به بعض ما يستحق الإعجاب .. ولكنها فقط ، تجده موضع تسلية

وجلست في المدرج تنتظر هي وبقية الطلبة .. وكانت تسأل زميلها « الحلوف البيطري »

— ما آخر أنباء مرضاك ؟

— بخير والحمد لله ، يهدونك أزكى السلام .

ودخل صاحبنا ، الأستاذ الفتى ، وهو يتأبط كتابه ويكسو وجهه العبوس اليلازم ، وبدأ دراسته جاداً .

استمر في حديثه عن السفسطائيين وأفلاطون ومذهب الفرد والدولة ، وهي محدقة فيه ، يشرّد ذهنها تارة ليجول جولة في شتى المتناقضات ، ويحضر تارة أخرى ليتنقط بعض الرذاذ من المعلومات المتقطعة عن جورجياس وبروتاجوراس وأنثيفون وجلوكون ، ولم يحاول هو أن يوجه إليها نظرة واحدة رغم تنقل بصره بين الطلبة . كان يتجاوزها بنظرة كأنها غير كاثنة .

وضايقها ذلك وقويت لديها الرغبة في تحديه ومشاكسته ، ولم يكن هناك بد من تركيز ذهنها لكي تعي ما يقول حتى تستطيع معارضته ومناقشته

وأنصتت إليه وهو يسترسل في الشرح قائلاً :

— كان مذهب كاليكليز هو الرفض . التام لعدل القانون العرفي والإيمان

المتطرف بأن الحق الطبيعي هو القوة أينما وجدت ، لأن القانون جميعه نتاج للعقود التي صاغها الضعفاء ليخدعوا بها الأقوياء عن حقهم العادل الذي تخولهم إياه قوتهم ، فالقانون يشرع أخلاق الأرقاء وهي ليست أخلاقاً حقيقية ، لأن الطبيعة والقانون يتعارضان ، والطبيعة هي السنة الحقيقية للحياة الإنسانية ، وعدم المساواة هي قاعدة الطبيعة . أما العرف ، فيطالب الناس بالمساواة . والقوة في كاليكليز هي قوة الجسم والعقل ، ولو نهض السربيرمان في قوته فسيلغى سيطرة القطيع وسيتجلى فيه عدل الطبيعة .

وهنا وجدت فرصة سانحة للجدل والمعارضة والمشاكسة ولكن الإقدام عليها لم يكن بالأمر اليسير ، ولم تكن المشكلة في مجرد المعارضة ، فهي طويلة اللسان قوية الحججة ، ولكنها كانت في لغة المعارضة .. لقد كان عليها أن تتحدث بالإنجليزية ، فهو — من فرط « غروره » — يرفض أن يقبل كلمة واحدة بغير الإنجليزية خلال الدرس ، وهي تعتبر إقدامها على المناقشة باللغة الإنجليزية مغامرة في حد ذاتها . فهي لا بد أن تحضر في ذهنها مقدماً ما تنوى قوله ، وكان هذا على صعوبته مستطاعاً أما الذي لم يكن مستطاعاً أبداً ، فهو الرد على ما يمكن أن يرد عليها به .. رداً سليماً وسريعاً وبدون أخطاء .. وإلا أصبحت محل استهزاء وسخرية .

ورغم كل هذا فقد دفعتها روح العراك والمشاكسة إلى مقاطعته بقولها .
— هذا محض خطأ .. فالمساواة هي قاعدة الطبيعة .. ولقد خلقنا الله
وتوقف المدرس عن حديثه ؛ ونظر إليها في دهش وقال لها بهدوء :
— أولاً .. هذه الكلمة لا تنطق كما تنطقينها ولكن تنطق كذا (ونطقها نطقاً سليماً) ، أعيدى نطقها من فضلك يجب عليك أن تتعودى النطق الصحيح
ولم تجد بداً من أن تكرر الكلمة عدة مرات كأنها تلميذة في الروضة وعاد هو يقول في هدوء :
— وثانياً نحن لا نستعمل هذه الكلمة بالمعنى الذي تقصدينه ، ولكننا

نستعمل .. كلمة كذا .

أحسنت بالدم يتصاعد إلى وجهها ، والتجل يتملكها بعد أن أوقفها موقف الضيبة الصغيرة بمتى السهولة .

واستمر هو في قوله :

— وثالثاً أنا لا أحب أن يقاطعنى في حديثى أحد

وهنا وجدت منفذاً لفضبها فقالت في حدة :

— ولكن مادمت لا أقر رأيك هذا ، فيجب أن أبدي رأيى ..

— تستطيعين أن تنتظري حتى نهاية المحاضرة ، ثم تبدي ما تشائين من الآراء .

— إن ما أريد أن أبديه كثير ، فأنا أخالف رأيك على طول الخط .. وإن لم أريد

رأى أولاً فأولا .. فسأنسى في النهاية ما أريد أن أقوله .

— تستطيعين أن تكتبي نقطاً تذكرك بما تودين إبدائه ثم إنه ليس هناك ما يبرر

أن تزعجيني وتزعجى نفسك بمخالفتى في رأى ، لأنه ليس رأيى أنا .. إنه رأى

كالكليز ، وقد أكون أنا نفسى أخالفه في رأى ، ولكن ذلك لا يمنع من عرض

رأيه وشرحه ، وبعد كل هذا أرجوك ألا تقاطعنى .. وإلا اضطرت إلى منعك

من حضور محاضراتى .

قالها في حدة وشدة وإصرار ، ثم واصل الحديث في موضوع المحاضرة .

واحمر وجهها خجلاً ، ولم تملك سوى الصمت .. لقد كانت تحب الجدل ،

ولكن ذلك لم يكن يدفعها إلى أن تبلغ حد الوقاحة .

كان أقصى ما فعلته هو أن قطبت جبينها وكست وجهها سيماء التجهم طول

الدرس .

هذا الفتى المغرور قد هزمها في المعركة وانتصر عليها أعظم انتصار .. لقد هزأ

بها وسخر منها وعرف كيف يسكتها ، ويوقفها عند حدها ...

وجلس في السيارة بجوار الأستاذ « أنور » المحامى وعلى وجهها علامات

الغضب ، وتحركت السيارة في طريقها إلى البيت .. ونظر إليها « أنور » فوجدها

(بين الأطلال)

ما زالت مقطبة الجبين ، فقال لها فى رقة :

— لا تضايقي نفسك بما قال .. إنه وقع قليل الأدب ، جاهل محدث .. ثقيل الدم .. الحمد لله أنه لن يستمر فى التدريس طول العام ، فلا يلبث حتى يأتى المدرس الأصيل ، ويريجنا من ثقله وغطرسته .

هذا ما قاله صاحبنا محاولاً الترفيه عن نفسها . ولكنها مع ذلك لم تشعر من قوله بشيء من الترفيه .. بل أحست منه بضيق شديد .

والواقع أنها لم تكن فى حاجة إلى ترفيه .. إذ لم يكن هناك — فى قرارة نفسها — ما يحزنها ، ولم يكن عبوسها إلا استمراراً لذلك العبوس المصطنع الشكلى الذى كست وجهها به عندما نهرها المدرس !

عجيب أنها لم تكرهه ، ولم تشعر بضيق منه ! وعجيب أن كرهت صاحبنا الذى يجلس بجوارها لأنه انهال عليه بالسباب ، وتضايقت منه لأنه ذكرها بأنه لن يستمر فى التدريس لهم حتى نهاية العام .

إن هناك ما يعجبنا فى هذا المدرس الفتى المغرور .. قد يكون غروره ، وقد يكون شكله ، وقد تكون طريقة حديثه ، أو « ربطة كرافته » ، أو تصفيف شعره .. شيء ما يحدث لها ذلك الانشراح الذى تحس به وهى مقبلة على درسه ، ويسبب لها تلك المتعة الخفية التى تحسها وهى ترقبه خلال انهماكه فى الدرس . إنها ترقبه بنفس المتعة ، التى كانت ترقب بها « الأراجوز » فى طفولتها ولكنه ليس فى نظرها « أراجوزاً » . بالطبع . فهو يمتاز عنه بعض الشيء ملبسه أنيق ، وكبرياؤه أشد .

وابتسمت لنفسها وهى تتصور حاله لو سمع رأيها فيه ، وعرف أنه يشبه عندها « الأراجوز » .

وظن « أنور » من ابتسامتها أنه قد نجح فى تبديد عبوسها بسبب المدرس المأفون ، فأردف يقول ضاحكاً :

— على أية حال .. لقد عرفت كيف تهزئين به ، وتسكتينه .

منه كذاب منافق ، إنه هو الذى عرف كيف يهزأ بها ويسكتها ، ولكنها مع ذلك لم تملك إلا أن تجاريه فى قوله فقالت ضاحكة :

— وسأريه إن شاء الله فى الدرس القادم ، سأعرفه قيمته ومركزه ... من أين حصل على شهادته ؟

— يقولون إنه حصل عليها من كمبردج ، لقد تخرج حديثاً ...
لهذه — ألهذا ينفخه الغرور ؟

رسمت يحدث !

نقد — سأريه من منا الذى سيمنع الآخر من حضور المحاضرات .

فكانت وكانت السيارة قد وصلت إلى البيت وستر الظلام قد بدأت فى التهدل ، وكان بالجوريج أميل إلى البرودة والشدة ، تنفخ فى أشجار الكافور التى اصطفت له على جانبي الطريق ، الذى قام به المنزل .

ومدت يدها تصافحه وهى تطلق ضحكة مرحة ساخرة ، وهمت بجذب يدها والدخول إلى البيت ، ولكنها أحست أنه قد تشبث بيدها مستيقياً إياها فى كفه . وأصابها دهشة خفيفة وإرتباك بسيط ، واشتدت رائحة سخافة جديدة من يدها .

ويحه لقد نسى الدرس ، ولكنها ستعطيه درساً جديداً .

ولم تحاول أن تسحب يدها بحركة عنف فاستبقته قليلاً على يتركها من تلقاء نفسه ، ولم تجد بداً من التشاغل بأى حديث حتى لا يزيد الصمت من حرج الموقف ، وقالت متسائلة :

— ماذا لدينا باكراً ؟

ولم يجيبها ، وبدأ كأنه مصر على شئ .

وعادت هى تحيب نفسها :

— أظن ترجمة ؟

ولم يجيبها أيضاً ، ولكنها سمعته يهتف باسمها بطريقة هامسة مرهفة .. هذا

الأحق .. مصر على أن يلقى بحماقته ، ليلقها إذا وليته ، وأجابه على همسه بهدوء وقور :

— نعم .

واستمر هو بنفس لهجته الحارة .

— أريد منك مطلباً !

تري ماذا يريد هذه المرة .. لقد كانت السينا في المرة السابقة ، أما الآن فلعلها تكون نزوة خلوية . كلهم كذلك يأبون إلا أن يندمجوا في أدوار العشق والصبابة ، لا جديد على وجه الأرض .. أو لا جديد بين جدران الجامعة ، لقد كانت كل نظرة ترسلها .. أو كل كلمة رقيقة تقولها ، يؤولها متلقياً على أنها بداية غرام .

وأية غرابة في أمر صاحبنا .. إذا كان الحلووف البيطرى ، قد بدأ ينسج حولها شباك غرامه .. ألم يعطها بالأمس « قلة » وسأها أن تحتفظ بها !!
وغيره ، وغيره .. من الزملاء والأساتذة ، زميلها الصيدلى ، وطبيب الأسنان ، وموظف الإذاعة ، هذا الخليط العجيب قد بدأ كله يصوّب إليها سهام الفزل والحب والتودد .. كل واحد على حدة وبطريقته المضحكة الخاصة . كل يريد أن يختص بها نفسه ، وهى لا تصدهم ، ولن تصدهم ، ولكنها — كمادتها — ستجعلهم يحبونها بالجملة كزملة وصديقة ، لا كأنتى معشوقة .

.. وبدا لها أن صاحبنا هذا أكثر جدياً في خبه وأشد هياماً ، فهو لا ينفك يصوّب إليها النظرات الوهى خلال الدرس ، لا يكاد يحوّل عنها بصره وهو يقف الآن شاردأ واجماً ، وقد أطبق على يدها ، بأى إفلاتها ، وهو يقول لها في صوته الصب إن له مطلباً .

وأجابه في لهجة لا تخلو من الاستنكار :

— ما هو ؟

وصمت برهة وبدا عليه التردد .

لعل الأحق يريد موعد غرام ، أو مقابلة ما
فقلت له باسمه :

— أفصح وانته ، لا فض فوك . ماذا تريد ؟
وأخيراً نطق في همس ووجل :
— أريد أن أقبل يدك .

وكان لا بد لها أن تضحك .. يقبل يدها مرة واحدة ؟ كأنها شيخ معمم
مهجل ! ولي من أولياء الله ! . ولكنها كتمت ضحكاتها ، فهي لا تريد أن تسخر
منه ولا تريد أن تشجعه .

وقالكت نفسها وقالت في هدوء :
— ولكن ليس هناك أى موجب ولا مبرر لتقيل يدي . إن الزملاء لا يقبلون
أيدي بعضهم .

وأجابها في استعطاف :
— أرجوك .. لا تسخرى . إنك دائماً تأبين إلا مجابني بمقلتك لا
بعواطفتك ، إنى أسألك بحسى ، فأجيني بحسك .
— وإذا لم يكن ليدى حس ؟
— غير معقول ؟

— ولكنى كذلك ، إنى مخلوقة بعقل وبلا حس
— ولكن حتى بعقلك .. لا أظنك ترفضين أن تدعيني أقبل يدك .. إنها
ستمنحنى متعة كبرى ، ولن تضيرك بشيء . لن تضير كرامتك ولن تؤذى
مشاعرك .

— إننى لا أخشاه ، ولكنى أخشى ما تشجع عليه .. أخشى ما يمكن أن
يتلوها أو يسأل بعدها .
— أقسم لك .. إنى لن أسألك بعدها شيئاً ، ولن أطمع فى شيء . إنها أقصى

ما أريد

ولأول مرة أحست الفتاة المرحه .. الطليقة القلب .. المتحررة من قيود
العاطفة ، المتملكة زمام مشاعرها ، المطيعة لعقلها ، الراضخة لسلامة
تفكيرها .. لأول مرة تحس الفتاة بما يشبه رجفة في القلب .
هذا المخلوق الرقيق المهذب .. يعتبر تقبيل يدها هو أقصى أمانيه .. قد يكون
أحمق .. ولكنه صادق مخلص .

وصمت لحظة ، وتخلصت من جمودها وأجابته بصوت رقيق :

— خذها

وفي سكون أحنى هامته ورفع يدها بمنتهى الرفق كأنه يخشى عليها من التفتت
وألصق بها شفتيه برهة ، ثم تركها تهبط بهدوء وهمس :
— شكراً .

وانطلق بسيارته في الطريق المظلم ، ودخلت دارها وهي تهز رأسها عجباً !
قاتل الله كل قلب مرهف خفاق .. إنه يورد صاحبه موارد المذلة والضعف
والحاجة .

قبلة من يدها ؟! ما قيمتها حتى يتوسل لطلبها كل هذا التوسل ؟!

يدها ؟!

وأخذت تغلب يدها .. ثم انطلقت منها ضحكة ساخرة . وهتفت :

— حمقى .. مخاييل .. وقانا الله مثل مصيرهم

دخلت هي الدار ، وانطلق هو بالسيارة .. هي متعجبة دهشة ، وهو راض
فرير هاني سعيد .

يا لها من مخلوقة عجيبة !! هكذا كان يحدث نفسه ، وهو يحرك عجلة القيادة
بيطء بين يديه !

لقد عرف من قبلها الكثيرات وصاحب الكثيرات ، فهو إذا لم يكن يحدث
غرام .. بل كانت سيارته الفخمة تسهل له اصطلياد أية فتاة .. وكانت قلوبهن
مفتوحة أمامه على مصراعها .

ولكن هذه الفتاة ، من نوع لم يصادفه من قبل .. أو على الأصح ، هي ليست من نوع أصلاً .. لأنها فرد بذاتها ، لا شبيه لها .. إن لها شخصية عجيبة مسيطرة ، وهي تجبر من أمامها على أن يضعها في مستوى فوق مستواه .. وعلى احترامها قبل حبها .

إنه لا يشتهيها ولكنه يقدرها .. رغم أنه عندما أبصرها أول مرة في امتحان الدخول ، لم تثر به أى اهتمام نحوها ، ولا وجد بها ما يلفت النظر . إنها أول مخلوقة تجعله يفكر في الزواج .. إنه يمتنى لو تصبح أم أولاده وربة بيته ، ولقد خيل إليه أول الأمر أنها تبادل له بعض الشعور ، وبدا له من رضائها وركوبها سيارته .. أنها تكن له إحساساً خاصاً ، ولكنه على مر الأيام تبين له أنها لا تعتبره أكثر من زميل .

وانجبه إلى البيت مباشرة .. لم يمر على جرونى أو سمراميس حيث تعود أن يمضى وقته مع بعض الرفاق ، فقد كان يحس برغبة في الاختلاء بنفسه . كان يرغب في التمتع بطعم القبلة في هدوء .

وصل إلى بيته في جاردن سبتي .. بيت جميل مطل على النيل ، ووضع العربية في (الجاراج) وانطلق يصعد الدرج في خفة ومرح .

والتقى بأمه فطبع على جبينها قبلة ، ثم ذهب إلى حجرته وجلس في الشرفة يرقب النيل . وعندما حان موعد العشاء وجلس هو وأمه وأبوه وإخوته ، سأل أمه ضاحكاً :

— متى تنوين أن تفرحى لى ؟

ونظرت إليه أمه في تشكك وسألته مستنكرة :

— بتناور واللايه ؟

— أبداً والله .

— لِمَ ؟! ماذا حدث في الدنيا ؟ أمات يهودى ؟

— أفى هذا غرابة !! إنى أتكلم جاداً

— متى ؟

— لا بد للإنسان أن يتزوج ويستقر .. إن الزواج أفضل شيء للمرأة !
— واللف ، والدوران ، والجري وراء بنات الناس ؟ أتستطيع الكف عنها ؟
— سأطلقها ثلاثاً .

— عجباً ! ماذا جرى لك ؟ كنت دائماً لا أكاد أذكر سيرة الزواج أمامك
حتى تهب فتي كأنني كفرت .. كنت تقول عن الزواج جنون .
— كنت طائشاً .

— والآن عقلت ؟

— جداً .

— الحمد لله الذي هداك .. إن لدي عروساً لك .. مذهشة .
— لست أريد عرائسك .. سأختار عروسي بنفسى ، نحن فى القرن
العشرين ، لقد مضى عهد الخاطبة .
— اختر من تشاء .

وتدخل أبوه فتساعل ضاحكاً :

— كيف يختار من يشاء ؟ يجب أن يعرضها على أبيه أولاً .

وقالت الأم فى يأس :

— لا تتعب نفسك .. إنه يهرز . مادامت لديه « المدعوق » السيارة ، فلن
يفكر فى الزواج .

ولكنه مع ذلك كان يفكر جدياً ، وكان لا يكاد يخلو إلى نفسه حتى يتخيلها
بجواره ، تنهى وتأمّر فى داره ، وتنهز وترجر بنيه ، وتسأله ماذا يريد أن يأكل
اليوم . وأين يريد أن يذهب .

إنه لن يسمح لها بإتمام الدراسة ، فليس هناك أحب إليه من أن يراها ترتدى
فوطه بيضاء وتتحرك فى المطبخ أو تتجول فى الحديقة .. إنها توحى إليه دائماً

بالقدرة والحياة .

آه لو تركت يدها على شفتيه فترة أطول .. لقد كانت قاسية معه ، ولكنه يحب قسوتها .

وفي تلك اللحظة التي ازدحمت في ذهنه الخواطر والأسئلة .. كانت هي — يعنى المخلوقة التي كان يفكر فيها — قد استلقت في فراشها متمطية متاثبة ، وكانت تحدث نفسها بمثل قوله .

كانت تقول لنفسها .. لقد كان قاسياً معي ، ولكني أحب قسوته . ولم تكن تقصد صاحبنا الذي شرده ذهنه فيها .. بل كانت تقصد مخلوقاً آخر ، هي أبعده ما تكون عن ذهنه في تلك اللحظة .

كانت تفكر في الفتى مدرّس الإنجليزية .. الأحق المفرور ، اللطيف المنتظر ، وكانت تحس أنها تفكر فيه أكثر مما يجب .. ولكنها مع ذلك لم تحاول أن تنهى نفسها عنه .

إنها لا تنهى نفسها أبداً .. لأنها واثقة من نفسها مطمئنة إليها .
إنها إذا فكرت فيه .. كان تفكيرها لا يزيد على أنه (أراجوز) أو كما كانت تفكر في (الأراجوز) عند انصرافها عقب مشاهدتها له .. تفكر كيف تحرك ، وكيف تكلم .

ولم يكن هناك خطورة عليها من تفكيرها في أراجوز طفولتها ، وكذلك لن يكون هناك خطر عليها من تفكيرها في أراجوز صباها
أجل ! إنه لا يزيد على مبعث تسلية .

كان قاسياً في نهره لها ، ولكنها لا شك قسوة مصطنعة .
لقد هزمها في أول جولة ، ولكن صبراً .. الأيام دول ، والحرب سجال
وهكذا كان صاحبنا « أنور » مستلقياً على فراشه يفكر فيها كزوجة مثالية ، وكانت هي مستلقية في فراشها تفكر في « كمال » ، كلعبة مسلية لطيفة
ترى فيم كان يفكر « كمال » وقتذاك ؟ وأين كان ؟

كان في داره .. الفيلا الكائنة بمحاذئ القبة في أحد الشوارع المتفرعة من شارع (الملك) والتي كان يقطنها هو وأبوه والحاجة .

ولم يكن يفكر فيها بالطبع ، ولا كان يخطر بباله أن يفكر فيها .
إن كل تأثيرها في نفسه لا يتجاوز وقت الدراسة . كان يراها مخلوقة لطيفة ،
بوجهها المميز بين عشرات الوجوه ، المميز بدقة قسماته ودائم بسمته ،
والفرجتان في طرفي شفثيه .

كان يودّه لو استطاع إطالة النظر في وجهها ، ويودّه أيضاً أن يبادلها مرحها
وضحكها ونكاتا ورغبتها في الجدل والمناقشة والمشاكسة ، فهو لم يكن قط
مخلوقاً فظاً عبوساً ، ولكن لم يكن يستطيع أن يترك نفسه تفعل ما تشاء ، فقد
كانت رغبته في المحافظة على هيئته ووقاره ، تغلب أية رغبة أخرى . كان يخشى
من هذه الفتاة المرحّة أن ينساق معها فتهرب وقاره وتضيع قيمته . فهذا النوع من
الطالبات ، يجب أن يحذر منه ، فإن أي تشجيع لها سيجعلها تمنع في مزاحها
ومجونها . ولن يستطيع بعد ذلك السيطرة عليها أو ردها ، ولا شك أنها ستثير
حوله القيل والقال ، وهو ما زال في مستهل عمله .

وعلى هذا عزم على أن يوقفها عند حدها . وكان صده لها ، وزجره إياها عن
سابق تفكير ، فهو صدّ مع سبق الإصرار ، بل لقد كان يتحين لها الفرصة حتى
يوجه إليها صدمة توقفها عند حدها .

ولكنه مع ذلك شعر بأسف شديد عندما أبصرها مقطبة الجبين عابسة
الوجه ، ولكن هذا أفضل حتى ترتدع .

ولكنه أساء إليها ، وأساء إلى نفسه ، فلا شك أنها ستحتفظ له في ذهنها بصورة
مشوّهة لا تطابق حقيقته ، ستصوّره فظاً قاسياً جلفاً ، وهو ليس كذلك .
للتصوّره كما تشاء ، فهي لا تمنع في شيء ، إنها تلميذة فحسب ...

ولكنه مع ذلك يستطيع على مر الزمن أن يضع هذه الصورة المشوّهة .
أجل . أجل . إنه سيمحوها من رأسها .

رويداً .. رويداً .

هذا هو أقصى ما طاف برأسه عنها ، في الدرس ، وبعد الدرس ، وهو في طريقه إلى السيارة ، متجهاً إلى داره .
لم يذكرها بعد ذلك قط ، ولم تخطر على مخيلته فقد كان في ذهنه من المشاغل ما هو كفيل بطردها شر طردة .

كان في اللحظة التي تفكر هي فيه وهي مستلقية في فراشها قد جلس في (الصالة) على مقعد خيزران أمام أبيه الذي اضطجع بدوره في كرسي (فوتيل) وكان هو في جلسته هذه يحني الظهر ، متكأً بمرفقه على ركبته ، واضعاً ذقنه في راحته ، وقد تدلت ذراعه الثانية فوق ساقه الأخرى .

وكان يبدو على الاثنين — الأب والابن — تهم شديد ، ولم يكن السكون السائد بينهما ينبئ بغير ، بل كان يجزم بعاصفة على الأبواب .
وكان الابن أول من تكلم . قال :

— لقد استقر رأيي على أن أرسل في إحضارها ، ما رأيك ؟

— ما دمت قد كبرت وأصبح رأيك حراً في أن يستقر على ما تشاء ، فلماذا تستشيرني ؟ ثم إنك تعرف رأيي تماماً في الموضوع ، فما الفائدة من تكرار الكلام فيه ؟

— لست أعرف سبب إصرارك على رأيك .. لست أرى له أي مبرر ؟

— عجباً .. لا ترى أي مبرر لرأبي ؟ ولكنك ترى المبررات كثيرة لرأيك أنت . إنك ترى منتهى الحكمة والعقل ، أن ترسل في إحضار زوجة أجنبية من لندن كأن مصر كلها قد عقلت فلم تنجب الزوجة التي تنفع لك ، وتغلأ عينيك . ما شاء الله !! من تكون ؟ نبي ، أو إله ؟ وهذه الإنجليزية التي تنوى إحضارها ستعيش بها في المجتمع المصري بين أهللك المصريين وأصدقائك المصريين ؟ أم ترى تنوى أن تعيش بها في السفارة الإنجليزية ، وفي نادي الجزيرة ؟ ستجعلها تهضم بسهولة المجتمع المصري أم ستظل أنت متجلتراً مثلها ؟ هل

تعرف أنها ستكون أما طيبة لأولادك المصريين المسلمين ؟
— لست أول من تزوج إنجليزية ، ولن أكون أول من ينجب أولاداً من
إنجليزية :

— أجل . أجل . أعرف هذا .. لن تكون أولهم ، ولا آخرهم ، ولكنك
ستكون أحدهم ، أحد هؤلاء الولايا ، الذين أنجبوا أبناء لا يمتنون لهم بصلة ولا
شبه ، ولا كان لهم سلطان على نشأتهم وتربيتهم . أنا أعرفهم جيداً .. أعرف
واحداً منهم له ابن اسمه براين أو جيم .. أو شيء من هذا القبيل ، والرجل « المرأة »
يقول من باب التفاخر ، إن ابنه لا يعرف العربية . وأعرف آخر مسلماً قد أنجب
ابنة تذهب إلى الكنيسة في كل يوم أحد ، وهي لم تسمع باسم محمد .. إلا
كبوب في بيتهم . وأعرف آخر يسمع بأذنيه احتقار امرأته للمصريين .. فلا
يثور ، ولا يمنعها ، بل يشاركها فيه . فإذا سرك أنت أن تكون أحد هؤلاء ،
فإنني لا يسرني .. بعد أن اشتركت في ثورة ١٩١٩ لإخراج الإنجليز — أن أكون
على آخر الزمن جداً لأحفاد إنجليز ، وأن أوى في بيتي امرأة إنجليزية .. مهما دار
الزمن ، ومهما فعلت وقلت ، فلن تنزع من نفسها احتقارها للمصريين .
— لا داعي لأن تسكنها في بيتك ، فلم أطلب أنا منك ذلك ، سأعيش في بيت

مستقل .

— عش حيثما تشاء ولكنني لن أعرفك ، ولن أدخل لك بيتاً . سأقطع كل
صلة لي بك ، وأعتبرك في حكم الأموات .. فإذا لم يزعجك هذا كثيراً ..
فأحضرها ، وتزوجها .

— لا داعي لهذا العناد والإصرار يا أبني ! أنت تعرف قيمتك لدى ، ومنزلتك
عندي .. وتعرف أنه ليس لدى في الدنيا سواك ، وليس لديك في الدنيا سواي ،
ولن يستطيع أحدنا أن يستغني عن الآخر . وأنت رجل عاقل متحرر الذهن ،
سليم التفكير ، شديد الرأي ، وما كنت في وقت من أوقات حياتك بالرجعي
الجامد ، بل كنت دائماً تتركني حراً في أن أختار ما يحلو لي ، فلماذا تصر على أن

تفرض على مسلكاً معيناً في أمر أنا وحدي الذي يجب أن يت فيه ، أمر تتوقف عليه حياتي أنا ، وليست حياتك أنت .. إنني أكثر الناس فهماً لموقفى ، وتقديراً لمصلحتى وإدراكاً لما يجب أن أفعله !!
— افعل ما تشاء .

— سأفعل ما أشاء ، ولكن يجب أن تشاء أنت أيضاً قبل أن أفعله ، يجب أن تكون مقتنعاً به تمام الاقتناع وإلا فلن أفعله .. حتى ولو أدى إلى تدمير حياتى وتبديد سعادتى .

— أقتنع بماذا ؟ إذا كنت تستطيع إقناعى فأقنعنى ؟ أقنعنى كيف أقبل أن أكون جداً لإنجليز ؟

— أى إنجليز ؟ لا تقل هذا أبداً .. إننى سأجعلها هى مصرية ، إنها تحبى وتحترمنى ، وتحب المصريين وتحترمهم من أجل .. إن نشأة الأبناء تتوقف على سيطرة الأب وشخصيته ، فإذا كان رجلاً ضعيفاً قد جرفته شخصية امرأته فأنجبت أولاده حسباً تريد هى لا كما يريد هو ، فليس هذا داعياً لأن تتخذ الأمر قاعدة ، فتجعل كل ابن هو ابن أمه . ثم إنى أحبها .. ولقد اتفقنا على الزواج وانتهى الأمر . لقد كانت خير عون لى .. وأنا غريب فى بلادها .. إنها مرضتني ثلاثة أشهر لم يغمض لها جفن ليلة واحدة ؟ إنها لم تخذلنى قط .. فكيف أخذتها الآن ؟

— إذا هى مسألة شفقة ، ورد جميل ، ووفاء بوعد ؟
— ليكن هذا أوليكن غيره ، أى ضرر فى ذلك ! لقد تركتني حراً فى أن أختار كل شيء فى حياتى .. أفلا تتركنى حراً فى اختيار زوجتى .. على أية حال ، إذا كنت — بعد كل ما قلت لك — لم تقتنع ، فإنى لن أفعل إلا ما يرضيك ، فمشيتك أولاً ، ويأتى بعد ذلك كل شيء .

وصمت الأب وأطرق ، ومضت برهة سكون ، وأخيراً رفع رأسه ، وقال :
— ليس هناك ما يقنعنى بأن أكون جداً لإنجليز ، ولكنى مع ذلك لا أملك إلا

أن أترك لك الخيار في أن تفعل ما تشاء .. إنك لم تعد صغيراً ، والمسألة كما قلت حياتك أنت وليست حياتي أنا .

ونهض الابن فضم الأب بذراعيه وقبله قائلاً :
— لا تخش أن يكون أحفادك برين وچيم ، سأنجب لك حنفي وزينهم وزكية وسنية ، وسأجعلهم يحفظون القرآن .. هذا عهد بيني وبينك .
ولم يملك الأب إلا أن يزيل العبوس من وجهه وينهض مقهقهاً .. وجلس
« كمال » إلى مكتبه يكتب لصاحبه في لندن يسأله الاستعداد للمجيء ..
وإخباره بموعد مجيئها

مضى أسبوع على تلك الليلة .. والثلاثة : سامية وأنور وكمال .. لم يطرأ عليهم جديد .. « سامية » في حياتها المرححة البسيطة بين أمها والزملاء وكراريس المحاضرات والسينما في بعض الأحيان .. و« أنور » مندفع في حبه الجديد .. وفي تصميم مشروع زواجه وحياته المستقبلية .. و« كمال » في دروسه وانتظاره رد صاحبه .

وعندما حل يوم الأربعاء .. يوم المحاضرة الإنجليزية .. بدأ الانشراح المعهود يتسلل إلى نفس « سامية » منذ صباح اليوم .. بل منذ الليلة السابقة له .. هذا إذا تجاوزنا الانشراح الدائم الذي كان يداخلها طول الوقت .

كانت ترتب في ذهنها الأحاديث والمشاعبات والمهاجمات ولكن لم تكد الساعة تبلغ العاشرة حتى أحست بثقل في رأسها وسخونة في جسدها .
واستلقت على الفراش ، تتطلب الراحة .. ولكنها ازدادت تعباً وشعرت بمرض يثقل عليها ساعة بعد أخرى ، فلم يحل موعد ذهابها إلى الجامعة حتى تغلب عليها المرض وكانت تستلقي في إنهاك تام .

وأصابتها ضيق شديد ، ضيق بالمرض كمرض ، وضيق بالمرض كأنه من ذهابها إلى الجامعة والتسلية بمشاهدة « الأراجوز » الذي يقوم بتدريس اللغة

الإنجليزية .. كان نفس الضيق الذى يصيبها عندما تمرض وهى طفلة فى يوم عيد أو قبيل نزهة لطيفة .

ولم يكن أمامها سوى الاستسلام والرقاد ، والتعرض لجزع أمها ، والرضوخ لأوامر الطبيب ونصائحه وأدويته ، وكشف الأطعمة التى حرم عليها تناولها .

وعندما دخل الأستاذ « كمال » إلى المدرج فى ذلك اليوم ، أحس بشيء من الحية .. وهو يبحث عن وجهها المميز الصبح الضاحك ، فلا يجدها ، كان يود أن يزيل ما علق بذهنها عن فظاظته وغلظته ، وكان يأمل أن يتلطف معها حتى يذهب أثر نهره وزجره ، ولكنها بعدم مجيئها قد خيبت أمله ..

لماذا لم تحضر ؟ أتراها قد غضبت منه ونوت أن تقاطعه فلا تحضر هى محاضراته من تلقاء نفسها ؟ أتراها قد أساءتها الإهانة إلى هذا الحد ؟ أجل .. لا بد أن يكون هذا هو ما حدث .

قاتله الله .. كان يجب أن يكون أكثر رفقاً بها فهى لم تفعل ما تستحق عليه أن ينهرها بمثل هذه القسوة .. وهى مخلوقة لطيفة مهذبة . إنه يشعر كأن المدرج ينقصه شيء هام ، ينقصه شيء من الرونق والبهاء كانت تضفيهما عليه ، ولا شك أن بقية الطلبة يشعرون بذلك ويفتقدون غيابها ، فهم وجوم كالبوم ، ولكن ربما لا تكون قد غضبت ، وربما تكون آتية فى طريقها ، أو تكون تأخرت بعض الوقت .

أجل .. إنها لا شك قادمة فى الطريق .
وبهذا الاقتناع ، استمر يلقي درسه ، وهو ينتظر قدومها بين آونة وأخرى ، ولكن الدرس انتهى دون أن تحضر .

وتمنى لو استطاع السؤال عنها ، ولكن خشى أن يثير سؤاله لغط الطلبة ، وهم — كما يعرف جيداً — سفلة رعاع ، يجيدون اللغط والتشكك وإثارة الإشاعات .

لا .. لا .. يجب ألا يسأل عنها .

ولكن لم ؟ . إنها طالبة ضمن بقية الطلبة والطالبات ، وهو أستاذ ، وليس بمجيب أن يسأل أستاذ عن طالبته ، عندما تغيب ، على الأقل من باب الذوق وتأدية الواجب . إنه لا شك سائل عن أى طالب عنده إذا ما غاب ، ولكن أحقاً سيفعل ذلك ؟ بل .. أحقاً سيكشف غيبة أى طالب إذا ما غاب ؟ بل هل يعرف وجوه الطلبة الذين يدرس لهم واحداً واحداً !! حتى يميز من غاب ومن حضر ؟

إنه يكرر بنفسه ويخدع نفسه ، ومع ذلك فسيسأل عنها ، ليقولوا ما يقولون فلا بد من الاطمئنان عليها .

وفى طريقه إلى الباب تمهل قليلاً ثم تسأل بطريقة سريعة عابرة :
— أين ؟

وأشار إلى مكانها الخالي ، ولم ينطق باسمها كأنه لا يعرفه ، ثم حاول تعريفها بقوله فى سخرية :

— .. صاحبتنا الثرثرة ؟

وتطوع أحد الطلبة بالرد قائلاً :

— لم تحضر اليوم .

— خيراً .. ماذا بها ؟

— لا أعرف .. لقد كانت هنا أمس وأول أمس ، ولم تغب إلا اليوم .

لعلها غاضبة كما توقع ، أو لعل عذراً طارئاً قد منعها . لا بأس .. سيراها فى الأسبوع القادم .

ولم يطل المرض به « سامية » فقد كان مجرد إنفلونزا ، لم تلبث حتى أبلت منها فى اليوم التالى .

وواصلت « سامية » كهادتها ذهابها إلى الجامعة فى بقية الأيام .. حتى حل يوم الأربعاء التالى .

وكان الطلبة قد أنبأوها بسؤاله عنها ووصفه إياها .. « بالثرثرة » .

ولقد أظهرت امتعاضها واستياءها ووصفته بأنه « قليل الأدب » ، ولكنها في باطنها سرّها كثيراً أن يسأل عنها ، وأن يفقد غيابها ويصفها « بالثرثرة » . وماذا في ذلك ؟ ألا تصفه هي فيما بينها وبين نفسها « بالأراجوز الإنجليزي » ؟ لقد سرّها أن يزوج بنفسه معها في معركة ، فهي تستطيع أن تعتبر وصفها بالثرثرة كتحذ منه ، وأن تستند إليه كبداية معركة طويلة .

وكانت ترسم في رأسها الخطط وتحضر الأقوال حتى أضحت تحفظها عن ظهر قلب .. كانت لا تريد أن تخطئ في الإنجليزية ، حتى لا تدع له مجالاً للسخرية بها ، ولإخراجها عن موضوع الحديث .

أعدت الأقوال وحفظتها .. ومع ذلك لم تقلها .. لأنها لم تذهب .

كانت أمها هذه المرة هي السبب .. فلقد استيقظت متوعكة المزاج ، وظلت في فراشها طول اليوم .. مرتفعة الحرارة مثقلة الأجفان ، ورغم أن « سامية » كانت تنوق إلى الذهاب إلى الجامعة في هذا اليوم بالذات .. ورغم أن بقاءها في الدار كان سيثقل عليها كثيراً ، فقد اضطرت إلى البقاء لأن أمها كانت أعز عليها من كل شيء ، ولم يكن هناك سبب — أياً كان — يجعلها تترك أمها في مرضها .

أمنية تتحقق

٤

أقبل « كمال » على الدرس وقد أعد في ذهنه ما يمكن أن يصلحها به ويزيل كل ما علق بنفسها منه ، وكان لا يستطيع أن ينكر من نفسه ذلك الحنين إلى رؤيتها والشوق إلى سماع جدها الإنجليزي الركيك .

ولم يحاول أن يكسو وجهه ذلك العبوس المصطنع الذي كان يتخذه كلما دخل الفصل ، فقد شغله التفكير فيها .. عن التفكير في وقاره وهيئته ، ولكن العبوس ما لبث حتى علا وجهه .

هذه المرة .. كان عبوساً طبيعياً ، منشؤه أنه لم يجد الوجه المحبوب لديه مرة أخرى .. ما بالها لم تأت بعد ؟ أمريضة هي ، أم غضبي ؟

ولم يستطيع أن يكتم السؤال في جوفه طويلا ، فقد كان ضيقه من غيبتها لا يدع له مجالا للتروى والتمهل .

وسأل ببساطة :

— ألم تحضر سامية ؟

وتطوع جاراها بالإجابة :

— لقد حضرت طيلة الأسبوع ، ولم تغب إلا اليوم .

إذن فقد ذهب الشك ووضع اليقين .. إنها غضبي !

الحمقاء الصغيرة !! أنتوى حقاً أن تقاطع محاضراته ؟ ولكن علام كل هذا ؟!

إنه لم يفعل ما بغضبها بهذا القدر .

ولكن ألم يهددها بالطرد من محاضراته ؟ ياله من وقع محدث ؟! كان يجب أن يكون أكثر من هذا أدباً . لو لم تكن الفتاة مهذبة لعرفت كيف ترد عليه وتسخر منه كما سخر منها ...

ولكن ما العمل الآن ؟ إنه على أتم استعداد لأن يعتذر لها في صراحة .. وأمام الطلبة إذا أرادت . ولكن كيف يعتذر .. إذا كانت لا تأتي في يومه ؟ كيف

يلقاها ؟ أيحضر لها في أى يوم آخر غير يوم محاضراته ؟ ولكن ماذا يقول الطلبة ؟
إن هذا هو حقاً مما يستدعى لغظهم وأقاولهم .. سيقولون إنه أتى خصيصاً
لمقابلتها .. وهو المفروض فيه أن يكون أستاذاً محترماً ؛ لا .. لا .. إنه لن يفعل
هذا .. لعنة الله عليها .. مخلوقة متعبة .

ولكن هناك طريقة أسهل ، قد تكون ناجحة وتردع الفتاة .. إنه يستطيع أن
يلجأ إلى تهديدها ، وأن يطلب من الطلبة تحذيرها من التخلف وإلا فقد يخفض
نسبة الحضور التي يجب أن تحصل عليها واضطر إلى حرمانها من الامتحان
أجل .. أجل .. هذه خير وسيلة .

ولكن من يديره أن الفتاة العنيدة لن تترك رأسها وتتحدها فلا تحضر ..
وهي لن تعدم الوسيلة في الدخول إلى الامتحان كما يفعل معظم الطلاب .
على أية حال يجب أن يفعل شيئاً .

وأخيراً استقر رأيه على حل وسط .. وقال للطلبة ببساطة :
— إذا حضرت في الغد فأنبئوها ألا تغيب عن الدرس القادم .. وإلا فلن
تستطيع اللحاق بنا بعد ذلك .

هذا قول معقول جداً ، لن يثير لفظ الطلبة ، ولن يثير تحديها
وفي اليوم التالي أنبأوها بقوله .. وتملكها منه غبطة شديدة ؛ وإن كانت
تعرف أنها لم تكن في حاجة إليه .. فقد كانت عازمة على الحضور في الحصة
القادمة مهما حدث .

ومضى الأسبوع .. و « أنور » مستمر في توصيلها كل يوم كعادته ؛ ولم
يكن يحاول أن يزعجها بشيء من مظاهر حبه .. ولم يضايقه هذا .. فقد كان
قانعاً برؤيتها كل يوم في المعهد .. وتوصيلها إلى بيتها ، قريراً بآماله فيها ، مطمئناً
إلى مستقبله معها .

وفي يوم الأربعاء التالي .. كانت قد أعدت نفسها مرة أخرى للمعركة .
ولكن استعدادها هذه المرة قد طرأ عليه شيء جديد ، لم يكن مجرد استعداد
ذهني .. بل استعداد شكلي

كان سلاحها دائماً هو عقلها ولسانها ، فما حاولت قط — كما سبق القول — أن تستعمل سلاح المرأة الطبيعي في أى هجوم لها ، فقد كانت تزدريه كسلاح ، وكانت ترى نفسها أسمى وأعقل من أن تستعمله .
ولكنها اليوم أطلت الوقوف أمام المرأة ، وأخذت تدور حول نفسها وترفع رأسها وتدير عنقها بمنة ويسرة .

« مش بطالة !! »

ولو فككت هذه العقصة في شعرها وتركته ينسدل على كتفها لبدت أحسن كثيراً .. أجل .. هكذا .

ووجهها « في جملة » لا بأس به ، وعندما تضحك يكون شكلها أفضل ، فالغمازتان تضيفان عليها نوعاً من الفتنة .

وضحكت في المرأة ، ثم عادت فعبست ، وعادت فضحكت مرة أخرى .
ما هذا البله الذى صارت إليه ؟. يجب أن تحتشم ، فهى فتاة عاقلة .. تدرس دراسة عليا ، وتنوى الحصول على الدكتوراه ، وستصبح في يوم ما شيئاً هاماً في هذا البلد الذى ليس به أى شيء هام .

ولكن ما دخل هذا في أن ترى شكلها .. و .. ليس هناك من يراها .. وهى تستطيع أن تفعل في خلوتها ما تشاء ..

إن جسدها لا بأس به . إن الثياب لا تبديه كما يجب ، إنه بلا ثياب أفضل كثيراً .. فالثياب لا تظهر جيداً بروز ثديها واستدارة ردفها .

ولكن لِمَ تريد أن تظهر هذه الأشياء التى لم تحس بها من قبل ؟ إذا كانت الثياب لا تظهرها ، فلتسر بلا ثياب ، وماذا في ذلك ، ألم تجن ؟! إن هذا هو ما ينقصها بعد كل ما فعلت .

لعنة الله عليها .. إن في نفسها كثيراً من التفاهة المستترة ، إن الناس مخدوعون فيها كثيراً ، يجب أن تعقل وأن تحتشم .

ولكن بعض الأحمر الخفيف جداً ، الذى يكاد لا يظهر . لو وضع على

خديها ، لجعلها تبدو أكثر بهاء وأكمل رونقاً .
وما من داع هناك لهذا التأخير ، « ككسيرة المرشدات » إنها تبدو
أكثر امتلاء وفتنة في الفستان الحريري الأزرق ذي النقط البيض .

لكن لم كل هذا ؟

أمن أجل « الأراجوز » ؟

لا .. لا .. !!

ونفت بشدة عن نفسها هذا الجواب ، إنه مجرد تغيير ، لا أكثر ولا أقل .
ومن يكون هو .. حتى تلبس من أجله ثوباً مخصوصاً ؟
وانتهت من ارتداء ثيابها ، وأنبأتها آخر نظرة عما في المرأة .. أنها جميلة ، بل
جميلة جداً .

وأكدت لها أمها حديث المرأة بقولها وهي منصرفة نحو الباب :

— ما هذا الجمال والأناقة .. أذهابة إلى حفلة ؟

ولم تعرف كيف تجيب ، ولكنها اضطرت إلى الكذب فقالت موافقة

باختصار :

— أجل !

— أى حفلة ؟

— حفلة شاي لتكريم الأساتذة .

وغادرت البيت متجهة إلى الجامعة .

وعندما اجتازت بهو الكلية في طريقها إلى المدرج صادفت في طريقها « عبد

السلام » الفراش فحياها قائلاً :

— أستاذ الإنجليزى سأل عليك . فقلت له لم تحضر بعد .

— وأين هو ؟

— جالس في حجرة الأساتذة .

وأحست بدافع خفى شرير يدفعها إلى أن تذهب لمقابلته في حجرة

الأساتذة .. لِمَ يسأل عنها ؟ لا شك أنه يريد لها في مسألة عاجلة !
وانتهجت رأساً إلى حجرة الأساتذة وهي تعلم تماماً أنه ليس بينها وبينه أمور
مستعجلة ، ولا غير مستعجلة .. وأنها تستطيع أن تنتظر في حجرة الدراسة لثقلها
مع بقية الطلبة ، ولكنها مع ذلك لم تشأ أن تترك فرصة لقائه على حدة فقلت
منها .. إنها تستطيع أن تكون أكثر حرية في الاختصاص منه .

« ثرثرة ! » ستره أنها حقاً « ثرثرة » . وستره كيف يهددها بالطرد من
حصته .. حقيقة إن له جميلاً سابقاً عليها وأنه لولاه لما دخلت المعهد ، ولكن ذلك
لا يرغمها على قبول وقاحته ، والسخرية منها .

وبفرحة المقدمة على مشاهدة « الأراجوز » اجتازت باب غرفة الأساتذة ،
فوجدته قد جلس وحيداً على أحد المكاتب وقد أخذ يقلب كتاباً بين يديه فقالت
باسمة :

— نهارك سعيد يا أستاذ .

— أهلاً وسهلاً .. نهارك سعيد .

كان وجهه بادی البشاشة ، خالياً من تلك العبوسة التي تعودت أن تكسوه
خلال الدراسة ، لقد سبب دخولها المفاجئ عليه فرحة شديدة لم يستطع أن
يخفيها ، بل لم يأبه لأن يخفيها .. ولا سيما وأنهما وحدهما .

وسألته في لهجة جادة :

— بلغني أنك سألت عني ؟

— أجل !

— من أجل ؟

وحاول أن يكسو وجهه مظهر الجد وأجاب بقوله :

— من أجل مصلحتك ، إني أخشى إن استمررت في التغيب أن تكون النتيجة

رسوبك في نهاية السنة .

— لم أعرف الرسوب في حياتي .

— لا يمنع ذلك من أن تعرفيه الآن .. فلا بد أن يعرف الإنسان كل شيء .
حتى الفشل .

— أهذا كل ما تريدني لأجله ؟

وعلت وجهه ابتسامة ، وزالت عنه مظاهر الجد وهو يقول ضاحكاً :
— ولقد أوحشتني غيبتك ، وخشيت أن أكون قد أسأتك في المرة الأخيرة
وأردت الاعتذار إليك .

— شكراً .. المسألة بسيطة لا تستحق الاعتذار . ولقد كنت أنوى ردها
إليك ، ولكن ما دمت قد اعتذرت .. فكفى الله المؤمنين القتال .

— الحمد لله على أنها « جت سليمة » .

ومضت برهة صمت .. أحس كلاهما بشيء من الارتباك ولكنه ما لبث حتى
سألها :

— أتجدين أى صعوبة في دراسة ما أخذناه حتى الآن ؟

— لا صعوبة ولا سهولة ، لأنى لا أعرف ماذا أخذنا .

— ولكن يجب أن تقرئى أولاً فأولاً .

— لا أستطيع .. إنى أنتظر حتى آخر العام .. وأخذها كلها جرعة واحدة ،

كما نفعل تماماً بالدواء المر .

— إلى هذا الحد ؟

— وأكثر . إنى لا أكره شيئاً في حياتى كاللغة الإنجليزية ولى فيها ماض غير

مشرف .

وضحك من قولها وأجابها :

— ولكن يبدو أن لك مستقبلاً مجيداً ؟

— بعد هذا العمر ؟

— ولم لا ؟

— إنى أقول .. يا الله حسن الختام .. لا أمل لى في إتقان هذه اللغة اللعينة .

— ولكنى أستطيع أن أجعلك فيها قوية جداً .

— وكيف ؟

— بالقراءة .. اقرئ كثيراً .

— أقرأ كثيراً ؟ ولو كنت أستطيع أن أقرأ كثيراً ، أعتبر نفسى ضعيفة فى الإنجليزية ! . إنى لا أستطيع أن أقرأ كثيراً ولا قليلاً .. ليس أثقل على من قراءة الإنجليزية .. إنى أقرأ كثيراً جداً .. ولكن بالعربية .. لغة بلادى .. أما بالإنجليزية فأبى أكاد لا أقرأ إلا الدروس .

— شيئاً فشيئاً ، يجب أن تبتدىء بالقراءة فى موضوعات سهلة لطيفة مشوقة .
— مثل ؟

— هذا الكتاب الذى فى يدي مثلاً ، إنه مجموعة قصائد الشاعر كيتس .. آية فى البداعة .. لن نملحه قط .

— شاعر إنجليزى ؟ أنا أقرأ شعر إنجليزى ؟ إنك حسن الظن بى !

— ولم لا تقرئيه ؟

— لأنى لا أفهمه .

— إنى أستطيع تفهيمك وشرح ما يهيم عليك .

— ومن أين لى بأستاذ مثلك أستعين به فى كل قراءة . الأساتذة ليسوا بمثل هذا الرخص وهذه الوفرة ، إذا كانت كل تلميذة تستطيع أن تحصل على أستاذ يبقى تحت تصرفها ليشرح لها كل سطر ، لما بقى فى مصر جاهل ولا جاهلة .

— أنت غلباوية .. قلت إنى على استعداد لمعاونتك فى القراءة ، وأنا أعنى ما أقول . على أية حال خذى الكتاب وحاولى أن تقرئيه .. وفى المحاضرة القادمة أنبئنى عما استطعت قراءته .

ودقت ساعة الجامعة مؤذنة بالرابعة ، فنهض من مكانه وهو يعطيها الكتاب فأخذته وهي تقول :

— شكراً .. سأحاول قراءة أكبر قدر ممكن منه .. وسأستعين بالقاموس .

— أظننا قد اصطلمحنا ؟

— طبعاً .

— لم يبق في نفسك شيء منى ؟

— شيء واحد .

— ما هو ؟

— لم أنبتك بعد برأىي في كالكليز .

— دعينا منه .. إنه سخافة دراسية .. هذه أشياء لا بد من قولها .. لأنها في

البرنامج .. لا تضايقي ذهنك بها كثيراً .

ودخلا معاً مدرج الدراسة .. وجلست هي في مقعدها وجلس هو على منضدته وبدأ الدرس .

وفي خلال الأسبوع التالي لم يكن لها من عمل سوى القراءة في كتاب

« الشعر » .

حقيقة أنها كانت ضعيفة في الإنجليزية ، ولكنها كانت قوية الإرادة .. شديدة الجلد .. وكانت تعتبر المسألة واجباً لا تسلية ، فقد أرادت أن تكون كفوفاً للنقاش معه وألا يعاملها كمجرد تلميذة .

وانتقت قصيدة قصيرة سهلة .. وانكبت على حفظها .

وفي يوم الأربعاء ذهبت مبكرة عن موعد الدراسة ما يقرب من نصف الساعة .. وسألت عنه عبد السلام .. فأنهاها بوجوده في المكتب .

لقد التقى الاثنان في خططهما ، لقد قدم هو مبكراً بأمل أن تكون هي قد جاءت مبكرة ، وقدمت هي معللة بنفس الأمل .

وقصدت توا إلى حجرة الأساتذة .. وطرقت الباب طرقة خفيفة .. ثم دلفت

إلى الداخل قائلة :

— نهارك سعيد يا أستاذ .

— نهارك سعيد يا سامية .

كانت المرة الأولى التى ينادىها بغير « يا آنسة » وأحببت منه نطقه باسمها .. أو أحببت اسمها حين نطق به .

ومدت يدها إليه بالكتاب وهى تقول :
— شكراً .. كتاب لطيف .. لم أجد صعوبة فى قراءته ، على عكس ما كنت أظن .

— ألم أقل لك ؟ .. ماذا أعجبك به ؟
وكان هذا السؤال الذى أعدت نفسها تماماً للإجابة عليه وأخذت تسرد عليه بضعة عناوين ، وفى النهاية قالت :

— أما القصيدة التى هزت مشاعرى فهى قصيدة « عيد الميلاد » لقد قرأتها مرتين فحفظتها عن ظهر قلب .
ثم اندفعت تتلوها .

فلما انتهت قال بإعجاب :
— مدهشة ! لماذا تدعين إذاً كرهك للإنجليزية ؟
— الظاهر إنى شاعرة دون أن أدرى .. أو شاعرة .. دون أن أشعر .. لقد أحببت الشعر كثيراً .

— وعلى ذلك لست فى حاجة لمساعدتى ؟
— بل فى أشد الحاجة إليها .. إن هناك قصائد كثيرة لم أفهمها .
— نقرؤها معاً إذاً !

— متى ؟
— فى أى وقت تريدان .
— وأين ؟

— حيث تشائين .. إنى تحت أمرك .
هكذا مرة واحدة ؟ هذا العبوس المغرور المتكبر قد أضحى تحت أمرها .
وبدون كثير تفكير قالت متسائلة :

— بعد انتهاء الدرس ؟

— ليكن .

— أين ؟

— يوجد كازينو هادى على النيل .. نستطيع القراءة به فى أتم هدوء .

— كما تشاء .

وغادرت الحجرة متجهة إلى مدرّج الدراسة .

طائشة .. حمقاء ! لقد أحسّت لأول مرة فى حياتها أنها قد اندفعت فى خطأ .

ما هذا الذى فعلته ؟ أى شعر هذا الذى ستقرؤه معه فى كازينو على النيل ؟ كازينو هادى ، أشبه بملجأ للعشاق .

أيهما من العشاق ما يستدعى هذا الحرج والاندفاع ، وتعريض السمعة للأقاويل والشبهات ؟

إن حاجتها دائماً فى كل ما أقدمت عليه ، هى أنها سليمة القصد .. وبسلامة قصدها كانت تدحض كل إشاعة سوء تلحقها . إنها كانت تقدم بشجاعة على كل ما توحى به نفسها . لم تكن تأبه كثيراً بأقوال الناس ، مادام غرضاً صائباً .. وكان الناس يحترمونها دائماً فى النهاية ، ويندمون على ما قد ظنوه بها من سوء . ولكن الآن .. هل تستطيع أن تحتج على هذا العمل الأخرق الذى توشك أن

تقدم عليه .. بحسن القصد ، أو بصواب الغرض ؟ لا .. لا .. يجب ألا تتدع نفسها .. يجب أن تكون صريحة فى هذا الأمر .. على الأقل مع نفسها .

إن هذا الشخص بالذات قد نال من نفسها اهتماماً خاصاً واتخذ مركزاً ممتازاً .. إنها تشعر من التفكير فيه بسرور .. وسواء ادعت أنه كالأراجوز ، أو غير الأراجوز .. فهى تحب لقاءه والتفكير فيه . ومن العبث أن تنكر هذا .. وهى بلا شك لا يهمها كثيراً .. الشعر الإنجليزى .. ولو قال لها قائل :

اجلسى فى كازينو على النيل واقربى كتاب شعر إنجليزى لضحككت ملء شديقها ،
واتهمته بالجنون .

أما الآن فهى تقدم على هذا العمل ببساطة وبرغبة .. لأنه سيزيد على الشعر
الإنجليزى والكازينو على الشاطئ ، شئ جديد ، هذا الشئ هو : هو ..
فوجوده إذا جعل ما كان الإقدام عليه يسمى جنوناً .. قد أضحي عملاً طبيعياً لا
غبار عليه .

إذا فهو قد أضحي نقطة التحول فى تصرفاتها وفى تفكيرها وهى لا تستطيع أن
تنزعه من نفسها ، ولا تستطيع أن توقف تلك المشاعر الداخلة فى باطنها ، التى
يشيرها فيها .. مشاعر السعادة والمتعة . هذه أشياء أصابتها برغمها ، وستبقى
برغمها أرادت أم لم ترد .

ولكن ذلك لا يمنع من أنها تستطيع بشئ من الإرادة السيطرة على أعمالها
الظاهرة ، والحد من ذلك الاندفاع ، والحرية التى كانت تسمح بها تصرفاتها من
قبل ، عندما كان باطنها خالياً .. لا يشوبه شعور معين .. ولا يتجه للاحية
بالذات .

أجل ! يجب عليها من الآن أن تتصرف بحذر .

عندما كانت خالية بريئة ، كان لها أن تفعل كل ما تشاء . أما الآن وهى تشعر
فى داخلها أنها مذنبه ، وغير خالية . فيجب أن تتروى ، وأن تحسب حساباً
لأقوال الناس ، وإشاعاتهم ، لأنهم هذه المرة سيجدون أساساً يستندون إليه .
كل ذلك دار بذهنها وهى تجلس أثناء المحاضرة .

وكان تفكيرها إذ ذاك منطقياً سليماً .. انتهى بها إلى وجوب الاعتذار عن
موعد اليوم .. لا اعتذاراً نهائياً ، ولكن تأجيله إلى « فرصة » مواتية تكون فيها
الأمر أكثر تدبيراً .

ولم يغل ذهنه هو أيضاً من نفس التفكير .. لقد اقتنع بأنه يميل إلى الفتاة ، وأنه
يسعد بلقائهما والحديث معها .. ولكنه اقتنع أيضاً بأن من الحمق والوقاحة أن

مخرج وإياها من الجامعة أمام الطلبة في سيارته ، وأن يجلسا معاً في كازينو .. أقل ما يقال فيه إنه ليس مكاناً لدراسة شعر ، ولا للقاء أستاذ بطلانية ! وهكذا ما كاد ينتهى الدرس ، حتى تبعته وهو في طريقه إلى حجرة الأساتذة وقالت له :

— أظن من المحرم أن تؤجل موعد اليوم يا أستاذ .. لأني تذكرت أن لدى عملاً هاماً .

— حسن .. نستطيع أن تؤجله إلى أى وقت تشائين . أى موعد يناسبك ؟
— فى الغد .. فى مثل هذا الوقت سأنتظر عند محطة الجيزة .. ولا أرى داعياً للجلوس فى هذا الكازينو .. فأنت تعلم أقوال الناس .
— أجل ! أجل . ستتفق غداً على أى مكان ترغين .

وركبت السيارة مع أنور إلى البيت فى هذا اليوم كعادتها وهى شاردة واجمة .. وعندما ذهبت إلى الفراش لتستسلم للنعاس أصابها الأرق طويلاً قبل أن يغمض لها جفن .

كانت قلقة . إنها تعودت التحرر والانطلاق .. تعودت أن تذهب مع هذا وذاك حيث تشاء .. ولكن لم تشعر بمثل هذا القلق الذى تشعر به الآن ، إن بها قلق المقدم على مغامرة المستقبل على أمر خطر .

وفى اليوم التالى اعتذرت لأنور عقب الدراسة وأنبأته أنها لن تذهب إلى البيت .. لأنها على موعد مع إحدى صاحبات فى بيت قريب وستسير إليه على أقدامها .

وألح « أنور » فى توصيلها حيث تشاء ، ولكنها أصرت على الاعتذار شاكرة له جميله .

وبعد لحظات كانت تقف فى قلق ، وإحساس بالوزر ، فى ميدان الجيزة .. ولم تنتظر إلا قليلاً ، حتى أقبل عليها « كمال » بسيارته واتجهها فى طريق المحرم .
ورآن صمت طويل .. صمت بالإحساس بالخطأ .. ولم يحاول أحد منهما

بينه وبين نفسه أن يتعلل بالشعر ، فقد كان كل منهما يعرف أنه لم يكن أكثر من معبر للقاء . وأن كلا منهما يحب الجلوس بجوار الآخر ، ويرغب في رؤيته ، وسماع حديثه .. هذا هو ما يريد كل منهما .. فلا داعي بعد ذلك للتعلل بالشعر ، والارتكاز على القصائد .

ومع ذلك فلم يجرؤ على المصارحة بمشاعره ولا سيما هو ، فقد كان يحس بفداحة ذنبه ، وعظيم جرمه .

كانت الأفكار تصطبغ في رأسه ، فلا تترك له فرصة للإحساس بمتعة وجودها إلى جواره ، والمخلوة معاً في مكان ناءٍ بعيد .

ما قصده من كل هذا ؟ إنه يحب الفتاة ويقدرها ويحترمها وكان خليقاً به ، والأمر كذلك ، ألا يندفع في خلق علاقة بينهما تتجاوز علاقة المدرس بالطالب . كان خليقاً به ألا يجلسها الآن بجواره حيث يتجهان وحيدان في طريق خال بلا قصد معين أو بقصد مضحك ، هو قراءة كتاب من الشعر .

ماذا يريد منها ؟

لو أنه إنسان غير مقيد ، لقالها بملء فمه : الزواج .
أجل ! إنها لا شك تستطيع أن تسعد أى مخلوق متزوج .. إنها مخلوقة نموذجية .

ولقد أحس منذ رأى وجهها وبسط عشرات الوجوه أن لها موضعاً خاصاً في نفسه ، وأنها يمكن أن تكون ذات شأن في حياته .

كل ذلك مقبول وحسن لو أنه حر يستطيع زواجها . أجل . ليس هناك ما يمنعه من الاندفاع نحوها والانسياق في حبها ، ولقائهما والخروج معها ، لو أنه يستطيع أن يختم كل هذا بخاتمة جدية .

أما أن ينساق معها مجرد إرضاء النفس ، فهذا هو العبث والحمق ، وإثارة اللفظ والأقاويل وتشويه السمعة ، سمعته وسمعته .

إنه يعتبر نفسه في حكم المتزوج ، ففى خلال أيام يصل إليه رد خطابه ، الذى

ستحدد فيه زوجته القادمة موعد مجيئها .

لقد كان أبوه على حق في كل ما قال .

أجل . ليس هناك وجه للمقارنة على الإطلاق بين الفتاة الإنجليزية القادمة ،
والمصرية الجالسة بجواره .

ماضى القدر لم ساقها إليه قبل ذلك بقليل ! ما ضره لو جعله يحس بقيمتها في
قلبه قبل أن يرسل الخطاب الذى حدّد به مصيره وقيد به نفسه ؟

أهو يجب الإنجليزية حقاً ؟ أم أن المسألة لا تعدو — كما قال أبوه — مجرد شفقة
ووفاء بوعده ؟

أى وعد !! إنه لم يعدها بزواج ، ولكنه عاهد نفسه على أن يرسل في طلبها
بمجرد المجئ إلى مصر .. إنه مجرد عهد بينه وبين نفسه .

تبأ له من مغرور أحق !

ولكن ما فائدة كل هذا الآن . إن خير ما يفعله هو أن يكون رجلاً ، فلا يحاول
أن يزوج بالفتاة في علاقة لا فائدة له منها .. يجب ألا يورطها أو يتورط معها .

إلى هذا انتهى به تفكيره اليائس ، ألا ينزلق معها وأن يعدد نفسه عنها ، وأن
يتحاشاها قدر ما يستطيع .

ولكنها لم تكن في تفكيرها كذلك ، لم تكن قط يائسة ، على النقيض إنها
كانت نحس — رغم قلقها من الجلوس بجواره — بالأمل ينساب أمامها .. أملاً
يفتح آفاقاً متسعة لم تفتح من قبل .. كانت تشعر أن هذا المخلوق العزيز عليها
الجالس بجوارها ، يمكن أن يصبح ملكاً لها في يوم ما .. ويمكن أن تصبح ملكاً
له ، وأن يضمهما بيت واحد ويربطهما أولاد مشتركون .. أجل . يمكن أن
يكون كلاهما مخلوقاً واحداً .

هذا شيء جميل .. ممتع .. أمتع كثيراً من الدراسة والدكتوراه ؛ ورئاسة
الحزب النسائى ؛ والوزارة ؛ ورئاسة الوزارة .. إن كل هذه تبدو سخافات
ومهاترات أو زبداً ذاهباً جفاء .

أما هذا الاندماج الذى باتت تتلهف عليه . فهو الثابت الباقي ، هو الريح الحقيقى الذى يمكن أن تحصل عليه من الحياة .

لقد كانت تعيب على المرأة جلوسها على قارعة الحياة ، ومد يده لعابر سبيل يتولى أمرها وتشاركه حياته وريحه ومصيره .

كانت تكره ذلك .. وتعييه على النساء .. ومع هذا فلشد ما يسعدها أن تجلس الآن تمد يدها إلى ذلك الجالس بجوارها لكي يتناولها ويضمها إليه .. ويمتلكها ويشرك مصيرها في مصيره .

لقد كانت تكره تبعية المرأة للرجل .. ومع ذلك فلشد ما باتت — وهى تجلس بجواره مرهفة الحس — تتلهف على هذه التبعية .

إن المرأة إذا أحببت .. فهى تفضل مسح خداه زوجها على رئاسة الوزارة .
حداً لله .. أن خلق بعض النساء بحيث لا يمكن أن يندمجن في حب ، حتى يستطعن المناادة بحق المرأة وحريتها .

كانت تشعر .. وهى تجلس بجواره .. أنها لأول مرة . قد باتت أنثى . وكانت تنوق إلى الالتصاق به والارتقاء بين أحضانه .

هكذا كانت مشاعرها ، وذلك كان تفكيرها . ومع ذلك فقد كانت لا تملك إلا الجلوس في قلق وشروء وخوف واضطراب .

وأخيراً وقفت العربية .. وسألتها في رقة :

— أفضلين البقاء في العربية .. أم الجلوس في هذا المقهى ؟ .

— الجلوس في العربية أفضل .

وببساطة .. أخرج كتاب الشعر .. وفتحه وبدأ في القراءة والشرح .

ما هذه الغباوة ؟ من قال له إنها تريد أن تسمع شعراً ؟ إنها تريد أن تسمع حديثه هو عن نفسه وعن آماله وعن حياته .

ومع ذلك فقد استمر في القراءة والشرح .. كان عازماً على المقاومة ، وعلى الوقوف عند هذا الحد ، حد الأستاذ والتلميذة .

ولم تملك هي إلا الإنصات بذهن شارد تائه .

وأخيراً نظر إلى الساعة ثم قال :

— أظن هذا يكفى اليوم ، ومن الخير أن نعود الآن ؟

— أجل . يكفى هذا اليوم .

وأدار العربة ثم عاد من حيث أتى .

وتملكها أثناء عودتهما خليط من الإحساس بالخيبة والفشل .

أحقاً يظنها في حاجة إلى تعلم الشعر الإنجليزي ؟! أكل ما يشعر به نحوها هو

مجرد رغبته في تعليمها ؟

تبأله من أحق مأفون .

ولكنها مع ذلك لم تملك سوى الشعور بالارتياح والغبطة من مجرد جلوسها

بجواره ، هذا خير من لا شيء .

وعندما وصلت العربة إلى ميدان عبد المنعم طلبت منه الوقوف أول الشارع

ولم تتركه يوصلها حتى باب البيت كما كان يفعل أنور ، لسبب واحد هو أنها

تشعر أنها مذبذبة .

وودعها ، دون أن يحدد موعداً آخر للقاء .

لشدها خذلها وخيب أملها ، لو لا بقية من كبرياء ، لسأته هي اللقاء .. ما

علته ، هذا الأحق المغرور ، لم لم يسألها لقاء آخر !

ودخلت البيت واجهة وهي تحسب كم يوم تبقى حتى تراه في الدرس مرة

أخرى .. ستة أيام .. مدة طويلة جداً .. ما ضره لو وعدّها بلقاء غداً ، وبعد

غد .. هكذا أضحى تفكيرها طائشاً مندفعاً .

أما هو فقد عاد إلى بيته محزوناً مكتئباً ، وأخذ يستعرض أقوال أبيه وهو يحاول

منعه من الإقدام على الزواج بالإنجليزية .

كان كله كلاماً معقولاً . كيف عميت بصيرته عن إدراكه . ولكن ماذا يفعل

الآن ؟ لقد قضى الأمر ، وانتهى كل شيء .

(بين الأطلال)

وقبل أن يدخل حجرته أقبلت عليه « الحاجة » وهي « الدادة » التي قامت بتربيته طول عمره والتي كانت له بمثابة أم بعد وفاة أمه التي لم يبصر لها وجهاً . ومدت « الحاجة » يدها بخطاب ملح عليه طابع بريد لندن ورفعت المرأة يديها إلى السماء وهي تقول في استسلام :
— منك لله .

كانت هي الأخرى ، غير راضية عن الإنجليزية ، وقد حاولت من قبل نصحه عبثاً .

انتهى الأمر ولا فائدة من التراجع .. إنها قد تكون قادمة في طريقها .. ومن الجنون أن يحاول إعادتها وخذلانها .

وفتح الخطاب ليعرف تاريخ وصولها ، ولكنه لم يكده يقرأ بضعة أسطر حتى رفع حاجبيه في دهش !!

ما هذا !! إنها تأسف جداً ، وتقول له إن خطبتها من أحد أقاربها قد تمت ، وأنها ستزوج بعد بضعة أيام ، وتقول إنها ستذكره دائماً وتتمنى له مستقبلاً هنيئاً وحياة سعيدة .

يديع !

هذا الخطاب تستحق عليه « الحاجة » قبلة .. وناداه بصوت مرتفع :
— يا حاجة !

وأقبلت الحاجة بخطى متعاقلة وأجابته في ملل :

— نعم .. « الأملة » قادمة في الطريق ؟! نعلق الأعلام ونفرش الرمل ؟

— « الأملة » ليست قادمة ، ولن تأتي أبداً . ما رأيك ؟

— لن تأتي ؟!

— أجل ! لقد تزوجت ، والحمد لله .

— الحمد لله .. أمغبط أنت لزوجها ؟ .. كنت أظنك تنتظر قدميها بفارغ

الصبر .

- كان ذلك فيما مضى .
— والآن ؟
— تبدل الأمر .. لقد كنت أنتظر قدومها ككارثة .
— يا ساتر يارب ، وما الذى بدّلك ؟
— تعالى أقبلك أولاً . أنت امرأة طيبة . وكللك بركة .
— وضحكت الحاجة وضمت إليها وقبلته ، ثم تساءلت فى تخابث :
— قل لى ماذا أصابك ؟
— لا شىء .
— غير ممكن ! لا بد أن هناك شيئاً !
— هناك أشياء .. سأزوج قريباً .
— ممن ؟ « خواجاية » ، أخرى ؟
— لا .. لا .. أبداً .. اطمئنى .. مصرية بنت مصرية ، ستعجبك كثيراً .
— مادامت مصرية .. فستعجبينى حتى ولو كانت شحاذاة .
— ولكن أين أنى ؟
— فى الخارج لم يأت بعد .
— عندما يأتى أنبئنى ، فإنى أريد التحدث معه .
— ولم يكذبنتهى من حديثه ، حتى سمع وقع أقدام أبيه المتشاقلة تصعد الدرج .
— وجلس الأب على المقعد الذى تعود أن يجلس عليه ، وجلس الابن قبالة ،
ومضت فترة صمت تمالك الأب فيها أنفاسه ، ثم قال لابنه كسؤال عابر :
— كيف الحال ؟!
— الحمد لله .
— وكيف التدريس والطلبة ؟
— على ما يرام .
— وجرى بينهما الحديث فى شتى الشئون .. شئون السياسة والجو والحرب

والغلاء . وأخيراً قال « كمال » :

— لدنى نبأ قد يهكم بعض الشيء .

— ما هو ؟

— نبأ معافاتك من الأحفاد الإنجليز .

ثم انطلق ضاحكاً . وتساءل الأب مكرراً قوله في عجب :

— أحفاد إيه ؟!

— إنجليز . ألم يكن هذا ما يقض مضجعتك ؟ ألم يسؤك بعد أن اشتركت في

ثورة ١٩١٩ أن تكون جداً لأحفاد إنجليز ؟!

— أجل ! يسيئنى بالطبع .

— لقد عافيتك من هذا .

— كيف ؟

— لقد أرسلت إلى ردها تقول إنها ستزوج من أحد أقاربها .

ونظر إليه الأب متعجباً من طريقة إلقائه الخبر ببساطة ثم تساءل :

— وأنت .. ألم تصدم ؟

— لا .. كله يهون . لقد كانت معارضتك في محلها . والحمد لله الذى أنتج

العواقب سليمة .

— الحمد لله .

وعاد « كمال » إلى غرفته ، وهو يحس بسعادة عجيبة .

ليتة يستطيع أن يذهب إليها الآن ليسرد لها كل ما حدث وبنبئها أنه قد بات

حرراً ، وأنه يستطيع الزواج منها .

ولكن كيف يذهب ، وهو لا يعرف بيتها .. إن عليه الانتظار ستة أيام طويلة

أخرى .. ولكن لم الانتظار ؟ إن المسألة أهم من أن ينتظر عليها ، وليس هناك ما

يرر ترده وخشيته وخوفه من أقوال الناس .. إن عليه أن يذهب في الغد إلى

الجامعة ، ويطلب منها لقاء قريباً ، بنبئها فيه بكل ما عنده .

- أجل ! سيذهب إليها في الغد .
- وفي اليوم التالي قصد إلى الجامعة .. وعندما التقى بعبد السلام ادعى أنه قد ترك كتاباً في المكتب ، ثم سأله بطريقة عابرة :
- ألم تحضر الآنسة سامية ؟
- لم تحضر بعد .
- وأخفى « عبد السلام » ابتسامته وهمس لنفسه :
- والله وقعت .
- ولم يكذب « كمال » يخفى في الممر المفضي إلى حجرة الأستاذة حتى ظهرت سامية « بعد آتية من الباب .
- وهروا إليها « عبد السلام » وقال لها في تخافت :
- يا ست « سامية » . الأستاذ « كمال » سأل عليك .
- متى ؟
- الآن .
- أفد حضر ؟
- أجل !
- ولكن ليس عنده دروس اليوم ؟
- الظاهر أن عنده ما هو أهم من الدروس .. لقد نسي كتاباً هاماً .
- واتجهت « سامية » في لهفة ظاهرة إلى حجرة المدرسين ، وحيا كل منهما الآخر في كثير من ارتباك وخشية . وقال « كمال » في لهفة وجلة مقتضية :
- هل أستطيع أن أراك اليوم في موعد الأمس ومكانه ؟
- أجل !
- سأنتظرك إذا . لا تتأخرى .
- وهم بالانصراف متصنعاً العجلة .. ولكن « سامية » استوقفته متسائلة في لهجة لا تخلو من السخرية :

— أحضر معي كتاب الشعر ؟

ولم يملك إلا أن يضحك على تخابثها وأجاب في صوت ذى مغزى :

— لا داعى ، سيكون لدينا حديث أهم من الشعر .

وفى نهاية الدراسة اعتذرت « لأنور » مرة أخرى عن مرافقتها له ، واتجهت إلى ميدان الجيزة .

وأجس « أنور » بكثير من خيبة وضيق ، وحدث نفسه قائلاً إنه لا بد أن يفعل شيئاً إيجابياً .. لقد قرر أنها خير من تصلح له كزوجة ، فماذا ينتظر إذا ! لم لا يت في الأمر وينبئ أسرته بعزمه ويتقدم لخطبتها رسمياً . إنها لا شك قد ضاقت بهذا التردد منه ، وهى مخلوقة جادة تكره العبث ، فيجب أن يريها أنه جاد هو أيضاً .

ووصلت « سامية » إلى ميدان الجيزة فوجدت العربية تنتظرها ، فدخلت إلى داخلها . وانطلقت العربية عائدة في عكس طريق الهرم .

فتساءلت في دهش :

— إلى أين ؟

— إلى المعادى ، هناك كازينو على النيل .

— قد يكون هذا ملجأ للعشاق ؟

— لا ضير علينا منه .

— إنه ليس مكاناً للدراسة ولا لشرح الشعر !

— لن ندرس ولن نشرح شعراً .

— وليس من المستحسن أن يرى فيه أستاذ وتلميذته !

— لن نكون أستاذاً وتلميذته .

ماذا حدث له اليوم ؟ أين تحفظه ، وتعقله ، وورزاته ؟ ماذا كان به في الأمس ، وماذا أصابه اليوم ؟ وأى حديث هام ينوى أن يفضى به إليها ، وفى هذا

المكان البعيد ؟

لا بد أن يكون في الأمر شيء .

واندفعت العربية في طريق المعادى بسرعة غير عادية .

كان به من فرحته ، خفة وطيش ونزق .

وأخيراً وقفت العربية أمام الكازينو .. وهبط كلاهما ، وقد تغيرت الحال عن
الأمس كان هو مستهتراً .. وكانت هي قلقة خائفة . كان هو قد استقر على
أمره بعد طول بأس وكانت هي لا تدري إلا أنها مندفعة في أمل قد يتحقق أو لا
يتحقق .

واستقر بهما المقام في الناحية المنعزلة الكائنة في الجانب الأقرب إلى الشاطئ ،
وبدا المكان خالياً ساكناً والمصاييح الكهربائية لا تبدد كثيراً من ظلمته ..
وأصوات البحارة وارتطام المجاديف بسطح الماء يعلو بين آونة وأخرى .
والضفادع تتبادل النقيق .. والنسيم يعبث بأطراف الشجر والحشائش
والمرزوقات عبثاً خفيفاً فيصدر منها ما يشبه الهمس .

واتكأت « سامية » على حافة سور حجرى واطمأ .. وأخذت تشاغل
بالعبث في زهرة في يدها .

وساد الصمت برهة .. صمت التحفز والاستعداد .. حاولت هي أن تلم
خلاله شعث أفكارها المنطلقة في بيداء التخيلات والأحلام والأوهام ، وأن تنحى
عن ذهنها سيل الأمنيات العذبة التي أخذت تتدفق فيه مستمدة قوتها من مشاعرها
المتدفقة ومن الجوارح الحالم الشاعرى الذى أحاط بها .

وحاول هو أن يركز تفكيره لكى يصل إلى هدفه من أقرب طريق .

ونظر إليها نظرات لم تخف ما به من وجد وصباية .. وقال لها في لهجة ذاتية :

— لدنى كلام كثير .

— عن كاليكليس ؟

— لعنة الله عليه ، ولو أنه هو الذى كان السبب الأول في ارتباطنا .

— عن تريد أن تحدثني إذا ؟

— حديث طويل ، لا أدري من أين أبدؤه .. ولكن قبل أن أسترسل فيه أسألك سؤالاً واحداً .. على إجابته يتوقف كل ما أنوي قوله ، بل عليه يتوقف إذا كنت أقول كل ما عندي أو لا أقول شيئاً أبداً .

— سل ما تشاء !

وصمت برهة ، بدا خللاها كأنه يستجمع شجاعته .. ثم سألها في هسر ووجل :

— إذا سألتك أن تتزوجيني . فهل تقبلين ؟

ولا شك أن سؤاله كان مفاجأة شديدة .

إن هذا هو أقصى ما تتمناه ، وأجمل ما كانت تتلهف على سماعه منه . ولكنها لم تتوقع أنه يقوله بمثل هذه السرعة والسهولة . كانت تتوقع أن يسبق مقدمات ، ومقابلات واستفسارات واختبارات .. قد تجتازها وقد لا تجتازها أما أن يكون هذا هو أول سؤال يسأله إياها .. فهذا ما كان ليخطر لها على بال .

وكان يحدق في وجهها قلقاً ، والأفكار تدور في ذهنها .

وأخيراً سألها مستفهماً :

— لم تجيبي بعد ؟

ورفعت عينها إلى عينيه .. وأطلقت تنهيدة حارة .. وأجابت :

— طبعاً أقبل .. إن هذا هو أقصى ما أتمناه .

ومد يده فجذب يدها .. ووضعها على شفتيه في سكون قائلاً :

— الحمد لله .

أجيبك يا أمه

٥

وأحست هي من قوله أنه قد بدأ من النهاية ، وأنه أفضى بطلبه وبرضائه عن موافقتها بكل ما يمكنه من مشاعر ، وأنه لخص بكلماته المعدودات ما كان يمكن أن يفضي إليها به من أقوال في ساعات عن شجون الحب ، وأحاديث الغرام . ولكنها مع ذلك تود لو أنها تسمع تلك الأحاديث والأقوال . لقد عاشت حياتها الماضية بعيدة عن كل ما يثير مشاعرها ويؤجج أحاسيسها ، وكانت طريقته هذه — طريقة طلب الزواج مباشرة — خليقة بأن تكون أنسب الطرق لها . ولكنها مع فرط إحساسها بالسعادة ، تحس بحاجة شديدة إلى المناجاة والغزل .

وبدأ مناجاته لها ، فأنبأها كيف وقعت من نفسه وهي حائرة في الامتحان وكيف كان يتجنب النظر إليها في الدرس وبودّه لو لم يفعل شيئاً غير النظر إليها ، وقص عليها كيف أوشك أن يتزوج من صاحبتة الإنجليزية ، وكيف كان يمانع والده في ذلك . وجرى بينهما الحديث شيئاً ممتعاً ، رغم أنه لا يعدو أن يكون ترديداً لأشياء لا يجهلها واحد منهما .

وحديثه هي عن نفسها فأنبأته أنها تعيش مع أمها ... واسترسلت تقول : — إنها سيدة لطيفة رقيقة ، ولست أشك في أنك . ستحبها كثيراً ، كما أحببتها أنا دائماً ، ولست أشك كذلك في أنها ستحبك كما أحببتني .. إني متلهفة على أن يرى كل منكما الآخر فأنتما أعز مخلوقين لدى في الحياة . وصمتت برهة كأنها تتذكر أمراً ، ثم قالت في فرح : — أظنني أحمل لها صورة في حقيبتى ، صورة لكتبتنا قديمة عندما كنت

طفلة !

- لا بد أنك كنت عفيفة صغيرة ، دعيني أراها .
وفتحت الحقيبة وبحثت فيها برهة ومالبت أن أخرجت بضع صور وبدأت تعطيه إياها واحدة واحدة وهي تقول :
- هذه صورتنا معاً ، وهذه صورتي مع بعض الصديقات في المدرسة الثانوية ، وهذه صورتي بعد البكالوريا وهذه صورتي في الجامعة .
- لطيفة جداً ، سأخذ هذه الصورة ، وهذه الصورة أيضاً ، حتى أريهما للحاجة ، فستسر منهما كثيراً . لقد كانت سعيدة بالأمس ، وأنا أتني أنها تفضل أن أتزوج شحاذاً مصرية وني شوق إلى أن أريها صورة المتشردة التي سأزوجها . وأخذ صورتها وهي في الجامعة ، وصورتها وهي طفلة بجوار أمها ، ووضعهما في جيبه وهو يقول :
- كان يجب أن تتركى ضفائرك مسترسلة كما هي ، فإن شعرك جميل جداً .
- فتاة في الجامعة بصفائرك؟! دكتورة بصفائرك؟ إنك تنسى مركزي؟
- لن يكون لك مركز إلا في البيت .
- أنقول حقاً؟
- طبعاً .
- ألن تتركى أتمم دراستي؟
- لا .. لا .. سيكون لديك دراسة أهم ، سأكون أنا والأولاد موضع دراستك .
- والدكتوراه؟
- سأحصل عليها أنا نيابة عنك .. إن زوجة الدكتور دكتورة بلا شك .
- والحزب النسائي؟
- تنازلي عن رئاسته ..
- ورئاسة الوزارة؟!
- مرة واحدة؟! هذه مسألة فيها نظر . إذا دعيت لتأليف الوزارة فأنيبني

عنك .

واندفعاً في الضحك ، وقد غمرتهما السعادة والهناء ونظرت إلى ساعتها ثم رفعت حاجبيها في دهشة وهتفت :

— الساعة التاسعة ، لا بد أن أعود وإلا فليقت أُمي على .

وقاما متجهين إلى العربية ، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر بلا وجل ولا خشية ، وانطلقت بهما العربية إلى القاهرة ، وفي هذه المرة لم تجد ما يمنع من أن يوصلها حتى باب البيت ، وقبل أن يفترقا اتفقا على اللقاء في الغد .

وسار هو يعبرته ملوحاً لها في الظلمة يده . ودلفت إلى الداخل ، فأبصرت أمها تنتظر في الشرفة ، ولم تكذبصرها حتى هتفت بها :

— سامية ! لِمَ هذا التأخير ؟ كان يجب أن تخبريني أنك ستأخرين حتى توفري عليّ هذا القلق وتلك الوسوس .

وصعدت الفتاة الدرج ، وأقبلت على أمها فاحتضنتها وقبلتها قائلة في مرح :

— أُمي لم أعد صغيرة يا أمأه ، عما قريب قد يصبح لي أولاد ، وسأكون عليهم في لفة مثلك .

ووقع قولها في مسامع أمها موقعاً غريباً ، فما تعودت منها التحدث بتلك اللهجة ، بل كانت لا تكاد أمها تحدثها عن الزواج حتى تصدّها قائلة :

— دعينا من هذا الآن .. إن أُمامي مستقبلاً حافلاً ، وأعمالاً جليلاً .

وكانت أمها تعجب من برودها دائماً ، وتراها على كثير من الشنود ، ولكن لم تكن تملك إلا أن تحمد الله على هذا .

أما الآن وهي تخبرها أنها قد يصبح لها أولاد مثلها ، فقد بدا قولها عجيباً .. حقيقة أنها تمزح . ولكنها لم تتعود أن تمزح بمثل هذه الطريقة .

ولم تملك الأم إلا أن تقول ببساطة وإخلاص :

— ربنا يسمع منك .

— لقد سمع وانتهى الأمر .

- ماذا تقولين ؟
- إن الأولاد في الطريق .
- أولاد في الطريق ؟! بلا زواج ؟! أولاد بالدراسة العليا ، أم بالكوراه ؟
- كيف بلا زواج ؟! إني لست مريم .
- إذا فعلام انتظار الأولاد ، وأنت معرضة عن الزواج ، لا تطيقين حتى مجرد ذكره أمامك ؟
- من قال هذا ؟ لقد عدلت عن رأيي أخيراً .
- عجيب !
- وعلام العجب ! إن الإنسان يظل على رأي ، حتى يطرأ ما يغيره .
- وهل طرأ هذا الذي غيره ؟
- أجل ! طارئ عجيب !
- سامية ! أرجوك أن تفصحي إذا كنت جادة حقاً في قولك ؟
- أفصح عن أى شيء ؟ موجز القول أني خطبت .
- خطبت !. هكذا دون أن أعرف .. ودون أن أبدى رأيي ، كأني لبيت أمك ؟
- هذا الذي أفعله الآن ! إني أنبتك ، وآخذ رأيك . ما رأيك يا أماء ؟
- رأيي ؟! في أى شيء ؟
- في خطبتي .
- وكيف أبدى رأيي ، وأنا لم أر الخطيب ، ولم أعرف اسمه ، ولا مركزه ولا عائلته ؟!
- لقد رأيته أنا ، وعرفت أنا كل شيء عنه . دعى كل هذا لي . فأنا أدرى منك به .. أنبئيني ما رأيك ؟
- سامية .. أرجوك .. اقعدي ، وكفى مزاحاً وهيافة ، أنبئيني إذا كنت قد خطبت حقاً .. من هو ؟

— أستاذ الإنجليزية الذى يدرس لنا فى المعهد .

— أستاذ الإنجليزية ؟

— أجل .. أية غرابة فى ذلك ؟

— مصرى ؟!

— مصرى ، ومن « حوش آدم » .

— لا تهزلى يا سامية .. إنى أسألك جادة .

— جادة !! كيف ؟ تسألينى مصرى وتقولين جادة ؟ أتظنين أنى سأقدم

على زواج إنجليزى ، أو أن الإنجليزى قد جن حتى يتقدم لخطبتى .

— أستاذ الإنجليزية المصرى الذى يدرس لك فى المعهد ؟

— أجل !

— وكيف يكون هذا ؟. كيف تتزوجين من أستاذ فى سن أهلك ؟

— فى سن أى ؟ من قال هذا ؟!

— أستاذ فى الجامعة لن تكون سنه إلا ضعف سنك !

— ليس أستاذاً بمعنى الكلمة ، إنه معيد .. يدرس لنا بدل الأستاذ الغائب ،

تستطيعين أن تسميه مساعد أستاذ .. أو صبي أستاذ .. وهو صغير جداً ، يكاد

يقاربنى فى العمر حتى أنى ظننته فى أول الأمر طالباً ، وسألته لماذا يتجول فى مدرج

الامتحان .

— وماذا دعاه إلى خطبتك ؟

— حماقته .

— وماذا دعاك إلى قبوله ؟

— حماقة أشد .

— سامية ! كوفى صريحة فى قولك .. كوفى جادة مرة واحدة ، فى مسألة

هامة كهذه ؟

— صراحة .. لقد أحبيته .

— أنت أحيت ؟

— ولم لا ؟ !

— كنت أظن أن قلب مثلك لا يفتح لأحد !

— وكنت أظن ذلك ؛ حتى طرقة صاحبنا .. فانفتح على غير إرادة منى .. لم يكن معه مفتاح ، بل كانت معه « طفاشة » أشبه بطفاشة لصوص الخزائن .. ومع ذلك فلم يكن به من حاجة إلى استعمالها ، فقد فتح به باب القلب على مصراعيه بمجرد أن سمع وقع أقدامه .

— أنت تقولين هذا ؟

— ولم لا يا أماء ؟ إني بشر !

— ومثلك العليا ؟ وخططك الهائلة ؟ ومشروعاتك الكبرى ؟ والدكتوراه ؟ والحزب النسائي ؟ وحقوق المرأة ؟ والبرلمان والوزارة ؟
— كل هذه ما عادت تساوى قلامة ظفر . لقد أمرني أن أكف عن الدراسة ، فلبيت صاغرة .

— هكذا وبمثل تلك السرعة ؟ رغم أني عندما سألتك الكف عنها ، رفضت

بإباء ؟

— لقد هيا هو دراسات أخرى وواجبات أعظم .

— وما هي ؟

— دراسة طبائعه وعاداته ، ورعاية بيته وأولاده .

— ما شاء الله . إذا لقد انتهى الأمر بينكما ، ولم يعد لي مجال لإبداء الرأي ؟

— ولكنك أبديت رأيك .

— كيف ؟

— إن رأيي هو رأيك .. فأنا أفكر بذهنك ، وأرى بعينيك . إني واثقة أن ما أراه حقاً سترينه حقاً ، وما أراه باطلا سترينه باطلا .. أنا وأنت مخلوق واحد ، وأقسم لك لو رأيته لأحببته كما أحببته أنا ولو افقتني على الزواج منه .

وضمتها الأم بين ذراعيها .. وقد اغرورقت عيناها بالدموع .. دموع الفرح ، وقالت في حنان زائد :

— أنا أعلم ذلك .. أعلم أنك أوفر الناس عقلاً وأكثرهم روية .. إلى أثق بك أكثر مما أثق بنفسى .. وأدعو الله أن يسدد خطاك ويجنبك عثرات الحياة . إن كل أمنيتهى هى أن أراك قريبة هائثة .

واستسلمت « سامية » برهة لأحضان أمها ، ثم ما لبثت أن رفعت رأسها متسائلة :

— متى تودين أن تريه ؟

— خير البر عاجله .

— سألقاه فى الغد . وأعلم منه ما ينوى أن يفعله .

وكان « كمال » قد وصل فى تلك اللحظة إلى البيت ووضع العربى فى « الجاراج » واتجه إلى الداخل عابراً الحديقة وهو يصفر فى جذل ومرح .. وصعد الدرج فى بضعة قفزات .. واتجه إلى حجرته ، وكان أول ما فعل هو أن أخرج الصورتين وأخذ يعيد مشاهدتهما .. وهو يتسم فى حبور واغترباط .

سيقدم الصورتين للحاجة .. سيربها الصورة الأولى أولاً التى تظهر فيها « سامية » وهى طفلة بضفاثرها وبجوار أمها . سيقول لها إن هذه هى خطيئته ، وستصيها الحمرة بالطبع وستشور عليه .. إذ لن يخطر لها ببال أنه قد خطب الطفلة ، بل ستظن أنه خطب امرأة متزوجة ، ولها أولاد .

وسيضحك عليها كثيراً .. كما تعود أن يضحك دائماً .. وسيربها بعد ذلك الصورة الثانية ، ويطلب رأياً ، ثم صاح :

— يا حاجة .. يا حاجة .

وأقبلت الحاجة فى خطواتها المتثاقلة وهى تقول :

— العشاء جاهز .

— دعينا الآن من العشاء .. عندى لك خبر هام .

— خير إن شاء الله ؟

— لقد خطبت .

— خطبت ؟!

— أجل ! خطبت .

— هكذا ، بسرعة ؟

— وماذا فى ذلك ؟

— كان عليك أن تنتظر على الأقل حتى تنتهى مدة الحداد على الخطوبة

السابقة .

— إنى أتكلم جاداً يا حاجة ، حقيقة لقد خطبت .

— خطبت من ؟

— فتاة عجيبة .. أحببتها جداً .

— متى أحببتها ؟ بين يوم وليلة ؟

— لا .. لا .. لقد ابتدأ الأمر بيننا منذ مدة طويلة .

— لعلك تكون عرفت كيف تنتقى هذه المرة ؟

— اطمئنى .. هذه المرة ستعجبك جداً .

— على أى حال .. وأياً كانت .. فهى لا شك خير من الإنجليزية التى كنت

تنوى ابتلاءنا بها .

— خير بكثير .. بكثير جداً .. إن معى صورتها .

— أرنيها .

ومد يده ببساطة بالصورة الأولى .. ووقف يرقب الانفعالات التى ستبدو

على وجهها وهو يحاول إخفاء ضحكته .

إنها تحمق فى الصورة فى دهش .. ما زالت تحمق . إن حدقتها تتسعان

وشفتيها تتحركان .

إنها لم تبس بينت شفة .. إنها في ذهول تام .
المرأة الساذجة .. لا شك أنها قد ظنته سيتزوج الأم . أو من يدري ربما قد
ظنته ، سيتزوج الطفلة .. وهي طفلة .
ولكن ما لها مستمرة في الحملقة .. وما الداعي لهذا الذعر كأنها قد أبصرت
شيئاً مخيفاً .. لماذا لا تسأله ؟ لماذا لا تبدى استنكارها وغضبها ؟
وأخيراً لم يطل ذلك الصمت المروع .. وخشى على المرأة أن يصيبها شيء فقد
بدا وجهها في شحوب شديد .

وقال لها متسائلاً : ما رأيك يا حاجة ؟ أتعجبك ؟
ولم تجب المرأة .. ولكنها انهارت على أحد المقاعد .. انهارت انهاراً تاماً
وسقطت الصورة من يدها . وسألت في صوت خافت :
— ما هذه ؟!

— ما الذى أصابك .. إنها صورتها .

— صورة من ؟

— خطيتى !

— من أعطاك إياها ؟ وكيف حصلت عليها ؟

— ما بالك تتحدثين كأنك رأيت صورة شبح .. لقد حصلت عليها منها ..

آية غريبة في ذلك ؟! إنى لم أسرقها طبعاً ، فلا تخافى .

— منها هى ؟. أقدر رأيتها ؟

— طبعاً .. أقول لك خطبتها .. فتسألينى عما إذا كنت قد رأيتها .

وأحنت جسدها إلى الأمام وسألت في حدة :

— خطبت من ؟ من هى تلك التى خطبتها ؟ إنك تمزح ؟ إنك تهذى !

لا بد أنها ظنته قد خطب الأم ، ولكن أيدعو ذلك إلى كل هذا الارتياح ؟.

لعنة الله عليها من امرأة مخبولة ، لا بد أن يطمئنها وإلا أغمى عليها .

وأخيراً قال لها ضاحكاً :

(بين الأطلال)

— أيتها المجنونة لقد خطبت الابنة — الطفلة الصغيرة — إنها صورتها منذ بضع سنين .

وصاحت المرأة في فرع :

— خطبت من ؟ أنت مجنون ؟ إنك لا تعرف من تكون هذه ؟ ومن أين لك أن تعرف ؟ بل من يصدق أن مثل هذا الأمر كان يمكن حدوثه ؟ من يخطر بباله أن من بين هذه الملايين من الفتيات التي تزخر بها الأرض .. لا يقع اختيارك إلا على هذه المخلوقة ، على ابنتها بالذات .

ونظر إليها في حنق ودهش .. ماذا تعنى هذه المخبولة ، وصاح بها متسائلاً :

— ابنة من ؟

وعضت العجوز على نواجذها .. ثم أطلقت قولها كما تطلق القذيفة .. قالت في يأس شديد :

— ابنة ، أمك .

وصاح كال :

— ابنة من ؟

— أمك .. أمك أنت .

— إنك لا شك قد جننت !؟

— أنت الذي جننت .

— ولكنك تعلمين أن أمي ماتت .

— ماتت أو لم تمت .. هذه هي أمك .. بعينها ولحمها ودمها .. إني أعرفها تماماً .

— يا حاجة لا تكوني مجنونة ، لا تهذى بما لا تعين . أنت تعرفين تماماً ، أن أمي ميتة .. تعرفين أني ولدت فلم أجدها .. إنها ماتت وهي تضعني .. هكذا عرفت طول حياتي الماضية . هكذا قال أبي وهكذا قلت أنت . إني لم أعرف لي أمّاً سواك .

و لم تزد المرأة على قولها فى يأس وإصرار :
— هذه هى أمك ، بعد كل هذه الأعوام الطويلة التى مضت أعرفها من بين

ألف امرأة .. إنها أمك . أمك .
— بن أصدقك . إنك فى غير وعيك . إنك لا تفهمين ما تقولين ، سأسأل
أبى حتى أجعلك تكفين عن هذا الهديان .

— لا تسأله شيئاً ، ولا تره الصورة .. انس كل شىء . إقطع كل علاقة لك
بها ، إنك ستقدم بزواجها على جرم لن تغفره بنفسك طول حياتك ، ابتعد عنها ،
لا تقربها .

— أقطع كل علاقة لى بها من أجل تصوراتك الخرقاء ؟ اذهبى إلى فراشك
الآن ؛ استريحى ، فأنت لا شك متعبة ، وسأستفسر منها فى الغد عن كل هذا
الهرء الذى تقولين .

وتحاملت الحاجة على نفسها ، وعادت إلى حجرتها . واستمر هو يغدو
ويروح فى غرفته قلقاً يحدث نفسه :

— أمى ؟ كيف ؟ ولِمَ لم يخبرونى أن لى أما على قيد الحياة ؟ كل هذه المدة
الطويلة انصرفت من عمرى وأنا أعرف أنى يتيم الأم .. أينقل ذلك وهى ما زالت
على قيد الحياة ؟ لا . لا . يجب ألا أشغل رأسى بمثل هذه السخافة .. لن أسأل أبى
مثل هذه الأسئلة المضحكة . هذه أشياء لا تحدث إلا فى الروايات .. أشياء
يضعها المؤلفون لتسليه قرائهم ، أما أنا فما أظننى بحياتى الطبيعية العادية .. أيمكن
أن يجعل منى القدر بطلاً لمثل هذه الأسطورة الغريبة !

أمى الميتة تعود إلى الحياة لتصبح من دون نساء الأرض .. أم الفتاة التى اخترتها
لكى تكون لى زوجة ؟ لا . لا . هذا لا يعقل ، ولا مبرر له ، ولا علة ولا

سبب .

واستلقى فى فراشه والأفكار والأسئلة تصطخب فى رأسه .
يجب عليه أن ينتظر إلى الغد ، وينبئها بهذيان الحاجة . ستضحك كثيراً ..

وستنبئ أمها لتتخذ منها نكتة لطيفة .
أجل ! أجل ! إنها مجرد فكاهة لا أكثر ولا أقل .

وفي اليوم التالي كانت العربية تعدو بهما في طريق الهرم . وأخيراً توقفت قرب
مينا هاوس .. وبدأت هي الحديث فأنبأته كيف تلقت أمها الخبر .. وكيف بدا
عليها السرور .

وعندما انتهت من حديثها شرده ذهن برهة ثم قال :
— لقد وقع بالأمس حادث عجيب .. حادث مضحك ، اعتبره نكتة
الموسم .

— قصه ! لقد مضت علي برهة لم أسمع نكتة جديدة .
— لقد أريت صورتك أنت وأمك للحاجة . فما كادت تتخيلها حتى
قالت

و لم يتم حديثه .. حتى قاطعته بقولها :

— قالت علي قبيحة ؟

— ياريت !

— متشردة ؟ مجنونة ؟ قل . قل . إني سأحتمل أى إهانة منها .

— لم تقل عنك شيئاً .. بل إنها لم تلتفت إليك البتة .

— قالت إذاً عن أمي . سأعرف كيف أقتص منها .. ماذا قالت ؟

— قالت إنها أمي أنا .

— أمك أنت ؟

واندفعت « سامية » تقهقه بشدة وأجابت :

— كويسه .. كويسه خالص .. نكتة لا بأس بها .

— ولكنها لم تقلها على سبيل النكتة !

— ربما تكون أمي شبه أمك . يخلق من الشبه أربعين .

- إنها لم تقل أنها تشبهها . بل قالت إنها هي . هي لا محالة .
— ولكنني أظن أن أمك (عليها رحمة الله) توفيت .. وأمي (مد الله في عمرها) حية . فما رأيها في ذلك ؟
— لقد أصابها ارتياح شديد .. كادت الصورة تصرعها وأصرت على أنها هي بعينها أمي . وأنها تعرفها من بين ملايين النساء .
— على أية حال .. المسألة ليست بعيدة .. سأسأل أمي عما إذا كانت ولدتك قبلي .. أما الآن فدعنا من هذه المخبولة التي حيرتك ولتحدث فيما هو أهم . وفي الغد سأحمل رأي أمي فيك وفي الحاجة « بتاعتك » ولا أظنه سيكون رأياً يسرك !
— وجرى بينهما الحديث مرهقاً لذيذاً . ونسيا كل شيء عن قول الحاجة . بل لقد استحمق هو نفسه . كيف قبل أن يسمع قولها . وكيف ترك نفسه يفكر فيه . ويفلتق من أجله !
— وأخيراً اترقا ، بعد أن اتفقا على اللقاء في اليوم التالي . وأنبأها أنه سيخبر أباه بعزمه على خطوبتها حتى يقوموا بالإجراءات الرسمية الشكلية .
— وعادت هي إلى البيت فوجدت أمها جالسة في الشرفة تنتظرها كعادتها وسألتها الأم ضاحكة :
— كيف حال خطيبك ؟
— بخير .. يسلم عليك كثيراً .. وسيزورك في القريب لعمل الإجراءات الرسمية كما يقول .
— ثم أردفت تقول في لهجة مزاح :
— لقد اتضح أن لنا به صلة قرابة .
— صلة قرابة ؟
— أجل قرابة ! أى شيء في ذلك ؟
— أتمرحين ؟

- بل أقول الجد !
— قرابة من أى نوع ؟
— نوع عابر .. بعيد .. إنه ابنك .
وانطلقت تفهقه .. وهي تردف قائلة :
— بسيطة .. إنه ليس أكثر من أخى .. الحمد لله . إنه لم يكن أقرب من ذلك ، لم يكن أنا مثلاً .
وقالت الأم ضاحكة :
— ألا تكفين عن المزاح ؟ حياتك مزاح فى مزاح ؟
— وما ذنبى أنا فى ذلك .. والحاجة تؤكد قولها .. وتقسم عليه .
— الحاجة ؟ من هى الحاجة ؟
— التى قامت على تربيته بعد وفاة أمه ، لقد قال لى إنها لم تكذب ترى صورتك حتى شحب وجهها وبدا كأنها قد أبصرت شبحاً ، وأنها لم تتألك نفسها وتهاوت على المقعد ، وقالت إن هذه صورة أمه بلحمها ودمها وأنها تعرفها بين ملايين النساء .
— ولكن ألم تقولى إن أمه ماتت ؟
— هكذا قالوا له .. إنه لا يذكرها ولا يذكر موتها .
— وماذا قالت له الحاجة ؟
— قالت ماتت أو لم تمت .. إن هذه هى صورة أمك فأوقف خطبتك ، واقطع كل علاقة لك بها . لقد قال لى إنه لم يرها فى مثل تلك الحالة من الارتياح والذعر حتى إنه ليجزم أن المرأة قد أصابها شئ ، فما كان بها ليس أمراً طبيعياً . ونظرت الفتاة إلى أمها فإذا بها قد وضعت رأسها فى كفها وأخذت تضغط بأصبعها على وجنتيها ، وقد أغمضت عينيها وشحب وجهها ، وبدت كأنها تقاسى الماء أو كأنها توشك أن تروح فى غيبوبة .. وهتفت « سامية » صائحة بها :
— أمه !؟ ماذا بك ؟ ما بالك ؟

وأجابت الأم بصوت خافت وكأنها تتساقط إلى هوة عميقة :

— ماذا قلت اسمه ؟

— كمال .

— كمال ماذا ؟

— كمال عبد الرحيم .

وعادت أمها تنحصر رأسها في ألم شديد وتهمس لنفسها :

— لا .. لا .. لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً .

وتملك « سامية » ذهول شديد ، وأخذت ترقب أمها في فرع وسألها في

صوت يشبه النحيب :

— ما بالك ؟ ماذا تقولين ؟ أجيبى يا أماه ؟! لا تتركنى هكذا حائرة ..

قول شيئاً ؟

ولم تجب الأم ، ومضت برهة ، وهى دافئة رأسها بين راحتيها .. كأنما تقاوم
ألماً عنيفاً ، وأخيراً نهضت متاثلة وقالت لسامية : تعالى .

وتبعها « سامية » فى صمت ، وقد اصطخبت فى ذهنها الأفكار حتى
أصبحت لا تكاد تعى مما حولها شيئاً .. ماذا تقول ؟ وماذا تعمل ؟

ودخلت أمها حجرة نومها ، وفحت أحد أدراج الدولاب ، ثم أخرجت
صندوقاً مغلقاً وضع ضمن الصناديق المغلقة التى كانت تضع أمها فيها حلبيها
والأوراق الهامة .. كعقود البيع والإيجار وحجج العقارات .

ووضعت الأم الصندوق على المنضدة .. ثم أخرجت مفتاحاً صغيراً وضع
داخل أحد صناديق الحلّى ، وفحت الصندوق ، ثم أخرجت رزمة أوراق مطوية
بدا عليها القدم ، ثم مدت بها يدها إلى ابنتها ، وقالت فى صوت منخفض :

— خذى هذه .. اقربئها .. كان يجب أن تقرئها من قبل .. كان يجب أن أقول

لك كل شيء .. ولكن ظننت أن الحياة يمكن أن تطوى ما مضى ، ولم أظن أن
الأقدار ستعود مرة أخرى إلى نبش رفات الماضى .. خذيها .. اقربئها .

وأمسكت « سامية » بالأوراق فى ذهول ، وكانت أمها فى حالة إعياء شديد ، فحاولت أن ترقدها ، وتجلس بجوارها ولكنها قالت لها : — إنى بخير ، سأجلس فى الشرفة ، واذهبي أنت لقراءتها . وسارت « سامية » إلى حجرتها ، وهى تطبق بأصابعها على تلك الأوراق . ماذا بها ؟! ماذا يمكن أن تحتوى عليه من الأسرار ؟. وكيف سينتهى بها الأمر ؟

أيمكن أن يكون النبأ صحيحاً ؟ أيمكن أن يخيب القدر لها أول أمل فى حياتها بمنزل هذه الوسيلة المفجعة .. الوسيلة المفاجئة التى لا تحدث إلا فى القصص ؟ أيمكن أن يكون قد حرّك قلبها ليلهبه بذلك السوط الموجه الأليم ؟ لقد كانت كل حياتها طبيعية سهلة .. لا غرابة فيها ، ولا مشاعر ، ولا انفعالات .. أيمكن أن يدفع فيها القدر بزوبعة عاتية .. بعد ظول سكونية وهدوء ؟

لا .. لا .. حرام عليه .. إنها لم تحاول أن تطلب لنفسها شيئاً .. لقد كانت دائماً قانعة بكل شيء ، بحبنة نفسها شرر غائب النفس .. أيعقل بعد ذلك أن يهبها متطوعاً .. هذا الأمل الحلو .. ثم يسلبها إياه بهذا العنف والانفعال ؟ إنه قطعاً ليس ابنها .. ولكن ما بالها قد أصابها هذا الغثيان والانهيار .. وما بالها أعطتها هذه الأوراق ؟

إن فى الأمر سرّاً ، ولكن مهما كان هذا السر ، فهو قطعاً ليس أخاها . أجل ! ليس أخاها .. لا يمكن أن يكون أخاها . ويحبها ، ويحبها ، ووجع الأقدار العابثة .. إنها تحبه بكل جارحة فى نفسها ، تحبه كما تحب المرأة الرجل ، لا كما تحب الأخت أخاها . وأخيراً استقرت فى فراشها وبدأت القراءة فى انهماك شديد

الجزء الثاني

القصة الأخيرة

صواعق نفس

٦

وأخيراً .. أجلس لأكتب قصتك .. أو كما اتفقنا على تسميتها « القصة الأخيرة » .

أجلس يا أختاه وني إحساس الخارج من معركة ... الملقى في استرخاء ، وخمود .. الممدد الأطراف ، المتابع الأنفاس ... يطلق الزفرة تلو الأخرى يستروح بها من طول عناء ، وصخب ، وضجة ، وحركة .

أجلس في الفراش وني إحساس راكب زورق أحلام جميلة ، تهادى به لحظات ، ثم عصفت به الريح فجأة فحطمته على صم الصخور وألقته من نعمائه إلى فلاة قفرة موحشة ، لا إنس فيها ولا جن ، ولا هاد ، ولا عاد ، ولا عدو ، ولا حبيب .

أجلس في يدياء واسعة قد خلت من كل شيء وصمتت عن كل صوت .. كل ما حولى مغرق في الهدوء والسكينة . ومع ذلك فما زالت تطن في رأسي أصوات موهومة من العاصفة وضجيجها ، والزورق وحطامه .. تطن في رأسي كأنها آتية من مكان عميق بعيد الغور .

وأطلق النفس حاراً طويلاً ، وأحاول عبثاً أن أسكت ذلك الطنين الموهوم ، ثم أتلفت حولى فأجد القفر شديداً والوحشة جاثمة ، والفراغ واسعاً بلا نسمة تبل ، ولا قطرة تعل ، ولا ورقة تظل .

ويلغ في اليأس مبلغه .. حتى تتحسس يدي في الرنى المقفرة شيئاً تعرفونى منه هزة ، فإذا بذاهب الأمل قد عاد ودارس الرجاء قد تجدد .

وسط الفراغ الخاذل .. والوحدة المضنية .. تتلمس يدي خلا لم يخلد ورفيقاً لم يهجر .

في هذا الصمت الخيم والسكون السائد ، وأنا مضطجع في الفراش مكدود

مرهق ، هائم الروح ، ضال النفس ، أحس أنى قد وجدت أخيراً مستقراً وملجأً .

وسط السكون والوحدة ، حيث لا صديق ولا حبيب ولا ماء ولا غذاء ، ولا ظل ولا ثمر .. وجدت ورقاً وقلماً كانت زادى فى البأساء ، وبارقى فى الظلماء .

حمداً لله .. إن العاصفة لم تمزق الورق ولم تحطم القلم .
حمداً لله أن أبقي لى شيئاً أستعين به على وحشة الفراغ .. وأبدد به بعض هذه السحب الثقيلة المعتمدة . وأسكت به الآثار العاصفة من أصوات ملحّة وطنين متواصل .

حمداً لله .. أن لم يسلبنى بعد قدرتى على الكتابة . وسلونى فى الأحزان ، وعزائى فى الملمات .

حمداً لله الذى وهب لى الداء ، وأبقى على الدواء .
ولكن .. أترين كتابتى عنك حقاً .. دواء .. أم هى أهيج للعلّة ، وأيقظ للداء ؟

أترينها حقاً ستسكن طنين العاصفة فى أذنى ، أم ستزيده حدة ؟ سواء على أسكته أم هيجه .. إني كاتب ، كاتب ، فما تبقى لى بعد ما حدث .. سوى الكتابة .. ولن يستطيع إنسان كائناً من كان أن يمنعنى منها .
ويعلم الله كيف ستقرئين القصة .. أستقرئنها منشورة كقصة أم مرسلة إليك كرسالة ، أم تراك لن تقرئها أبداً ؟

وكيف ستقع من نفسك ؟ أتراك ستعبرينها رائحة .. كما قلت عن كتابتى فيما مضى .. أم ترين الروعة قد ذهبت مع ذاهب الحب ؟
على كل حال أنا لا آمل كثيراً فى أن أستعيد موضعى منك .. فكل شىء فى حياتنا هذه إلى نهاية ، وإلى زوال .

أتذكرين ما قلته لك عن الزمن ، وأنه ما خذلنا وأضحكنا على أنفسنا مثله ؟

إني أتذكر ما قلت بالحرف الواحد :

« إننا نجلس الآن في نشوة ، هائمين كالفراشة ، ذائبين من الوجد والصباية .. يجد كل منا في عيني صاحبه أقصى أمنيته ، ويصعب علينا أن نصدق ، كيف عاش أحدنا ماضى من حياته بلا صاحبه .. وكيف يمكن أن يعيش بدونه .. ثم نقسم مخلصين أن الزمن لن يستطيع أن يهت صورة أحدنا من ذهن صاحبه ، ونقسم ونقسم . ونكتب ونكتب .

وبعد عشرة أشهر — ولا أقول عشر سنين — رغم ضالة هذه وتلك في عمر الزمن .. بعد عشرة أشهر ننظر إلى ما كتبنا ، ونستعيد ما قلنا ، فإذا بنا قد صرنا سخرية أنفسنا » .

وثررت على يوم كتبت لك هذا ، واتهمتي بأنى أخشى الزمن لأنى لا أثق بنفسى .. أما أنت فلا تخشينه لأنك واثقة من حبك ، مؤمنة بأنه أبقى على الزمن الباقي من الزمن .

والآن .. ما رأيك ؟

ألا تجدين أنى كنت كثير التفاؤل حينما قلت « بعد عشرة شهور » ؟ .
الآن ، ولما تمض على حبنا خمسة شهور ، قد أعلنت أنك انتهيت منه ، ولم يعد لى أى تأثير فى نفسك .. لا حزن .. ولا هناء ، ولا ضيق ولا فرح .
يا للسخرية ! أهكذا سريعاً .. انتهى كل شئ ؟ !

أينتهى بمثل هذه السهولة والسرعة ، ولما تمض بضعة أيام على خطابك الذى قلت فيه :

« إن ما أحس به لك إحساس آخر .. إحساس عميق بعيد .. ملؤه الحرارة والإخلاص .. إحساس لن تخبو له على السنين بارقة ، ولن يطفأ له على الزمن أوار » .

أينتهى كل شئ .. ولما يخف بعد مداد خطابك الأخير ، الذى ختمته بقولك :
« على أية حال لن أكف عن حبك حتى آخر رمق .. حتى ولو كففت أنت

من حبك . إني سأحبك إلى النهاية .
ولم أكف أنا عن حبك ، ولكنك كفت عنه ، ومتى؟ ليس في آخر رمق —
أطال الله عمرك وأدام بقاءك — ولا بعد عمر طويل .. ولا بعد عام أو عامين أو
شهر أو شهرين .. بل في اليوم التالي — الذى كتبت فيه تأكيدك هذا — أعلنت
أنك لم تعودى تحسین نحوى بما كنت تحسین .
ولم ؟ لأول خصام يحدث بيننا .
ماذا كنت متخيلة أيتها الصغيرة الحمقاء ! أكنت تتخيلين وأنت تجزمين
بقولك هذا أنه لن يحدث بيننا خصام ؟
وما قيمة حبك أو ميزته أو قوته .. إذا كنت تضمنين دوامة بشرط ألا يحدث
في طريقة خصام ؟
إن أى حب عادى سطحي يمكن أن يدوم بسهولة .. مادام لا تعترضه عقبات
الصد والخصام .
ولكن الحب القوي العميق ، هو الذى يتميز بشباته أمام تلك الهزات وبخطيه
لكل ما يصادفه من عقبات وعثرات .
هذا هو الحب حقاً .. أما ما عداه فهو نزوات طيش .
أفلم يكن ما بك أكثر من نزوة طيش ؟
يا خيبة الأمل ، وبالضيعة الرجاء !
ولكن .. علام اللوم ، والعتاب ، والحساب .. وأنت بشر ، وأنثى ، وتلك
هى طبيعة البشر وديدن الأنثى .
والآن يا أختاه .. بما تبقى لك من أثر حلوى نفسى وذكريات جميلة محبة ..
دعينا نتجول في ربوع الماضي .. دعينا نرجع القهقري كنفاً إلى كف ، وخذاً
إلى خد .. كما كنا نفعل فيما مضى .
واعجباً ! أهكذا سريعاً .. أصبح حاضراً ماضياً .. وحبنا ذكريات ؟
لنبداً من البداية .

متى أبصرتك أول مرة ؟ .. متى وقعت عليك عيناى فالتصقت بهما صورتك ، وأبت أن تغادرهما .. حتى يومنا هذا .. بل حتى لحظتنا هذه .. حتى بعد تحولك وإعلانك القطيعة ؟

رأيتك في حفلة راقصة في أحد المنتديات .. تدورين وتلفين وتظهرين وتختفين بين الجمع الراقص ، وكنت أجلس لأتسلى بمراقبة بضعة وجوه حسان ، أدخلتك في زمرتها .

وهكذا حدث أول تمييز لك ، وإدخالك من حيز العالم المجهول الواسع إلى حيز العلوم المعروف المحدود .. ووضعك في معرض الجمال الذى يحلولى مراقبته واستعراضه وأصبحت بذلك معلوماً شكلاً .. ولكنك ما زلت مجهولة اسماً ، وشخصاً ، ولم يكن ذلك ليمنى كثيراً ، بل كان يحتمل أن أظل هكذا لا أعلم عنك شيئاً .. سوى وجهك الجذاب الصغير وتقاطيعك الدقيقة الحلوة ، ولكن حدث بعد لحظة من تمييزى لك أن نادتك ابنة صديق لنا كانت تجلس معنا على منضدتنا باسم عجيب بعض الشيء .

وضحكنا على الاسم وسألناها :

— أهذا هو اسمها ؟

— هذا اسم تعودنا أن نناديها به أنا وبقية الصديقات .

ولم نسمعها من أول مرة ؛ واشتركننا معها في مناداتك على سبيل الضحك ! .. ولكن ضجة الموسيقى باعدت بين أصواتنا وأذنك .. فبئسنا من مناداتك .

— وأنبأتنى صاحبتيك ببعض المعلومات عنك على سبيل التعريف ، وقالت لى

صاحكة :

— إنها فتاة عجيبة .. إنها قد تبدو صغيرة في ظاهرها ، ولكنك إذا ما جالستها

وتحدثت معها .. وجدت فيها سحر امرأة .. إنها تعجبك كثيراً .. إنك تستطيع أن تجعل منها بطلقة قصة .

وسرّنى قولها ، فقد صدّق على نظريتي المعجبة بك .. وزاد من لفت نظرى إليك .. ولكنى لم أكن أتخيل .. أننى حقاً .. سأجعل منك بطلة قصة .
ورقصت كثيراً فى ذلك اليوم .. وكان معظم رقصك مع فتى معين .. وقيل على سبيل الضحك أنكما لا بد عاشقان .

ولم يضايقنى ذلك كثيراً ، فقد كنت أنظر إليك كمجرد شيء مستملح .
ومن ذلك اليوم تعودت مراقبتك ومتابعتك بنظراتى ، وكنت فى الواقع أزداد بك إعجاباً يوماً بعد يوم .. حتى أصبحت أنت هدفى الوحيد فى المراقبة ..
وطردت من حين مراقبتى سواك من الحسان .

كنت أحدى فى شعرك الأسود اللامع المتهدلة خصلة منه على جبينك ،
وكنت أمتع البصر بأنفك الدقيق المستوى وبعينيك الحلوتين .. الطويلتين
الهدب .. وكنت ترتدين ثوباً بحمالات .. يكشف عن كتفيك .. وعن
ذراعيك .

وبدأ الرفاق حولى .. يعرفون مراقبتى لك ويسخرون من إعجابى بك ..
قائلين إنك ما زلت صغيرة .. وليس بك ما يستدعى كل هذا الإلحاح منى فى
تبعك والإعجاب بك .

وبدأت المناقشات بيننا عندما كنا نقارن بين الحسان وكنت أصر على أنك
أجمل مخلوقة فى حلبة الرقص .. وفى الجالسات .

ولم تكونى أنت حينذاك تعرفين فى أكثر عن محقق فيك يلاحقك بنظراته ..
لا أكثر ولا أقل .

وبدأت أنقل لصاحبتك إعجابى بك ، وأسألها عنك إذا ما لقيتها ، ولكن
الظروف لم تسمح بأن ألقاك وجهاً لوجه أو أتعرف بك .. حتى حدث ذات مرة
أن وجدتك وحيدة ، وقد جلست تشاغلين بتقليب صفحات كتاب فى يدك .
وأنا مخلوق لم أتعود الحديث إلى فتيات لا أعرفهن .. بل ما جرؤت مرة واحدة
— حتى فى صباى — على أن أقدم على مغازلة فتاة أو امرأة لا أعرفها ، ولكنى مع

ذلك لم أخرج من التقدم إليك والجلوس بجوارك .. ثم تحيتك وسؤالك عما تفرئين .

ولست أشك في أنك قد دهشت .. إذ لم أكن صبياً تافهاً مغامراً حتى أقدم على مثل هذا العمل الصياني ، ولكنك لم تملكي سوى الرد عني ، وأجبتني في اقتضاب وبرود أن ما معك قصة فرنسية .

وتركني يومذاك ، وكنت فريراً لأنني تحدثت معك .. فقد كان ما أحسه لك مجرد إعجاب ورغبة في معرفتك والتحدث إليك والجلوس معك .

وبدأت أنت تحسين لي ، وتميزتني ، ولكنك كنت تبدين نافرة من الجلوس معي .. حتى حدث بيننا أول تعارف .

كنت أجلس مع صاحب لي عندما رأيته ينهض ، ثم يغيب لحظة ويعود لينبئني أنك تجلسين على مقربة منا مع صاحبتك وأنها فرصة سانحة للجلوس معك والتعرف بك .

ولم أتوان لحظة بل نهضت متجهاً إلى منضدتكما وسلمت على صاحبتك ثم عليك ، وجلست وصاحبي معكما .

وتحدثنا سوياً ، ووجدتك تقبلين على الحديث معي في رقة ولطف ، ولم يكن بك أثر للنفور الذي تعودت أن أجده بك دائماً .

وكنت واثقاً أنك لم تقرئي لي ، وأنت لن تقرئي لي .. لأنني أعرف أنك لا تحيدين العربية ، ولا سيما ، وأني رأيت في يدك من قبل رواية فرنسية ، وصدق ظني .. بل وأسوأ من ذلك وجدتك تسخرين بكتاب القصص الذين يكتبون في المجلات ، وأنا واحد منهم ، وترمينهم بالتفاهة والميطنحية .

وحاولت بالطبع أن أدافع عن نفسي ، وقلت لك إنني أرجو منك أن تقرئي أحد كتبتي .. لو كانت لك القدرة على القراءة بالعربية .

ورحبت — مجاملة — بالقراءة لي ، ولم أدع أنا الفرصة تفلت .. وسرعان ما أعطيتك أحد الكتب .

وافترقنا ليلتذاك .. وأنا ملئ بالسعادة والمرح .
لقد أحسست أنى حصلت على شيء كثير .. بالجلوس معك ، وإعطائك
كتابى ، وكنت فى الواقع تستحقين أن أسعد بك .. فقد وجدتك مخلوقة ممتازة
عقلاً وشخصية وإن حديثك حلو كوجهك .. وأكثر من هذا وجدتك من نوع
عجيب .. نوع لا يبدو جماله خاطئاً براقاً ، ولكن يزداد إحساس الإنسان بجماله
كلما ازداد تمعناً فيه واغترافاً منه .. نوع عميق لذيد .. ليس ضحلاً ولا
سطحياً :

ولم ألقك فى اليوم التالى ، وإن كنت تواقاً إلى ذلك .. ولكنى لقيت صاحبك
فأنبأتنى أنك قرأت كتابى ، وأنتك أبلغتها أنك أعجبت به جداً .
وأنا — ككل كاتب — لا يتمتعنى شيء كإطراء كتابى والمديح فى كتبى من أى
مخلوق كان . فما باللك إذا كان المديح منك أنت .. المخلوقة الساحرة التى لم
أحاول قط التطلع إلى جعلها قارئة لى ، بل معجبة مادحة !
وبدأت أرسل لك الكتاب تلو الكتاب وأتلقى منك آيات المديح وجميل
النساء .. دون أن تسنح الفرصة لنا بقاء مدة أسبوعين .
ومع ذلك ، ورغم أننا لم نلتق ، فقد كنت أشعر أن وثاقاً من القرى ورباطاً
من المودة يشد كل منا بصاحبه بشدة وإحكام ، وأن اللقاء الذهبى بيننا — أنا
بكتبى ، وأنت بآرائك فيها وتعليقك عليها — قد زاد من تعريف كل منا بالآخر
خيراً من ألف لقاء .

وهكذا بت أشعر من جانبى قبل أن ألقاك أننى قطعت فى سبيل صداقتك
شوطاً كبيراً وأنا عندما نلتقى لن يكون بيننا أثر لكلفة .
وجلست أنتظر فى أول لقاء بعد تعارفنا الروحى ولقائنا الذهنى ، وطال لى
الانتظار ، وبى قلق شديد خشية ألا تحضرى .. فقد أضحى لقاؤك متعذراً إلا فى
أوقات متباعدة . وخشيت أن تضيع الفرصة السانحة ، والتى لم تكن تسنح إلا
قليلًا .

وفجأة .. وأنا مغرق في قلقى .. متطلع ببصرى ، لمحتك تمرين بمدخل القاعة التى جلست أنتظر ك فىها .. فقفزت من موضعى ولحقت بك فى حيث وجدتك تتجهىن إلى الشرفة ، وسلمت على ك ، وعابتك على التأخىر .. ولكنك أنبأتنى أنك حضرت فى الموعد فلم تجدىنى وأنك أنت العاتبة على تأخىرى . وجلسنا سوياً .

وجرى الحديث بىنا حلواً ممتعاً ، وقلت لك إننى كنت أمر كثيراً بمأواك فأحسر بحىن إلى ك شدىد . وقلت لك ما زحاً إلى ما مررت على ك إلا وهتفت بقول قىس : وما حب الدىار شغلن قلبى ولكن حب من سكن الدىارا وقلت لى أنت إن كتابتى رائعة .. وإنك ما قرأت لأحد خيراً مما قرأت لى . ولقد سبق أن كال لى الناس المدىح ، ولكنى ما اعتزرت بمدىح إنسان - اعتزرت بمدىحك ، وما سرنى من الإطراء كقولك إن كتابتى رائعة . وتكرر بعد ذلك لقاؤنا ، وفى كل لقاء كان حدىنا لا يتعدى كئبى وإعجابلها ، حتى قلت لى ذات مرة :

— أرىوك .. لا تكف عن الكتابة . لى لا أستطىع أن أفكر كىف أعىش بغير القراءة لك .

ولقد كان حرىاً لى أن تبلغ سعادتى منهاها .. فما أظن أنى كنت آمل قط فى أن تقولى لى أنت مثل هذا القول .. وفى أن تعتبرى كئبى من ضرورىات حىاتك . ولكنى .. للعجب العجاب ، لم أطرب .. ولم أفرح ! لقد بدأ فى تلك اللحظة نضال عجب فى نفسى .. بىن الرجل والكاتب ! كنت أكره أن أكون لدىك مجرد كاتب .

أنا أعرف أن ذلك كان محض خطأ .. وأنه كان فىجب أن أخفى الرجل فى نفسى .. أعنى الرجل العاشق المحب .. وأنه كان فىجدر لى أن أسمى وأرتفع .. وأن أظل أمامك العبرى النابغة .

ولكنى لم أفعل . بل بدأت أنخبط فى إحساسى لكئبى . كنت أحبها ..

وأكرهها .. أحبها لأنك تحبها .. وأكرهها لأنك تحبها وحدها .

وإني لأذكر أني أهديت لك أحد كتبي وقد كتبت عليه :

« أغار من كتابي أن أهديه إليك .

أغار منه أن تعجبي بي لأني كتبت ، ولا تعجبي به لأني كتبت !

أغار منه أن يقضى العمر بين يديك .. يدفيء أوراقه حر أنفاسك ، ويمتنع

كلماته سحر عينيك !

أغار منه وأهديه إليك .

وعزائي في إهدائي أنه بعض نفسي . ولو استطعت لأهديت إليك كل

نفسى . »

ولكني لم أكن أستطيع أن أهدي إليك كل نفسي .. لأني كنت مقيداً ..

وكنت زوجاً .

علام إذا كان كل ما كان .. ولم لم أقنع بالترفع والسمو ، وبأن أبقى لديك

مجرد كاتب عبقرى .. وأن أكتفى بأن أهدي إليك — كما قلت في كتابي — بعض

نفسى .. أما كان ذلك مرضياً غرورى ومشاعرى ؟

كلا ! ...

كلا .. وألف كلا ..

ولو استطعت لهانت المسألة .. وانتهى الأمر .. ولظلمت أمتحك وأخذ منك

ما أمتح آلاف القراء وأخذ منهم .. ولما كان بيني وبينك .. بعد كل هذا ..

قصة .

إن الرجل في نفسي تغلب على كل ما عداه !

ولم لا .. وأنا رجل .. قبل أن أكون كاتباً ؟

وهكذا بت أكره كتبي .. ولا أعبا كثيراً حديثك عنها ، ورأيك فيها .

بل بت أكره — كما قلت في إهدائي — أن تعجبي بي لأني كتبتا .. وأتمنى أن

تعجبي بها لأني كتبتا .

كنت أود أن تحبها من أجلي ، لا أن تحبني من أجلها !
كنت أود أن أكون أنا أولاً .

أنا أعلم أنه ما كان يجب أن أفعل ذلك .. وما كان يجب أن أتخدر وأجذبك إلى
أسفل مع الرجل ، بدلا من أن أصعد وأجذبك إلى أعلى مع الكاتب .
ولكنني لم أكن حر التصرف .. ولا حر التفكير
لسبب بسيط .. هو أنني أصبحت عاشقا

وعاشق في عري يعني .. مجنوناً .

وهكذا بدأت أتصرف كمجنون .. فاندفع أنا الكاتب الكبير العبقري
الناطقة .. إلخ .. في هواك .. أنت الصبية الصغيرة التي قد يتردد المرء كثيرا قبل أن
يضعك في مصاف النساء !

لقد بدأت أجذبك معي في طريق بلا هدف .. طريق لا أعرف قط ... ولا
أحب أن أعرف .. إلى أين ينتهي .
وذهبت معك لأول مرة إلى السينما .
وجلسنا متجاورين .

ولا أظنني في حاجة لأن أذكرك بأننا لم نشاهد من الفيلم صورة واحدة ..
أنت محقة بنظرك الشارد في الظلمة بلا وعي ولا فهم ولا إدراك .. وأنا محقق في
جانب وجهك العجيب .. العجيب جداً .. الذي يدارئنا في الضوء الباهت ..
بأنفه الدقيق وطرفه الأشم البارز .. وشفتيك الرقيقتين .. والخصلة إياها متهدلة
على جبينك .

و كنت تلغتين إلي بين آونة وأخرى وقد افتر ثغرك عن ابتسامة حلوة .. ولم
يكن لي أمنية وقتذاك قدر أن ألمس يدك .. مجرد لمس .. ولكنني لم أكن أجرو ..
فما كان هناك ما يرر مسها . فقد كنا ما نزال مجرد كاتب مجيد وقارئه معجبة ..
فبأي داع أو سبب أمسك يدك ؟

ولم أجد سبيلا إلى ذلك سوى الهبوط إلى الطرق الصنيانية ، فأقول لك إنني

أود أن أقرأ كفك في الظلمة ! ثم أقرن القول بالفعل ، وأمد يدي فأمسك بها راحتك .. فتخبط في كفي وتحاول التملص ، كعصفور قد وقع في فخ وتقاوم برهة .. ثم تستسلم في النهاية .. وتستريح أصابعك في يدي في رفق ولين .
وأسمع همساتك في الظلام تهتف بي راجية مستعطفة :

— ما كان يجب علينا أن نفعل ذلك !

وكم أشعر الآن أنك كنت على حق ، وأنه ما كان علينا أن نفعل ذلك . ولكني كنت متساقاً بقوة القلب المجنون . مندفعاً بشدة الحس المرهف . فلم أسمع نصحك بأنه ما كان علينا أن نفعل ذلك .. ففعلت ذلك ، وأكثر من ذلك .
أجل .. لقد أمسكت بيدك في شوق ووجد ، وسمعتك تهتفين بي مرة أخرى :

— أنا لست بظلة من أبطال قصصك ، فدع يدي .

ولم أدع يدك .. حقاً لم تكوني من أبطال قصصي ، ولكنك كنت أكثر من ذلك .. كنت بظلة من أبطال واقعي .. المضطرم المستعر
وحاولت أن أقبل يدك ، ولكنك سحبتها مني برفق ، وقلت :

— كفى هذا !

ولم أتضايق .. فقد كنت قريراً بما أخذت .. قريراً بمجرد لمس يدك .. شاعراً بأنني حقاً يكفيني هذا .

يا للعجب !.. أنا أفتع بهذا ؟!

من يصدق !؟

أنا أفتع بلمسة يد في ظلمة السينا كصبية العشاق ومغاييلهم ! أنا الذي لم يكن يقنعني في كثير من الأحيان امرأة مستسلمة بجسدها ومفاتها وكل ما تملك من اغراء المرأة ؟

ولكن .. علام العجب .. وقد كان هو الحادث فعلاً !

كنت أحب .. وعندما يجب الإنسان .. لا تتكرى منه فعلاً أيأ كان .. لقد

قيل : ليس على الأعمى والمجنون حرج .. ولو أنصفوا لقالوا : ليس على الأعمى والمجنون والعاشق حرج .

وغادرنا السيما .. دون أن يحدث بيننا أكثر من مسة يد .. في الظاهر .. أما في الباطن .. فلا أشك أننا قطعنا في طريق العشق مرحلة كبيرة .

أجل ...! لقد غادرنا أماكننا وبنفسينا إحساس العاشقين .. رغم أنه لم نجر على لساننا كلمة حب أو غرام .

لم نحاول قط أن نفصح عما بداخلنا .. حتى التقينا في الشرفة ذلك اللقاء العجيب .

كنت أجلس مع صاحبتك وثلة من الأصدقاء ذات ليلة عندما أتيت إلي وأنبأتني أنك ترغبن في أن تسرى إلي حديثاً .

ونهضت معك وذهبتا إلى الشرفة .. لا يقطع علينا خلوتنا سوى همس النسيم واهتزاز الأوراق .

وبدت على وجهك ليلتذاك سيماء الحزن والإرهاف .. وأنت تهمسين لي راجية :

— إني لن أستطيع لقاءك أو الجلوس معك بعد الآن . يجب أن نقطع كل ما بيننا .

ولم أشعر من قولك على قسوته بأي ألم ، بل أحسست بمنتهى المتعة ، فلقد كانت لهجة صوتك وتعبير وجهك ، عجيبة رائعة ، تكاد من الرقة والإرهاف والحنان تصبح شيئاً ذائباً .

لقد كان في كلماتك منتهى القسوة .. وفي صوتك منتهى الرقة .. وقلت لك متسائلاً :

— ولم لا نلتقى ؟ .

— وما الفائدة ؟ .. ما الفائدة في لقائنا ؟ . ماذا يمكن أن يرجوه أحدنا من الآخر ؟ .. ماذا يمكن أن نأمل من ذلك الطريق الذى نسير فيه ؟ .. ما الأمل ؟

وما الرجاء ؟

— لا أمل .. ولا رجاء .. هذا الطريق .. يندفع فيه المرء دائماً بلا تفكير في أمل ولا انتظار لرجاء .. نحن نسير فيه كحصاة تلقى من أعلى تل لا نملك أن تستقر حتى تبلغ القاع .. أو حتى توقفها عقبة .. أما أن تتوقف هي من تلقاء نفسها فذلك هو الشيء المستحيل .

— ولكنني أستطيع التوقف الآن . أنا مازلت في ميعة الصبا ، ومستهل الحياة .. أنا مازلت في السادسة عشرة .. والمستقبل أمامي متفتح ، فمن الجنون أن أندفع لأقيد نفسي مع إنسان مقيد فعلاً .. إلى الآن أملك أمر نفسي .. ولم يصبنى بعد ذلك الشيء الذي يفقدنا السيطرة على نفوسنا والذي يجعلنا نندفع كالحصاة الملقاة من أعلى التل بلا تفكير ولا إرادة .

وكان في صوتك رنة ألم .. وكان حديثك ملؤه الحكمة والعقل .. حديث امرأة محنكة مجربة .. لافتاة في السادسة عشرة !

ووجدتك على حق في كل ما تقولين ، وأحسست بمبلغ أنا نيتي .. ومدى اندفاعي وراء متعة قلبي دون تفكير في مصيرك ومصلحتك . وأطرقت في حزن ويأس ، وقلت لك مخلصاً :

— إلى على استعداد لكل ما تطالبين .. إن الشيء الذي تخشين أن يصيبك فيفقدك سيطرتك على نفسك . قد أصابني فعلاً .. وأفقدني سيطرتي على نفسي .. ولكنني مع ذلك أستطيع أن أكبته من أجلك وأن أحتمل آلامه في سبيلك إذا أردت ألا ترى لي وجهاً منذ هذه اللحظة ، فإنني فاعل . وأجبت فزعة :

— لا .. لا .. ليس هذا ما أريد .. إن هذا أسوأ علاج لحالتنا .. إنه سيحدث في نفسي رد فعل شديد .. إنني أحب أن أراك .. وأحب أن أجلس معك وأسمع حديثك ، فإذا ما حرمت من ذلك مرة واحدة .. زاد الحرمان من رغبتي فيك ، وكنت كملقي الوقود على اللهب .

— ماذا تريدان إذا ؟

— أن نقلل اللقاء شيئاً فشيئاً .. وأن نوهن العلاقة قليلاً .. قليلاً .. يجب أن نستعمل الحكمة في إزالة ما بيننا .

وكان قولك حكيماً .. آية في الحكمة .. إذا وزناه كقول .. ولكننا إذا وزناه كواقع .. وإذا بحثنا عن جذوره في صدورنا . ونقينا عن أصوله ودوافعه في قلوبنا ، لضحكنا من أنفسنا وسخرنا أشد السخرية !

هل تعلمين أن الحديث بكل ما فيه ، والجلسة بكل ما حولها ، كانت من ألد المتعات التي لقيتها ؟

ولا أظنك تتكرين ذلك بالنسبة لنفسك .

إن هذا الحديث الذي دار بيننا لكي نقطع علاقتنا ونضع حداً لكل ما بيننا .. لم يكن هذا هو غرضه قط .

أو كان هذا هو غرضه الظاهر .

أما غرضه الحقيقي !

أماله وجوهره ! .. فكان اعترافاً بحب !

كانت الجلسة في ظاهرها مناقشة لتسوية الأمور .. ملؤها الحكمة والتدبير والأقوال المترنة .

أما في باطنها .. فكانت مناجاة .. من أجل وأمتع ما وعت أذني وقلبي من المناجاة .

لقد كانت مثلاً عجيبة على أن العشاق يستطيعون أن يطووا مشاعرهم الحلوة في كل مظهر ويكسوها بكل كساء .

إن العشاق أقدر الناس على أن يتناجوا بشتى الأحاديث ومختلف الألفاظ .

إن العشاق يستطيعون أن يتناجوا حتى بالسياب .

وافترقنا .. على أن نوهن علاقتنا ، وقلوبنا تصدح وتخفق وترقص ، وتهتف بأن العلاقات قد ازدادت ارتباطاً واشتدت وثوقاً .

ولم يكن أدل على ذلك من أن اتفاقنا على أن نقلل من اللقاء .. أضحى وكأنه اتفاق على اللقاء .

وباتت رغبتك في تجنب ذلك الشيء .. الذى لم تجسرى على أن تسميه باسمه وهو الحب ، ذلك الذى يفقدك السيطرة على نفسك ، وكأنها رغبة في التشبث به وفي الإغراق فيه .

لقد بدأ دور اندفاعك في حبي .. لا كحصاة ملقاة من تل .. بل (كجلمود صخر حطه السيل من عل) .

وملائتني السعادة ، وغمرني النعم ، وأنا أحس بأن الرجل في نفسى قد انتصر على الكاتب انتصاراً باهراً .. وأنه صرعه في ميدان حبك شر صرعة ، وأن الذى أضحيت تحببه ، أو على حد قولك — تعبدينه — هو أنا .. أنا ، وليس أنا .. الكاتب .

أجل !! لقد أحسست أنك بت تحبين كسبى لأنى كاتبها بعدما كنت تحبينى لأنى كاتبها . وأنا بتنا في ميدان الهوى : رجلاً ، وامرأة .. بعد أن كنا كاتباً وقارئة .. أو على الأصح : عاشقاً وعاشقة ، بعد أن كنا معجباً به ، ومعجبة . ما أعجب الإنسان .. الذى يأبى السمو ، ويفرض إلا أن يبقى إنساناً كما هو !!

كم ظننت قبل أن أعرفك .. أن أقصى متعة لى هى أن أجد ككاتب . فلما عرفتك ومجدت فنى فكرى وكتبى وآرائى ، وجدتنى أكره الكتب والفكر والآراء .. وأتلهف إلى أن تحبينى كإنسان عادى ، ومخلوق بدائى .. من مخلوقات الغابة .

ما أشد أنانية الإنسان .. أنا حتى مع نفسه ، وفكره وذهنه !!

غير مذهب

٧

وهكذا بدأت علاقتنا كولهان وولهي .. ومولع ومولعة .
ولكن كيف بدأت العلاقة تتخذ مظهراً جدياً لها ؟ كيف بدأت تبرز
وتتجسد ؟

في ذات يوم وصلتني رسالة إعجاب ركيكة لا تختلف كثيراً عما يصلني من
رسائل القراء والقارئات .

ويبدو لي أن من الطريف أن أنقلها كما وصلتني بنفس ألفاظها وحذافيرها :
« سيدى العزيز :

أرجو أن تقبل اعتذارى عن أسلوبى الضعيف وألفاظى غير اللائقة بمكانتك
عندى .

إن رسالتى هذه إحدى ألوف الرسائل التى تسلمها كل يوم ، ولا أظنك
ستعيرها أية أهمية فإنك ستجدها كغيرها مملوءة بعبارات الإعجاب والتقدير
لكتبك الشيقة ، وككل قارئة سأؤكد لك أن إعجابى إعجاب يصدر من أعماق
قلبي ، وألفاظى ليست بتلك الكلمات البراقة التى لا تبغى إلا خداع قارئها
وإيهامه بأنها صادقة ، مع أنها ليست إلا عبارات زائفة .

صدقنى يا سيدى .. إنى لا أبغى منك شيئاً ، ولكنى طالما أردت أن أعبر لك
عن شعورى نحو كتبك .

لو كنت فى مكانك يا سيدى لحسدت كتبك على هذا الإعجاب والتقدير ،
ولتمنيت أن أحظى ببعض منها .. وإننى متأكدة أنه لو أتيت لي معرفتك لأعجبت
بك إعجاباً أعمق وأصدق من إعجابى بكتبك .. إذ أن الكتب شئ جامد لا حياة
فيه .

منذ أشهر وأسابيع .. منذ اليوم الذى قرأت فيه أول كتاب لك ، وأنا أتشوق

لرؤية شخصك الجذاب . فهلا تحقق لى هذه الأمنية ؟ .. إني أعلم أن رجائي بعيد
النال ، ولكننى أطمع فى شىء لا قدرة لى أن أعيش بدونهُ .

آه لو تدرى أيها الشخص العزيز .. كم من ساعات وليال قضيتها فى تصور
قوامك الفارع وابتسامتك الساحرة !

سأنتظرك يا سيدى .. على أحر من الجمر بجوار فى تمام الساعة الثانية من
يوم السبت الموافق ولن يمكننى الانتظار أكثر من نصف ساعة لأنسى
سأكون فى طريقى إلى المنزل من المدرسة ، وسأكون مرتدية ثوباً كحلياً .

إن لم تحضر يا سيدى فستخيب آمالى ، وسأعيش فى عالم من نسج خيالى
لأنصورك وأعجب بك كما يروق لى . وستكون كتبك عزائى الوحيد فى الحياة
المخلصة إلى الأبد (.....)

وطويت الخطاب الأحمر المعطر ، وابتسمت .

لقد أيقنت أن الخطاب لا بد أن يكون إما مزحة ماجن أو هوس حمقاء .. ولم
يشغل بالى كثيراً فقد كنت متعوداً على قراءة الكثير من أمثال هذه الرسائل ..
المرسلة من المخلصات إلى الأبد .. المعجبات دون أن يصرننى .. بقوامى الفارع
وابتسامتى الساحرة .: اللاتى يعتبرن كتبى عزاءهن الوحيد فى هذه الحياة ..
واللاتى إن لم يصرننى فستخيب آمالهن وسيعشن فى عالم من نسج الخيال .

وحامت شكوكى حول صاحبك التى كانت السبب فى معرفتى بك ،
وظننت أنها أو إحدى صاحباتها من المعجبات بكتبى هى مرسلة الخطاب .. وأن
الفتيات الشقيات قد دبرن مؤامرة للسخرية والضحك على .

ولم يخطر لى ببال أن أذهب ، حتى لقيت صاحبك فأريتها الخطاب ، وسألتها
عن مرسلته ، ولكنها أنكرت أنها تعرفها .. غير أن إنكارها كان أشبه باعتراف
بأنها تعرف لا سيما وأنها سألتنى عما إذا كنت سأذهب أم لا .

وأجبت مؤكداً :

— لن أذهب بالطبع .

— ولم ؟

— لأنى لست مجنوناً حتى أعرض نفسى لسخرية العابثات .. ولأنه ليس لى وقت لتضييعه فى لقاء المعجبات على قارعة الطريق .. إن لى موعداً هاماً .
أجل ! كنت على موعد للقائك ، وهو أهم عمل لى أفضله عما عداه ..
كان موعدنا فى الثالثة ، وكنت أعلم أنك قد تحضرين قبل ذلك ، ولذا كان على أن أذهب فى الثانية والنصف أو فى الثانية ، لأقضى معك أطول وقت ممكن .
ولكن صاحبك ألحت على فى الذهاب .. ألحت إلحاحاً عجبياً .. ولم تترك لى مجالاً للاختيار أو التردد .. وأضحى على أن أذهب على الأقل لإرضائها .
وهكذا وجدت نفسى منساقاً إلى الذهاب إلى الموعد المضحك .. تحت ضغط صاحبك .. وتحت تأثير رغبتى فى حب الاستطلاع .
وذهبت لأكتشف هذه المخلصة إلى الأبد .. ولأحدثها بضع دقائق ثم أعتذر لها وأذهب إلى موعدك .

وإنى لأذكر الوقت والظروف جيداً .. كان يوماً عاصفاً شديد الريح ، كثير الغبار ، وكانت الريح تصدم وجه الإنسان فلا يكاد يفتح عينيه .
ووقفت بعيداً عن مكان اللقاء .. مستطلعاً ببصرى إلى صاحبة الموعد .. حتى لا أبرز إلى مكان اللقاء قبل أن أتأكد منها ومن وجودها .
ولمحت هيكلاً فتاة تعبر الطريق متجهة إلى المكان وكانت ترتدى معطفاً « بيج » و « إيشارب » قد غطى رأسها ومعظم وجهها ، وأخذت تقاوم عصف الريح بضم أطراف معطفها حول جسدها .. وقد بدا من أسفل المعطف ثوب كحلى .

وحتى هذه اللحظة لم أكن قد ميزت الفتاة ، حتى أخذت أعبر الطريق وأقترب منها .. فإذا بها .. أنت .

كانت مفاجأة عجيبة .. ولذيذة .

عجيبة لأنى لم أتوقع أن تكونى أنت صاحبة الخطاب لعدة أسباب :

أولاً : لم يكن هناك ما يدفعك قط لإرساله ، ونحن على موعد للقاء في نفس اليوم وفي نفس الموعد والمكان تقريباً .

ثانياً : لم يكن الخطاب يعبر عنك .. لأنك تعرفتني ورأيتني .. ولا كان يمكن أن يكون مزحة منك .. لأنه لم يكن هناك ما يرر أن تمزح معي بهذه الطريقة .

ثالثاً : كان الخطاب ركيكاً في الأسلوب تافهاً في التفكير وفي التعبير ، وأنا لم أعرف عنك الركافة أو التافهة في أى ناحية من نواحي تفكيرك أو تصرفك .. بل كنت أرى تفكيرك دائماً أكبر من سنك ومن مظهرك .

لهذه الأسباب كانت المفاجأة عجيبة .

أما عن كونها لذيذة فما أظن ذلك يحتاج إلى شرح أو أسباب . لذيذة لأنني وجدت أنك أنت .. لذيذة لأنك لذيذة .. ولأن رؤيتك لذيذة .. وسماع صوتك لذيذ .. والحديث معك لذيذ .

وارتسمت على وجهك ضحكتك الحلوة المشرقة وأنت تمددين يديك إلى متسائلة :

— أظن أملك قد خاب .. لأنك لم تجد إحدى المعجبات بك ؟

— خاب ؟ خيبة الله عليه إن كان قد خاب .. إن أملت ما أصاب مثل هذا الفوز

الذي أصابه برؤيتك .. أتسمين لقاءك خيبة أمل ؟

— لعلك كنت تنتظر معجبة جديدة !

— إنك خير ما أنتظر .. هيا بنا .

— إلى أين ؟

— إلى مكان هادئ نجلس فيه سوياً .

— لا .. لا .. إني لا أستطيع السير أو الجلوس معك .

— إن لم تسير فساأحملك على كنفى وأسير بك في وسط الطريق ، فسرى

بالتى هي أحسن .

وكنت في قولي جاداً .. كان شوقي إليك يدفعني لأن آتى كل جنون في سبيل
استبقاتك معي والجلوس بجوارك .

وجذبتك من يدك وسرنا سوياً حتى استقر بنا المقام على مقعد في ركن خال في
الحديقة المتسعة ، وجلسنا والريح تعصف بالشجر المحيط بنا ، وتثير من الأتربة
الهبة تلو الهبة .

وككل عاشقين كان لدينا الكثير مما نقول .

وسألتني عن خطابك وعما جاء فيه قائلة :

— ما رأيك فيه ؟

— ركيك .. آية في الركاكة .

— لا تقل هذا .. لقد أجهدت فيه نفسي .. كيف لم يعجبك ؟

— لم أكن أدري أنك كاتبته .. وقرأته على أنه مزحة أو عبث .. ولكني لو

أعدت قراءته .. على أنه منك ، فقد أعجب به .

— كنت أظن أنه سيؤثر فيك . إني عنيت كل كلمة فيه .

— ولكنني في الواقع لا أشعر أنه منك .. لأنك لا تعبرين به عن نفسك .. ولا

يمكن أن تعني كل كلمة فيه ، لأنك رأيته وعرفتني .. وكاتبة الخطاب تقول ..
إنها تمنني رؤيتي .

— على أية حال .. إن النصف الأول فيه صحيح .. وقد قصدت به أن ألقاك

على حدة .

وجرى بيننا حديث لا أذكر تفاصيله ولكني أذكر أننا عدنا مرة ثانية إلى

مناقشة ضرورة عدم لقائنا ووقف ما بيننا .

ولم نستطع بالطبع أن نسعى « ما بيننا » باسمه الصريح بل كنا نكتفي بأن

نسماه فقط « بما بيننا » وإن كنت أذكر أنني كنت السابق إلى الإنفصاح وأني قلت

لك ونحن جلوس في السيما أول مرة إنك أصبحت عندى بمثابة « راحة ذهنية » .

ولقد كان ذلك فعلاً هو خير وصف لموضعك في نفسي وتأثيرك في ذهني ..

فقد كنت ككل إنسان لا أكاد أخلو في حياتي اليومية من مضايقات ، ولا أسلم من بعض آلام نفسية وإرهاق ذهني .. فلما بدأت تدخلين في حياتي أصبح التفكير فيك هو خير وسيلة لوقف تلك الآلام وإزالة أثر المضايقات .. كنت إذا أحسست بضيق وإجهاد في الذهن أفكر فيك ، فإذا بالذهن قد استراح ، وإذا بقلقه قد تبدد ، فكأنك أصبحت للذهن مستقراً ومرفأً ومتكأً .. عندما يجهد بلجأً إلى التفكير فيك .

هذا هو تفسير ما قلته لك عن « الراحة الذهنية » .

ولقد عدت أقول لك وأنا أجلس بجوارك بين عصف الريح ، وأنت تجادليني في ضرورة فصم عرى ما بيننا .. أو ما يوشك أن يحل بيننا .. عدت أقول لك إن ماى لا يستطيع أحد تأنيبي عليه ولا منعي من مباشرته .. لأنه شيء غير ملموس .. وما دام الغير لا يستطيع لمسه ، فبالتالى لا يستطيع مؤاخذتي به .

إن ماى .. فى باطنى .. وفى ذهنى .. لا يستطيع أن يراه أو يحس به سواى .. وعلى ذلك فهو ملكى وحدى .. لا يمكن أن يمنعه عرف أو تقليد أو قواعد أو نظم .. لأن كل هذه الأوضاع لا تستطيع أن تؤاخذنا بغير مظهرنا وهو الشيء المحس الملموس .

يستطيع أحد الناس أن يلومنى على الجلوس معك .. وتستطيع القيود والنظم أن تمنعنى من لقائك .. ولكن أى شيء يستطيع أن يمنعنى من التفكير فيك .. ومن الشعور بمتعة هذا التفكير ؟

أى شيء يستطيع أن يمنع ذلك الذهن المجهد المكدود من أن يلجأً إلى استدعائك لكى تهبى له الراحة والاستقرار ؟
لا شيء !

لقد قلت لك إنى كإنسان فى جسد .. يمكن أن تقيدنى التقاليد .. ويمكن أن أمنع عن لقائك .. ولكنى كذهن منطلق .. وقلب متحرر .. لن تستطيع أن تقف فى سبيل عقبة أياً كانت .

قلت لك إن كل تصرفاتى يمكن إخضاعها لقوانين الأرض .. عدا تصرف واحد .. وهو الحب .. فعندما أحب ، لن تستطيع قوة أن تتحكم فى حىي ، لسبب واحد ، هو أنه مدفون فى باطنى ، وفى ذهنى ، وهو ملك لى وحدى .
وانتهيت من حديثى بأن قلت لك :

— إن فرقتنا الجسدية مستطاعة ، فأنا أستطيع بسهولة أن أتحكم فى مظهرى وتصرفاتى أمام الناس .. أما الفرة الذهنية .. أو الروحىة .. فأمر مستحيل ..
إنى أستطيع السيطرة على جسدى فأمنعه من السير إلى هذا الاتجاه أو ذاك . وإتيان هذا الأمر أو ذاك .. أما ذهنى فمن العبث أن أحاول التحكم فيه .. فهو وحده يفكر فىمن يشاء متى يشاء ، ويستريح لما يشاء حيثما شاء .. إنى قاهر جسدى ، ولكن ذهنى قاهرى .

وهكذا ظللنا نتناقش دون أن تنتهى بنا المجادلة إلى شىء . وكيف تنتهى إلى شىء ، وهى فى الواقع .. لا تقصد شيئاً ؟ إنها كانت — كما قلت من قبل — وسيلة للمناجاة اللذيذة الممتعة .

وأخذت الشمس فى الغروب .. ومرة ثانية جلسنا متجاورين فى الظلمة ..
والدنيا تبدو صفصفاً قد خلت إلا من كلينا .

مرة ثانية جمعتنا الظلمة والسكون والوحدة .
ولكن فى هذه المرة .. كان « ما بيننا » قد أضحى أكثر نضوجاً ، وكانت المشاعر أكثر إرهافاً .. والقلوب أشد حرارة .

وجلسنا صامتين برهة .. والأنفاس تتلاحق ، والأعين شاردة فى الظلمة ..
ثم بدأت المطاردة .. بين يدى ويدك .. كلما هممت بوضعها بين أصابعى تسللت هاربة كأنها تخشى أن تقع فى كمين .. أو كأنها ظبى يتجنب الصائد حتى سكنت أخيراً خاضعة مستسلمة .

كانت دافئة .. كالصيد الذى ما تزال دماؤه حارة ، واستقرت فى يدى برهة
ثم رفعتها إلى شفتى .

كانت المرة الأولى التى أجرؤ على تقبيل يدك .

أجرؤ ؟!

أهذا تعبير فى موضعه ؟

أحقاً يحتاج مثلى لكى يقبل يد فتاة .. إلى جرأة ؟!

أنا المحرّب المحنك .. أحتاج إلى جرأة .. لتقبيل يد حلوة بضعة ناعمة !

أجل .. كنت أحتاج إلى جرأة .. لسبب بسيط .. هو أنى ما كنت بجوارك

قط .. محنكاً مجرياً .. بل كنت هيباً وجلاً ، كأى عاشق مبتدىء ، لم يعرف

شئون الحب من قبل .

مرهفاً كما كنت مسموع دقات القلب .. متلاحق الأنفاس وجداً وصباية ..

أمسك بيدك الحارة فى يدى ، وكأنى أمسك بكنوز العالم .. أو كأنى أطبق على

روحي يدي . وقد تناسيت كل حكمة وتجربة ، وتبدد منى العقل وطاش

الصواب ، وبت كالغزالحدث .

أما كان الأمر يحتاج — وأنا فى مثل هذه الحال — إلى جرأة ؟

ومسست بشفتى أطراف أصابعك .. وأنت تمنعين تمنع الراضى ،

وتقاومين مقاومة المستسلم .

كانت يدك عجيبة !

أم ترانى أنا الذى كنت عجباً ؟. بذلك القلب الخفاق فى صدرى ، والمشاعر

المتأججة فى حنايى ؟.

على أية حال .. وأباً كان العجيب فينا .. لقد كنت لا أشعر بعجيبى .. فما

أظن هناك إنساناً يحس بنفسه ، بل هو يحس بانعكاسات نفسه على الآخرين فىرى

فيهم العجيب .. وهو الأكثر عجباً ، ويرى فيهم الطرب والطرب فى نفسه .

لم تكن يدك وقتذاك .. مجرد يد .. لأنها لو قيست بماديتها .. فما أظنها

مهما كانت .. بمستطاعة إثارة كل تلك اللهفة فى نفسى ، والنشوة فى روحي ..

ولكنها كانت شيئاً معنوياً .. كانت جزءاً من المخلوقة العجيبة الكائنة بجوارى ،

(بين الأطلال)

والتي ألح في الظلمة جانب وجهها وأسمع خفيف أنفاسها ، والتي وددت لو طويتها في صدري وأغلقت عليها الضلوع ، وأطبقت الحنايا .
إني لم أمس بشفتي لحماً وجلداً وعظماً .. بل مسست روحاً .. فداها كل روح .

وكففت أنت عن التمتع ، وتركت لي يدك أحرك عليها شفتي كما أريد ، وأجربها ببطء على ظاهرها ، وفي باطنها ، وألثمها أنملاً أنملاً ، وظفراً ظفراً .
وبعد لحظة وجدت يدك — كما انقلبت من حالة التمتع والمقاومة إلى حالة الرضوخ والاستسلام — قد انقلبت مرة أخرى من حالة استسلام إلى حالة أكثر إيجابية .. فلم تكثف بالبقاء ساكنة في يدي وتحت شفتي .. بل أخذت تتحرك في ببطء لتلمس بأصابعها شفتي ، وتحسس وجهي بأقصى مظاهر الرفق والشوق والحنان .. كما تلمس ضريرة وجه ابنها العائد بعد طول غيبة .
وأخيراً استقرت يدك بين يدي فوق ركبتي .. كأنها تلمس الراحة بعد شوط مجهد شاق .

ولم لا ؟ .. ألم تكن في شوط الحب !!؟

ومضت برهة ، وأنا شارد ببصري في الظلمة .. شاعر بأقصى آيات السعادة .. ثم تلفت نحوك .. مديراً وجهي إليك .. فمس أنفي أطراف شعرك .. ولبث أنفي في موضعه فلم أحاول أن أنزعه من شعرك .. أو على الأصح لم أستطع فلقد شملت من شعرك عبقاً عجيباً .
ومرة أخرى أجد منك العجب !

أما قلت إن العجب كان في نفسي !؟

مرة أخرى أجد بك ما يختلف عن جميع البشر .. فكما وجدت في يدك ، وأنا أمسها بشفتي شيئاً آخر غير ما وجدته في بقية الأيدي .. كذلك وجدت في شعرك ، وأنا أمسه بأنفي شيئاً آخر لم أجده في سواه من الشعور .
وأخذت أستنشق منه شهيقاً بطيئاً طويلاً .. كأنما أود أن أعب كل ما به من

غير في نفس واحد .. كأني الصادى الظامىء يجرع الكوب مرة واحدة دون أن يغادر شفتيه .

وازدددت اقتراباً بوجهي من شعرك وأخذت أحرك أنفى وشفتي خلال ثنياه ، ومست شفتي أذنك وانزلت إلى أسفل حتى لامست العنق فاستقرت عليه ، ثم أخذت تتسلل ببطء على صفحة وجهك متلمسة طريقها خلسة إلى شفتيك .

وظللت مستسلمة مستكينة طوال تلك الفترة حتى اقتربت شفتي من جانب شفتيك فإذا بك قد نفضت عن نفسك غبار الاستكانة ، ثم أدبرت وجهك إلى الناحية الأخرى ونأيت بشفتيك — في فرع — من شفتي .
وبعد أن تجبت شفتي التقت أعيننا ، وقد استيقظ كلانا من نشوته .. ولحت على وجهك مظاهر ألم وهتفت متوسلة في شبه همس :

— أرجوك .. كفى .
وأحسست من ألمك ألماً أشد ، فقد كرهت أن أسبب لك ألماً أبداً كان نوعه .
وقلت لك :

— أنا آسف !

وهززت رأسك ببطء وعيناك ترمقاني في رغبة مكبوتة يطويها الألم ، ثم همست باسمي .

وأحسست من هتافك باسمي برجفة .

لقد كان هتافك ، أعجب من مسة يدك ، وغير شعرك
هتفت باسمي لأول مرة ، هامسة في الظلام ، بلهجة خليط من الرجاء والاستدعاء ، واللهفة والتوسل ، والتمنى والحب .

هتفت باسمي .. مجرداً .. وكأنك تقولين بأعمق آيات الإخلاص

« أحبك » .

ولم أشعر إلا ، وأنا أهتف باسمك بنفس لهجتك الحارة العميقة ، وأعدت

هتافك .. فأعدت هتافى .. وظللنا تبادل الهتاف .. كل منا ينادى باسم الآخر .. وهو يرنو إليه بنظرة ملتزمة ملتببة لهفى ..

وعلى غير إرادة منى وجدت شفتى تمتدان مقتربتان ببطء من شفتيك .. ولم تحاولى أنت تنحيتهما ، بل ظللت موجهة إلى وجهك .. وأنت تهتفين باسمى ، وشفتاك غير مطبقتين .

وأخيراً مسست شفتاى شفتيك .. مساً لا كمس القبل .. بل مس مشدوهين مذهولين مسحورين .. فمس القبل يكون بضغط الشفاه مطبقة .. ولكننا لم نضغط ، ولم نطبق ، بل كان كلانا فاغراً الفم مفتوح الشفتين .. ولم يكن اقتراب شفاهنا عن إرادة أو عمد أو رغبة فى القبل .. بل كان ناتجاً عن قوة جذب قاهرة لا سيطرة لنا عليها ولا قبل لنا بمقاومتها .. فظللنا متقادين إليها .. وهى تدفع شفتى كل منا إلى شفتى صاحبه .. حتى تلاقت الشفاه .. لقاء غير منطبق .. بل لقاء متداخلا كأنه العناق .

ولم نلبث فى اللقاء .. أكثر من لحظة خاطفة ، وجدتك تسحين شفتيك وتديرين وجهك إلى الناحية الأخرى ، وقد بدا عليك ألم عميق .

وبعد فترة راحة .. عادت شفتانا إلى التماس .. صامتة متداخلة .. ثم عدت تتحولين مرة أخرى .. وفى هذه المرة .. رأيت الدموع تنساب من مقلتيك .. ثم سمعتك تغرقين فى بكاء وتقولين :

— دعنى .. أرجوك .. إنك تعذبى !

وأمسكت يدك ووضعتها على شفتى وسألتك ، وأنا أحس بألم مرير :

— ماذا يجزئك ؟ وعلام البكاء ؟

وصمت برهة فمالكت فيها نفسك وجففت دمعك ، ثم قلت لى :

— أهنأك ألم للإنسان من أن يجد أقصى أمنيته بين يديه ولا يستطيع مسها !

أحس بك ملء يدي ، ومع ذلك لا أستطيع أن أقربك .. لأنك لست لى ولن تكون لى .. إلى لا أملك فيك شيئاً .

ولم أستطع إلا أن أجيبك مخلصاً :

— إنك حقاً لا تملكين الشيء الملموس المحس .. لا تملكين الجسد ولكنك تملكين القلب والروح ؛ تملكين الإحساس الجارف المندفع نحوك ؛ تملكين الشعور الفياض الملتهب المحيط بك والمفرقك في عبايه . إنك لا تملكين ما يملك باليد ، أو يرى بالعين ، ولكنك تملكين ما يحس بالروح . إنك تملكين اللب والجوهر ، تملكين كل شيء .. إني لك بحقيقتي .. بباطني .. لك إلى الأبد ، وبلا قيد ، ولا شرط .. فلا قيد هناك يمكن أن يوضع على الروح والقلب . ورأيت السعادة تغمر وجهك .. وهمست ، وأنت تسندين رأسك علىي وتمسحين بشفتيك كفتي :

— إن ما أملك هو الأفضل والأبقى .. لئنه يدوم لي إلى الأبد .. إنه أقصى ما أرجو من دنياي .

وبعد فترة صمت قلت وأنت تهمين بالنهوض :

— أظن يجب أن أعود الآن إلى البيت .. كم الساعة الآن ؟

ورفعت الساعة إلى عيني محاولاً قراءتها في الظلمة وأجبتك :

— الساعة السابعة .

— الساعة ؟!! لشد ما تأخرت .. يجب أن أعود إلى البيت بسرعة .

— أستطيع أن أوصلك بعربتي ؟

وبدا عليك التردد برهة ، ثم قالت :

— على أن تدعني أنزل بعيداً عن البيت .. خشية أن يرانا أحد ؟

— كما تشائين ؟!

وغادرنا مكاننا متجهين نحو السيارة ، وجلست إلى عجلة القيادة واتخذت

أنت مجلسك ملاصقة لي .. واتجهنا إلى بيتك في الطريق المقفر المظلم .

ولم يكن بيتك يبعد .. ولقد ساءني ذلك .. كما لا شك قد ساءك ، فقد

سمعتك تهمين :

— ليتنا نسير بلا توقف !.

— إلى أين ؟

— إلى أقصى الأرض .. بل إلى ما بعد الأرض .. إلى السماء .. إلى ما لا نهاية .

وأسندت رأسك على كتفى ، واحتويتني بذراعيك .. وأصابني من عناك رجفة ، وأنا ممسك بعجلة القيادة ، حاولت أن أمس شفتيك بشفتي ولكنك قلت لي :

— أرقب أمامك . وإلا نصطدم .. دعني أسترح على كتفك .. إني سعيدة هكذا .. بل ما أحسست بسعادة أكثر من الآن .

وقبل أن نصل إلى بيتك توقفت السيارة ونزلت منها وحشت الخطى إلى باب البيت .

وعدت إلى البيت وأنا أحس بنشوة يخالطها نوع من الحزن عجيب ، نشوة من حبك .. وحزن على فعلى الطائش الأحمق .

ما هذا الذى أنا مغرق فيه .. مندفع إليه ؟

أى مخلوق عجيب أنا ؟ .. كيف اندفعت إلى حبك .. وتركتك تندفعين إلى حبي ؟.

أنت نفسك كنت فى حيرة من أمرى ! .. وشك من مشاعرى !
كنت تظنين أنى أتسل بك ، كما تسليت بغيرك ولم تصدق قط فى مبدأ الأمر أنى أحبك حقاً ، حتى لقد قلت لى ذات مرة أن صديقتك قالت لك محذرة وهى ترى اندفاعك نحوى :

— إنك تلعبين بالنار .

فقلت لها متحدية :

— إني أحب اللعب بالنار .

فعاذت تقول ساخرة منك ومن قولك :

— إنه يتسلى بك .

فاستمررت في التحدى بحية :

— وأنا أتسلى به .

ولقد كان الأمر فعلاً ، يجب ألا يعدو التسلية . أنا أتسلى بك كفتاة حلوة ، وأنت تتسلين لى ككاتب تعجيبين بكتابته .

ولكننا لم نقف عند حد التسلية . فمن كان المخطيء منا ؟

لقد كنت أنا في الواقع الأكثر خطأً .. ومع ذلك فقد كنت أقل منك إحساساً بالورز .. بل إنى ما أحسست به قط إلا بالنسبة لك ، فقد كنت دائماً أخشى عليك من نتائجه .

كنت لا أحس بالورز لأنه لم يكن المرة الأولى أن أرتكبه .. بل لقد تعودت مباشرته حتى خرج من نفسى عن نطاق الأوزار .. وصار شيئاً طبيعياً .. أباشره كالطعام والنوم والسير .

أفى ذلك عجب ؟! طبعاً .. فيه عجب ! .. ولكنى لو حللته .. وفسرت أسبابه .. لما بدا فيه أى عجب ! .

إن كل وزر له عند مرتكبه تحليله ومسبباته .. وإلا ما أقدم بشر على وزر .

أنا مخلوق — كما قلت لك — ذو قلب غير طبعى .

ألا تذكرين عندما قلت لى مؤنية :

— إن حبيباتك كثيرات . إنك لا تكف عن الحب قط ؟

فأجبتك :

— إن النحلة تنتقل بين الزهور تمتص رحيقها لكى تخرجها لنا عسلاً ..

وكاتب الحب .. لا بد أن يمتص رحيق الحب .. لكى يسكبه على الورق مشاعر

مرهفة .. كيف أكتب عن الحب .. إذا لم أحب ؟

إن تركيب البشر يختلف فيعض الناس يغلب فيهم مركب البغضاء ، والبعض

يغلب فيه مركب المرح أو الحزن ، فتجد الأول يفيض بالبغضاء ، فهو يستطيع أن يكره عشرات الناس دون أن يتفد معين كرهه . والثاني يستطيع أن يضحك ولا يكف عن الضحك ، والثالث يفرق في حزن إلى ما لا نهاية .

أما أنا فيدولى أن مركب الحب قد غلب في نفسى كل ما عداه .. فأنا أستطيع أن أحب وأحب ، فلا معين حبيب ينضب .. ولا أنا أشبع من الحب . بل إنى لا أستطيع أن أعيش لحظة بغير حب ، بما فيه من متعات وآلام وكسب وخذلان ، وانفعالات مختلفة متناقضة .

تلك هى طبيعة خلقى .. مخلوق مثالى زاهد فى كل مباهج الحياة .. عدا الحب .

أبعد هذا أعتبر حبيبى لك وزراً ؟

ولكن ألست زوجاً ؟ ألا يعتبر حبيبى لك خيانة لزوجتى ؟ لو أتينا للواقع لوجدنا أن حبيبى لك أمر مصلح مفيد .. قد يكون فى حد ذاته خيانة .. ولكنه خيانة طاهرة بريئة (إن صحت التسمية) .. قد وفر على بضعة خيانات غير بريئة ولا طاهرة .

أهذا أمر أكثر عجباً ؟

لا شك فى ذلك .. ولكن لو فسرتة أيضاً لبطل عجبه !

أولا .. نبحت قبل كل شئ عن حقيقة علاقتى مع زوجتى .. إنها قد باتت مجرد صديقة .. لا أقل ولا أكثر .

عشر سنوات قد ضممتنا رابطة واحدة .. بدأت بالحب ثم انتهت بالزمالة ، والصدقة .

لا تغيير ولا تبديل .

عشر سنوات يظننا سقف واحد .. وحياة واحدة .

عشر سنوات .. بلا بنين ولا بنات ، ولا شئ جديد يذهب هذا الروتين المنتظم فى حياتنا .. ويذهب بذلك الملل الجاثم والتكرار المستمر .

ولست أدري أحقاً سبب هذا الملل .. عدم وجود البنين ؟ أم تراه مجرد علة
اعتذر بها عن حالتى بالذات ؟

إني أعرف غيرى ممن أنجبوا بنين وبنات .. ليسوا بأكثر منى استقامة ولا أقل
خطايا .. بل إنهم يجعلون من الذرية مبعثاً لضيقهم وضجرهم .. ومبرراً
لزلاتهم .

على أية حال إن العلة فى نفوسنا .. ولقد قلبت مائة مرة : إن الزوجية ليست
خير حل لمشكلة الرجل — الطبيعى — العاطفية أو الجنسية .. بل إنها ليست حلاً
على الإطلاق .

وقد أحاول فى بعض الأحيان .. عندما أبحث عن مبررات لعدم استقامتى ..
أن أرجع بعض الخطأ لزوجتى نفسها فأقول إنها قد تكون طيبة لطيفة ودودة ..
ولكنها دائمة المرض والهزال .. خالية من الحياة والحرارة .

ولكن حتى هذا أجده عذراً واهياً .. فأنا أعرف رجالاً .. زوجاتهم
صحيحات سليمات وبهن ما يكفى من الحياة والحرارة . ومع ذلك .. يبحثون
عن الحياة والحرارة خارج بيوتهم !

ثم .. أية زوجة .. بها حرارة وحياة ؟!

إن الزوجات الطبييات يفقدن حرارتهن وحياتهن بعد شهرين من الزواج .
وكل فتاة مخدوعة فى نفسها .. تقول إنها ستعرف كيف تحتفظ بزوجها ، فإذا
ما تزوجت لم تكن خيراً من بقية الزوجات ، حتى أنت !
ألا تذكرين ما قلت لى :

— إني أعرف كيف أحفظ بزوجى .. ولو تزوجتك لعرفت كيف أحفظ
بك .

— لا أظن .. إننى رغم ما أحس لك من حب جارف فياض .. لو تزوجتك
قد لا تكونين خيراً من زوجتى ، وقد يخبو حبنى المستعمر بعد بضعة شهور .. وقد
أبحث بعد ذلك عن أخرى أحبها كما أحبك الآن .

قلت لك هذا بصراحة . وقلت لك إلى أحب زوجتي وأحترمها وأقدرها وأؤدى لها كل ما على من واجبات عدا الحب المستعر الملهب . ولست أظن هذا من واجبات الزواج !

وهكذا ترينى بذلك القلب المرهف غير الطبيعى .. والنفس الفاتنة الهائمة الحاملة .. والبيت الفارغ إلا من الملل والتكرار . والزوجة الهادئة الطيبة الهزيلة المريضة ، المحاولة القيام بواجباتها والتي قمت لها بواجباتي خير قيام .. بهذا الوضع وتلك الطبيعة .. أخذت أحمى عن جادة الصواب .. وأميل مع الهوى .. حتى بت ذا حياتين : حياة مستقيمة غير طبيعية .. وحياة غير مستقيمة طبيعية .

وأنت تعلمين أنى لست بعريد .. ولكن قلبى هو المستتر العريد .. وساعدتنى ظروفى — ككاتب وكمخلوق لا بأس بمظهره — أن يهوى للقلب العريد .. وفرة من الراد والشراب .. فبات متخماً من فرط الأحباء .. فلما لقيتك كان لدى منهن — على ما أظن — ثلاثاً أو أربعاً .

فماذا كان تأثيرك .. عليهن ، وعلى القلب العريد ؟

أقول الحق لقد كنت لى خير مصلح ، ومقيم ، ومهذب .. حتى لقد عجب صحبى .. كيف حدث لى هذا ، وكيف أصابنى الزهد فيما كنت عليه أتلهف ؟ وكيف بت أغض البصر عما كنت إليه أتوق ؟

وهكذا استبدلت بعدة الخيانات التي كنت أباشرها خيانة واحدة هى علاقتى بك ، وهى علاقة سامية شريفة بريئة .

وأنا لم أكن أعتبر عدة الخيانات وزراً . فمن باب أولى لا أجد فى الخيانة الواحدة — البرية الطاهرة — أى وزر .

ولكنها مع ذلك كانت تقلقنى قلقاً شديداً ، وكانت تسبب لى فى كثير من الأحيان حزناً عميقاً .

لقد أحبتك حقاً .. حباً صادقاً عجبياً .. جعلنى أترجع فى مشاعرى بين رغبتى فى أن تحبينى وفى أن تنجى بنفسك من ذلك الحب .

كان طبيعياً أن أتمنى حبك لى .. وأن أتلهف على المزيد منه .. ولكنى لا أكاد
أخلو إلى نفسى .. وأفكر فى الأمر تفكيراً خالياً من عامل الأنانية حتى أجدنى
ألمنى ألا تندفعى فى هذا الحب ، وأن يخلصك الله منه .

كنت أحبك إلى هذه الدرجة .. إلى درجة أن كنت على استعداد — وأنا
المفرق فى حبك — أن أتخلى عنه حتى لا يصيبك منه أذى .

ولكن لم تكن هناك جدوى فى محاولة التخلص أو التراجع .. ولو كانت هناك
جدوى .. لتراجعت أنت .. فقد كنت أشد منى شعوراً بالوزر .. رغم أنك —
فى الواقع — أقل منى خطأ .. لقد كنت فى السادسة عشرة .. ولكن عقلك
ومشاعرك تجزم كلها بأنك فوق العشرين أو الثلاثين .

كنت لا تكادين تجلسين معى حتى أجد ذهنك قد شرد وبدأ عليك الوجوم
والحزن .. فأسألك فى جزع :

— ما بك ؟

— لا شيء !

— لا تكذبى ... لقد طافت بك موجة حزن ؟

— أجل .

— لِمَ ؟

— لأنى أفكر أنه كان ينبغي على ألا أجلس معك .. إنى « بنسَم » عندما أفكر

فى حبيبى لك ، وعلاقتى بك .

— كفى عن هذا الكلام المرير .

— كيف أكف عنه .. وأنا أشعر أنى سارقة .. إنى لم أرتكب من قبل خطأ ..

ولم أتعوّد قط ثقل الضمير .

كنت تقولين هذا .. وأنت الأقل وزراً .. الأخف مسئولية .. فأنت الأصغر

سناً .. والأقل تجربة ، وفوق كل هذا .. خالية بلا زوج !

فماذا أقول أنا .. الأكبر سناً .. الأكثر تجربة .. الزوج !!

وهكذا بت أشعر بالوزر مما لم أعتبره من قبل وزراً ، وكنت أنت وحدك التي
تشعرينني بالوزر .

وعدت إلى بيتي ليلتذاك .. وكنت قد طلبت مني أن أفكر فيك في الساعة
العاشرة كل ليلة .. لأنك ستفكرين في تلك اللحظة ، حتى نستطيع أن نلتقي
بالذهن إذا تعذر لقاء الجسد ، وضحكت وقلت لك :

— لا حاجة بك إلى التحديد .. لأنني أفكر فيك معظم وقتي .. العاشرة ، وما
قبل العاشرة ، وبعد العاشرة .

ولكنك أصبرت .. ووافقت على رغبتك .

وفي الساعة العاشرة بدأت أفكر فيك .. فوجدتها طريقة عجيبة .. للقاء ..
لقد كان التفكير فيك يمتعني ، ولكن التفكير فيك .. في هذه اللحظة بالذات وأنا
أعلم أنك تفكرين في ، وأنت مستلقية على فراشك ترنين بنظراتك اللهفي إلى
الفراغ ، وتهتفين باسمي باللهجة التي هتفت بها أنت بجوارى في الظلمة .. كان
يسبب لي نشوة عجيبة .

وهتفت باسمك هامساً ، وأحسست من فرط التفكير فيك كأننا
متجاوران .

وكان الراقدة بجوارى .. أنت ، وليست زوجتي

زوجتي !!

لشدا ما خنتها بذهني ، وتفكيري .

ولكنني مع ذلك أعوضها عن ذهني الشارد .. بحمدي الحاضر .. إن لك
التفكير .. ولها الأفعال .

إنني أؤدى لها كل واجب ملموس .. لا عن تصنع أو ادعاء .. ولا عن إرغام
وفرض .. بل برغبة ورضاء ، لأنني أحبها وأخلص لها .. بعد كل هذا كأخت ..
أو كأم .. أو كابنة .. أو كصديقة .. أو كأى شيء .. عدا المعشوقة الملهبة
المضنية .

أترانى كنت مذنباً فى حقها ؟ أم ترى هناك ما يبرر دى ، وهو أنى فنان ،
مجنون ، وهى عيلة .. ذابلة ؟

أجل ! هذا هو العذر الشرعى الذى يبرر جرمى فى حبك .. وهو أنى مصاب
بمجنون الحب الدائم ، والقانون كما تعلمين .. أو كما لا تعلمين .. يهين لكل جان
الدفاع بما ينفى عن مسلكه معنى الخطأ بالاستناد إلى الأسباب المانعة كالمجنون
والغيوبة والإكراه .

وأنا كنت فى حبك فى الحالات الثلاث المانعة من المسئولية .. كنت مجنوناً
بك ، ومكرهاً على حبك ، وكنت منه فى غيوبة .

كيف أسأل عن جرمى .. بعد كل هذا ؟

وهكذا لم يكن أسهل على من التخلص من الإحساس بالجرم .
ولست أدرى بعد كل ما قلت .. وبعد ذلك الإسهاب فى التحليل والشرح
والتبرير ، أما زلت أبعد مخطئاً ؟

على أية حال حتى لو كنت مخطئاً فإن خطئى لا شك خطأ طبيعى تبرره
الظروف ، وتسوغه الأحوال والأوضاع .

ألوان من الغيرة

٨

متى التقينا بعد ذاك ؟

أذكر أننا التقينا بضع مرات لم نكن فيها على حدة ، وأذكر أنك أعطيتني أول خطاب حب صريح كتبته إلي ، وجلست ترقبيني وأنا أقرؤه ، ولقد كان في الواقع ممتعاً .. لذيذاً .

ثم التقينا ذات مرة وكنت على موعد مع بعض صاحباتك فأنبأتني أنك لن تستطيعي البقاء معي .. وذهبت للقائهن ، طالبة مني أن أبقي لحظة فقد تعودين إلي .

وكنت واثقاً أنك لن تعودى فأثرت الانصراف .

وفي اليوم التالي وصلني منك هذا الخطاب العجيب :

« كم أود لو أستطيع التعبير عما يجيش في نفسي ، ولكنني أحس أن الألفاظ تخذلني .. ماذا أقول لك ، وأنا أشعر بدونك كالبضالة التائهة ؟ لقد ذهبت بالأمس للقاء صديقاتي فلم أجدهن ، فعدت إليك على عجل وبحث عنك في كل مكان ، وذهبت إلى الموضع الذي تعودت أن تضع فيه سيارتك ولكنني لم أجدها هناك ، ووجدتني أعود وحدي إلى مكان لقائنا بطيئة الخطى مطأطئة الهامة .. وأجلس وحيدة أستعيد همساتك الحنون وعينيك المتطلعيتين إلى في لهفة وشوق . كم أشعر بالأسى والحزن وأنا أجد الفرصة سانحة للجلوس معك بلا رقيب يزعج وحدتنا .. وأنت غير موجود .. لِمَ ذهبت ؟ لِمَ لم تمكث برهة كما طلبت منك ؟ لو بقيت لكنا الآن نجلس متلاصقين وأنا أضع يدي بين يديك فأشعر بالسكينة والدفء .

لماذا لا تأتي ؟ .. إني أناديك بنفس الطريقة التي تحبها ، ولكن ما فائدة أن تنادى شخصاً لا يسمعك ، رغم أنه يفكر فيك ؟ . ولكن هل تفكر في حقاً ؟

هل تذكرنى كل ليلة فى العاشرة ؟ هل تمسك يدى وتهتف باسمى وتدعنى أنام فى هدوء لأمتع بأحلام ملؤها طيفك ؟

لقد أحسست من قبل ببعض « الاستلطاف » لبعض الأشخاص .. ولكن الشعور الذى أحسه لك شعور آخر يختلف تمام الاختلاف .. إنه شعور عميق ملؤه الحرارة والإخلاص .. شعور لن تخبوه على السنين بارقة أو يطفأ له على الزمن أوار .

إنى سأغادرك الآن لأنى لا أستطيع الكتابة .. فأنى فى حالة من الانفعال لا أملك لها دفعا .

وماذا أستطيع أن أقول .. والألفاظ — كما قلت لك — تتضاءل أمام مشاعرى .. هل يستطيع القزم أن يحمل جبلا ؟

كذلك لا تستطيع أقزام الألفاظ أن تحمل ضخامة مشاعرى .. إن ما بداخلى لا يستطاع التعبير عنه . ولكنك أنت قد تستطيع التعبير عنه فى يوم من الأيام إذا قدر لك أن تكتب عني ، فأنت أقدر الناس على فهم الشعور وعلى جميل التعبير . كل ما أرجوه منك هو ألا تنساني سريعا .. أتوسل إليك . إنى لا أستطيع أن أتصور كيف استطعت أن أعيش من قبل بدونك ، وكيف أستطيع أن أعيش بعد ذلك بعيدة عنك ؟ .. حمدا لله .. أن وهبنا العزاء فى الأحلام والسلوى فى الذكريات .

وتلوت خطابك مشنى وثلاث ورباع .. ومازلت أتلوه إلى الآن كلما استبدت بى الشوق إليك .

حمدا لله .. أن وهبنا العزاء فى الأحلام ، والسلوى فى الذكريات .

كان يجب أن أكون أنا القائل هذا .. لأنك .

إنه قد وهبني الأحلام والذكريات .. وهبني فوق هذا القدرة على الكتابة ..

ومع ذلك .. فلا عزاء .. ولا سلوى .

حمدا لله .. والذى لا يحمد على مكروه سواه .

وكان لا بد أن أرد على رسالتك ، إذ لم أكن أستطيع أن أراك قبل مضي مدة .
وترددت برهة في الكتابة . فقد كانت أول مرة أكتب إليك .. وبدأ لي أنى
أمام امتحان .. وخشيت أن أرسب في الكتابة وهى صناعتي . والواقع بأختاه
أنى فشلت فعلا في كل كتابتى إليك .

كيف لا وقد كنت كثيرة الوسوس والشكوك . كنت تنقبين في كتابتى عن
المواضع التى تثير أملك وتبهج شجنك: أما بقية الكتابة الممتعة اللذيذة التى وضعت
فيها كل مشاعرى .. فقد كنت تعتبرها مجرد صنعة ، وكنت نجزمين أنى لا أقصد
منها شيئا .

كنت تعتبرين الإساءة مقصودة .. أما الإحسان فكيف ترينه احترافا ؟ وإنى
أكتبه .. أكتبه .. كما أكتب قصصى !

وبعد تردد ترددت عليك :

« أشعر وأنا أكتب إليك أنى أجتاز امتحانا عسيرا .

إنى لم أتعود قط الكتابة المباشرة ، الكتابة إلى إنسان عزيز أعنيه بالذات . فلقد
تعودت أن أطلق مشاعرى فى كتابتى بطريقة غير مباشرة .. تعودت أن أطلقها
لتكون ملكا مشاعرا لكل قارئ .

لم أتعود أن أخص بكلماتى مخلوقا معينا محددأ .. أكتبها له وحده ، وأسوقها
إليه منظوية فى صحائفها لا تنتهبها سوى عينيه ولا تمسها غير يديه .

لقد قلت فى رسالتك إنك تعجزين عن التعبير بالكتابة عما يجيش فى صدرك
من مشاعر وأحاسيس .. فهل أستطيع أنا الاعتذار بذلك ؟ وهل يقبل منى مثل
هذا العذر إذا أنا اعتذرت به ؟

أنا محترف الكتابة والتعبير .. وتاجر الأسطر والكلمات .

غير معقول !!

غير معقول أن أعتذر بالعجز عن التعبير .. رغم أنى أشعر فعلا بذلك
العجز .. ورغم أنى قد شعرت به من قبل وأنا أجلس بجوارك .. أتأمل فى

وجهك ، وأتفرّس في عينيك .
إني أحس بالقلم تائها بين الأفكار .. وبالأفكار تموج صاخبة في الذهن ..
وبالذهن يتملّل حائراً قلقاً في الرأس .
ماذا أقول لك ؟

بل لِمَ أكتب إليك والحديث غير متعذر .. واللقاء غير بعيد ؟
لِمَ أضع نفسي في هذا الحرج فأمتحن في كتابتي إلى أعز مخلوق كائن في
الواقع .. لا في الوهم ولا في الخيال .
أول سبب يدفعني إلى الكتابة إليك .. أني أود أن أستزيد من لحظات
قربك .. فأنا بكتابتي إليك أعيش معك في لحظات الكتابة ، وأنتقل بك بين
السطور .

أنا أستدعيك بالقلم ، وأجلسك على الورق ، وأناجيك وأهتف باسمك ،
وأرنبو إليك .. وأنت تعرفين كم تمتعني مناجاتك والنظر في وجهك .
والسبب الثاني .. هو إحساسي بأنّي أكثر عجزاً عن التعبير بالقول مني
بالكتابة .. وأنّي — رغم تهيبي الكتابة — لا شك قادر على أن أكتب لك الكثير مما
لم أستطع قوله ، وأن ذلك الشيء المحترن بين جوانحي .. المضطرب في صدري
الذي لم يجد له مخرجاً بالحديث .. قد يجده بالكتابة .. وأن الكلمات الصامتة
الخائرة على شفّتي لن تختار كثيراً على طرف قلمي .

والسبب الثالث .. أني وجدت في خطابك نوعاً من الزاد أتزوّد به في فرتك
وأستعين به على بعدك .. فخيّل إليّ أني لو كتبت إليك فقد أمنتك بخطاى زاداً
تبلغين به ، كما منحتني زاداً أتبلغ به .

أتجديني مبالغاً ؟ .. أم حسن الظن ؟ .. أم ترين تقديري في موضعه ؟
ولكن مالي قد استرسلت في سرد دوافع الكتابة حتى ملأت الصفحات
وأضعت الوقت وأنا لم أكتب إليك بعد .

تري من أين أبدأ الكتابة ؟ .. من أين أمسك بطرف الخيط المشوش المضطرب

من أفكار تموج كاللدوامة .

إني أجد طرفه في رسالتك .

رسالتك العزيزة المجنونة الملتببة الحارة .. التي أكاد أحس منها حرارة عينيك
ترنوان إلى في شوق ولهفة .. وأكاد ألمس فيها دفء راحتك وأشم فيها عير
شعرك .

إنه قولك : « إن ما أحس به لك إحساس آخر .. إحساس عميق . ملؤه
الحرارة والإخلاص .. إحساس لن تخبو له على السنين بارقة ، أو يطفأ له على
الزمن أوار » .

إني أحس بإحساسك .. ولكني لا أجرؤ على مثل قولك .. لا لأني لست
واثقاً منه . بل لأني أخشى غوادر الزمن وأكره تقلباته .

يا حبيبة الروح ! ما خذلنا كالزمن ، وما أضحكنا على أنفسنا مثله .
إننا نجلس الآن في نشوة .. هائمين كالفراشة .. ذائبين من الوجد والصبابة ،
يجد كل منا في عيني صاحبه أقصى أمنيته ، ويصعب علينا أن نصدق ، كيف
عاش أحدنا ما مضى من حياته بغير صاحبه ، وكيف يمكن أن يعيش بعد ذلك
بدونه .. ثم نقسم مخلصين أن الزمن لن يستطيع أن يهت صورة أحدنا من ذهن
صاحبه .. ونقسم ، ونقسم .. ونكتب ونكتب .

وبعد عشرة أشهر — ولا أقول عشر سنين — رغم ضالة هذه وتلك في عمر
الزمن .. بعد عشرة أشهر ننظر إلى ما كتبنا ونستعيد ما قلنا ، فإذا بنا قد صرنا
سخرية أنفسنا .

أنا أكره الزمن ، لأن وظيفته هي أن يحطم مثلنا العليا ويهدم أمانينا الشم
الروائع .

إني أود لو توقف الزمن الآن .. في هذه الفترة العجيبة حيث يصنع كل منا
ذلك النموذج الرائع لصاحبه .. ثم يجلس لعبادته والتأمل فيه ، ويجد في ذلك منتهى
سعادته .

أنا أحبك صادقاً مخلصاً .. وأومن بحبك الصادق المخلص . ولكنى لا أومن بالزمن ، وفعل الزمن .

أنا أكره أن أكتب لك شيئاً يكون متعتك في الحاضر وسخريتك في المستقبل .
إن الزمن الساخر يتحرك .. والحاضر سيجرى في وهاده فيضحي ماضياً ..
والمستقبل البعيد المجهول سيقبل علينا فيضحي حاضراً .. معلوماً .. لا بعيداً ولا مجهولاً .. وأنا أود أن أكون في كل مراحل هذا الزمن المتحرك .. أود أن أكون .. دائماً .. دائماً .. ذلك النموذج السامى الذى تريه الآن .

في لحظة من لحظات ذلك المستقبل البعيد المجهول .. ستكونين زوجة ..
وأماً .. وستنظرين إلى الحياة نظرة جد مختلفة .. وتجدين أن لديك الكثير مما يشغلك عن ذلك الإنسان الذى كان شغلك الشاغل في ساعة من الزمن ..
ستجدين أن لديك أبناء وزوجاً وبيتاً أصبحوا في حياتك كل شيء .

ما دام الزمن يتحرك .. فإن هذا المستقبل مقبل مقبل ، آت .. آت .. وهذه اللحظات التى نعيش فيها الآن ذاهبة ، ذاهبة .. عافية عافية .

في هذا المستقبل المقبل .. كل ما أتمناه .. أن أظل محتفظاً بصورتي المودجية التى ترسمها لى الآن .. وأن تذكرينى كإنسان حساس .. ذائب القلب وألاً تسخرى من حبي لك ، وأنت كما أنت ، وأنا كما أنا ، ذلك الحب الذى نقده الآن فيما بيننا ، والذى نخجل من أن نصرّح به أمام الناس ، أريد منك أن تقدّسيه دائماً .

ذلك هو ما كتبت لك .

وأكثر ما يبعث العزاء في نفسى الآن ، هو أنى كنت شديد القول ، بعيد النظر ، حتى في أشد أوقات حبي جنوناً ونزقاً وطيشاً .

الآن ، وبعد أن تحرك الزمن كما توقعت ، فماذا فعل بنا ؟

لشد ما أعتب عليك يا حبيبة الروح !

لقد محوتنى من ذاكرتك ، وأثبتت في ذاكرة الزمن ، لقد رفعتنى من قائمة

نفسك ، ووضعتك في قائمة الخلود .

بت لا شيء عندك ، وبتنا سوياً شيئاً على الزمن .

ما علينا ، ما جدوى عتاب ، من لا يسمع العتاب ؟

كيف تلقيت رسالتى وقتذاك ؟

لقد أحزنتك الرسالة .. وأنا الذى كتبها لتسعدك .

تبدد كل ما كتبت مع الرياح ، ولم يستقر منه فى نفسك إلا قولى : إننى أخشى الزمن .

وأرسلت نقولين لى إنى لم أكتب الرسالة من قلبى ، وتساءلين فى حيرة :

كيف أخشى الزمن ، وأنت لا تخشينه ؟ أليس لدى من الإيمان بحبى قوة كافية

للتغلب على هذه الخشية ؟ أيمكن أن تكونى أنت واثقة من بقاء حبك على الزمن ،

وأنا غير واثق ؟

عجباً ! عجباً !

أتصدقين الآن أنك قلت هذا ، فى وقت ما ، ترى كيف يقع من نفسك هذا

القول فى وقتنا هذا ؟

مضحك ؟ أم مرير أليم ؟!

عنى أنا ، لست أملك إزاءه إلا أن أقرب شفتى وأهز رأسى فى دهش وذهول .

ولقد خذلتى رأيك فى رسالتى ، وكرهت أن أفشل فى أن أبلغك ما أود

إبلاغه ، وأن تسمى فهمى ، فتظنى أنى أخشى الزمن لأنى غير واثق من حبى .

وقبل أن أرد عليك ، واصلتني منك كراسة ، كتبت فيها قصة أهديتها إلى .

وأقبلت على القصة أقرأها فى شغف ولهفة .

ولم تكن القصة أكثر من قصتنا معاً ، أفرغت فيها على لسان البطلة (التى هى

أنت) كل ما فى نفسك من مشاعر ملتبة وأحاسيس متأججة .

وكتبت فى القصة كيف تعارفنا ، وكتبت عن لقائنا فى ميدان السباق ،

ووصفت تطلع كل منا إلى عيني الآخر طول السباق .

وكانت خاتمة قصتك ألجمة مريرة ، فقد أصبت نفسك بداء الصدر بعد أن نأيت عنى مرغمة يائسة حتى لا تجعلى من حبك عثرة فى سبيلى ، وحتى لا تدمرى به حياتى ؛ وفى الرمق الأخير دفعتك الحنين إلى رؤيتى قبل الرحيل ، فسعيت إلى وقضيت لحظاتك الأخيرة سعيدة بين يدى .

كانت القصة رائعة ، إذ لم تكن تزيد عن مشاعر مخلصه تنساب من نفسك المرهفة العاشقة فى تدفق وقوة .

كانت انعكاساً عما فى قلبك الجياش الزاخر الفياض . كانت شيئاً حياً ، لا أثر فيه لصنعة أو احتراف .

ولم أستطع بعد الانتهاء من قراءتها ، إلا أن أمسك القلم فأكتب لك مرة ثانية قائلاً :

« فى حنين إلى لقائك ، ولهفة على مناجاتك .

وكيف اللقاء على البعد ، والمناجاة مع الفرقة إلا بالكتابة ؟

أفلا أقل من لقاء على الورق . ومناجاة القلم !

إنى لأشعر .. وقد انتهيت الآن من قراءة قصتك التى أهديتها إلى برغبة شديدة فى الكتابة إليك .. وأحس أنى فى حاجة ماسة إلى اختلاس بعض الوقت للتعليق عليها .

إن أول أثر تركته قصتك هو إيضاح جديد لذلك التوافق بين روحينا ، فإن أسلوبك فى السرد تحليل المشاعر والحوار والوصف .. قد أكد لى أنك كاتبة .. فلا عجب بعد ذلك أن تفهمينى ككاتب .. ولا عجب كذلك أن تنسجم روحانا .. ككاتب وكاتبة .

هذا ما تركته القصة من أثر فى نفسى باعتبارها مجرد قصه .

أما ما تركته باعتبارها شيئاً حياً ، أو باعتبارها حياة واقعة كائنة ، فهو كثير .. كثير جداً .

إن قصتك شطران : الشطر الأول .. وهو الواقع الكائن الذى ينبض به

قلبك .. وتفيض به مشاعرك .. والشرط الثانى .. وهو الذى لم يقع ولم يكن ، ولكنه يلوح مهماً غامضاً وراء الأفق البعيد المجهول .

أما الشرط الأول .. فهو كما ينعكس من روحك ، سعيد مورك مزدهر .. ملء كأسه الهناء .. وملء ربوعه السعادة والتعيم .

إنى أحس به كما تحس .. إن صورته المنعكسة من روحى تنطبق تماماً على صورته المنعكسة من روحك .. إننا نلتقى فى كل ما نحس به ، ولو كتبت أنا عنه لما كتبت أكثر مما كتبت أنت .

أما الشرط الثانى .. البعيد المجهول .. فلشد ما نختلف فيه .. إنك ترىنه أسود قائماً .. ولكنى أراه أبيض ناصعاً على الأقل فيما يخص بك .

إنك سعيدة بحبك .. وإنك ضنينة به .. تكرهين له أن يذوى ويذبل ، وتكرهين أن ترى نهاية ذلك الشيء الممتع العذب الذى ملأ عليك حياتك وجعلك تعيشين فى عالم نسج من الزهور والألحان . لشد ما يعز عليك أن ترى نهاية حبك .. ولذا تفضلين — كما رويت فى قصتك — أن تجعلى نهايتك قبل نهايته .. فتصيبى نفسك الناضرة بالذبول قبل أن يذبل هو .. فإذا بك قد ذويت وبقي هو ناضراً على الزمن .

لا .. لا .. حاشاى أن أكون أنانياً إلى هذا الحد الذى أقبل فيه مثل هذه الخاتمة .

أنا أحبك ، وأنت تعلمين أكثر من أى مخلوق سواك كيف أقولها .

أحبك .. هل تسمعينها ؟ .. بقلبك .. لا بأذنيك ؟ .

إنى أحبك وأعتبر أن أول واجب على نحوك هو أن أجعلك أنت هائمة قبل أن أكون أنا هائماً .

أنت ما زلت صغيرة فى مستهل عمرك .. لم ترشفى بعد ما يطيب من كأسك .. ولم تأخذى بعد نصيبك من حياتك الطويلة .

أما أنا فرشفت كأسى .. وحددت مصيرى .. ومن الآن أن أحاول العودة

القهقري لأشارك في كأسك .. وأربط مصيرك الحر بمصيرى المقيد .
إن حبك يمتعنى وينشئنى .. ولكن عندما أجلس وأفكر .. تتابنى تلك
النوبات من الحزن التى رأيتنى فيها ذات مرة .. لأننى أحس بالخوف عليك من هذا
الحب .

إنه يمتعك الآن .. ولكن ماذا سيفعل بك — إذا استمر على حاله — فى
مستقبل الزمن .. المستقبل اليأس الذى لا أمل فيه ؟
أنا لا أخشى على نفسى .. لأننى أشد جلدأ وأكثر احتمالا للشقاء وصبرأ على
الأحزان .

ولكن أنت ؟ .. كيف أتركك تنساين فى حى ؟ وكيف أتمناه منك وأتوق
إليه .. وأنا أعلم أنه كلما ازداد بك .. شقت عليك نهايته ، وقست خاتمته ؟
إن أكثر ما يعزبنى فى حبك كلمة قلتها لى .. وهو أنه يهيك السكينة
والطمأنينة .

إن هذا هو خير ما أود أن أهبه لك .. الآن ومستقبلا .
وما زلت كلما عصفت بى اليأس .. أطمئن نفسى بأننى سأحتفظ بروحك
وقلبك وكل شىء فىك ، حتى أردك هائلة سالمة إلى مصيرك المقبل الناضر
المزدهر .. لكى تواصلى حياتك مع مخلوق يستطيع أن يهيك ما لا أستطيع أن
أهيك إياه .. ثم تذكرينى كذكرى طيبة ومثل أعلى كما ترينى الآن .
لقد قلت عن رسالتى السابقة إنى لم أكتبها من قلبى ، ولست أنكر قولك هذا
ففيه الكثير من الصدق .. لأننى لا أستطيع أن أمنع عقلى من التدخل عندما أكتب
إليك . إنى أكره ترك العنان لقلبى عندما أكتب إليك فهو قلب عرييد لا يعرف
حدودأ ولا قيودأ .. قلب أناثى أحقق مجنون .. لا هم له إلا أن يعب من كأس
حبه ، وينهل ما يشاء من مشاعره .

ولكننى — كما قلت لك — أحبك أكثر من حى . وأكثر من قلبى .. ولذا
أستعين عليك وعلى ، وعلى القلب العرييد .. بشىء ساكن هادئ .. بعيد

النظر ، هو عقلى .
احتمليه الآن .. فعندما يمر الزمن ويصبح الحاضر ماضياً .. ستشكرينه كثيراً .

تلك كانت رسالتى إليك .
رسالة مخلصه صادقة .. رغم أنها قد تكون الآن مبعث هزء وسخرية .. بعد أن قلب الزمن الأوضاع .. فوقاك شر حبك .. وألهبنى بسعير هجرانك .. وحاولت أن أستعين عليك بعقلى .. فخذلتنى شر خذلان ، وتركنى للقلب المهجور المجنون يسقيني من شوقه ككوس العذاب .. ويذيقنى من لهفته مرارة الحرمان .

كنت أخشى عليك وتذاك من حبك لى .. فقد كنت مغرقة فيه إلى حد الإفراط .. ممعنة فيه إلى حد الهوس .. حتى بدأت ألقى منك ألواناً من الغيرة .. لم تكن تخطر لى ببال .

كنت أقاسى من غيرتك — رغم أن الغيرة هى أقصى ما يتلهف عليه العشاق — لأنى كنت أشعر أنها تعذبك ، أو — على حد قولك — تقتلك .
وعلام ؟ .. على لا شئ ! .

لم يكن هناك قطعاً ما يستدعى غيرتك .. ولم يكن هناك أدرى بذلك منى .. فقد كنت مخلصاً إلى أدق حدود الإخلاص .. إخلاص فى النظر وفى التفكير .. إخلاص فى القرب وفى البعد .

وكان أول مبعث لغيرتك .. هو قصصى .. أو على وجه التحديد بطلات قصصى .

كنت تنهين من قصصى وقائع غرام حدثت لى .. وكنت تتخيلين فى كل بطلة معشوقة شغفت بها حباً .
ولست أبرئ نفسى من كل قصصى .. ولست أنكر أن بعضها به بعض

الحقائق .. ولكن لم تكن بهذا القدر الذى تخيلينه .. ولا كان هناك مبرر لأن
ترجعى نفسك بأشياء وهمية .. حتى لو صح بعضها .. فهو لا يزيد على أصدقاء
لذكريات غابرة .

ولكنك اندفعت فى تعذيب نفسك .

ولقد كان يحلو لك هذا دائماً .. فما خلت فترة .. من حيننا .. من إمعانك فى
تعذيب نفسك بشتى الوسائل .

و كنت أول الأمر تعذبين نفسك بتوهمك أنى أهو بك وأتسلى ، وأنى لا أكن
لك حياً حقيقياً .

فلما وثقت من حىي .. بدأت نوعاً آخر من الآلام . وهو آلام غير
موهومة .. فلما دفعت عنك هجمات الغيرة .. بدأت فى نفسك وساوس
القلق .. من أن أتركك كما تركت سواك من أحبت قبلك .. وأخذت أدفع عنك
هذه الآلام فنجحت إلى أقصى حد .. حتى قلت لى ذات مرة :

« مهما فعلت من ذنوب فسيغفرها الله لك .. لأنك أسعدتنى وأذهبت عني
القلق والوحدة .. وملأت روحى بالطمأنينة .. ورويت نفسى الظمأى إلى
الحب .. المحرومة من الحنان » .

ومع ذلك فقد بقيت فى نفسك مشكلة كبرى .. لم أكن أستطيع لها دفعاً ولا
حلاً .

وهى غيرتك من زوجتى .

كنت تسأليننى كيف أجلس معها ؟ وكيف أعاملها ؟ وكيف أحدثها ؟ .
وتلحين على فى أن أجيبك .. فإذا ما أجبتك ... انقلبت حزينة بائسة .

إنى لأذكر ذات مرة وقد جلست تنسجين صديرياً من الصوف وحاولت
مشاكستك فجذبت الإبرة الطويلة من النسيج فانخلت العقدة .. ونظرت إلى
عائبة وأخذت فى إعادة الإبرة إلى موضعها ووجدت إعادتها يستغرق جهداً لم
أكن أتوقعه فقلت لك ضاحكاً :

— لم أكن أظن أنى سأعذبك بهذا القدر !
ورفعت رأسك من الصوف ونظرت إلى نظرة حزينة وقلت هامسة بصوت
ملؤه الأسى :

— ياريت عذابك كله كده !.

وفاجأنى قولك الحزين وتمنيت أن أحتويك بين ذراعى وأضمك إلى صدرى
وأذهب عنك نوعتك وأبدد حزنك .. ولكن لم أملك إلا أن أطأطأى رأسى وسط
الجمع المحيط بنا وأجيبك هامساً :
— أنا آسف .

وكنت أحس من عذابك عذاباً شراً منه .. ولكن لم أكن أملك حياله شيئاً ،
فقد كنت لا أكاد أدفع عنك غيرتك من زوجتى حتى تقولين فى حزن :
— لا تنصح بشيء لم تجربه .. ماذا تفعل لو كنت مكانى .. وأنا أجلس الليل
وحيدة وأتخيلك بين أحضانها .. ولكنى مع ذلك لا أملك إلا أن أحتمل .. على
أية حال دعنا من هذا .. إني آسفة لأنى أزعجتك .. ولكن أعدك بألا أحزن بعد
هذا .

كان أمرنا غريباً .. وبات يزداد على الزمن غرابة .. فلقد كان الحب يتمكن
بيننا على مر الأيام .. وكان كل منا يشعر أنه قد أضحي جزءاً لا يتجزأ من الآخر ،
وأن له حق تملكه والتحكم فيه .. كل ذلك دون أن نعرف لنا غاية ، أو على
الأصح ، ونحن نعرف أننا بلا غاية .

لقيتك ذات مرة فى بيت صاحبك . وكنت أعرف أنك تحبين العزف على
البيانو .. وسألتك أن تعزفى .. فرفضت . وعجبت لرفضك ، ولكنك قلت
لى :

— إني لا أجيد إلا عزف الموسيقى الغربية ، وأنا أعرف من كتبك أنك لا
تحبها ، فإذا ما سمعتها منى الآن ، فسيكون إعجابك بمجاملة ، وأنا أكره أن أسمع
منك بمجاملة ، بل أريد أن تكون كل مشاعرك صادقة عميقة حقة .

ومرة أخرى قلت لى فى نهاية لقائنا :
— لقد قلت لى كلمة ملائنى سعادة ، وجعلتنى أشعر أنك تحبى حقاً ، إنى
أجعلها ذخيرة العمر ، أذكرها كلما همنى هم أو احتوانى حزن .
وسألتك فى دهش :

— وما هى ؟

— لن أقولها لك .

— لم !!؟

— لأنى لو قلتها لك فستفقد قيمتها بعد ذلك إذا ما أعدت قولها لى ، لأنى
سأظن أنك تقولها بمجاملة .
كنت مخلوقة عجيبة تكرهين المجاملة ، وترغبين فى إظهار الشعور الصادق
العميق .

وكنت تقولين لى إنك تحبين فى أنى لم أحاول قط أن أمتدح ثوبك أو أتملق
مظهرك .

وحدث فى ذلك اليوم الذى لقيتك فيه فى بيت صاحبك أن عرضت على
بعض صور لك ، وجلسنا نتسلى بمشاهدتها حتى توقفت أمام صورة لك ، وقد
وقفت تبسمين بحوار فتى وشعرت من الصورة بضيق وسألتك عمن يكون
الفتى ؟

ولا شك أنك أدركت أن لسعة الغيرة قد مستنى
وكنت على حق ، فقد شعرت بالغيرة عليك لأول مرة ، فقد كان إقبالك
المفرط على وحبك الشديد لى ، يجعلنى من حبك فى طمأنينة دائمة ، فلم أشعر
بالغيرة عليك من قبل .

وضحكت وقلت عاتبة :

— هذا صديق لابنة عمى .

— وعلام احتفاظك بصورته ؟

— مجرد ذكرى .

وقلت لك بلهجة الأمر :

— مزّقها .

ودهشت ، وبدا عليك الضيق والتبرم ، فإنك لم تتعودى منى مثل هذه
اللهجة الآمرة ، وأجبت متسائلة :

— ولم ؟

— لأنى أريد أن تمزّقها .

— إنى أكره أن أتلقى أمراً .

— حتى منى ؟

— من أى مخلوق .

وشعرت بالغضب ، وقلت لك أسفا :

— كنت أظن أنك لن تعصى لى أمراً .

— هذا أمر لا مبرر له !

— إنه أمرى وكفى .

— أنا أكره كل أمر .

وأضحت المسألة أشبه بالتحدى ، ولم تكن الصورة تهمنى كثيراً ، ولكنى
كرهت عنادك وقلت لك :

— كان يسعدنى أن ترضخى لأمرى أياً كان !

ثم صمت .. ولم نعد بعد ذلك للحديث فى الصورة ، وعندما حل موعد
انصرافك ذهبت صاحبك لتوديعك إلى الخارج ، وجلست أنا على الأريكة
واجماً .

وعند عودتها أحضرت إلّى قصاصات الصورة بعد أن مزّقها ، وهى تودعك
بالباب .

وأمسكت بالقصاصات فأخرجت منها القصاصات التى بها وجهك ،

فاحتفظت به ، وأرنيته لك عندما التقيت بك بعد هذا ، فقلت ضاحكة :
— كنت أعلم أنك ستحتفظ به .

— وأنا أيضاً كنت أعلم أنك ستمزق الصورة قبل أن تغادرى الدار
هذه كلها صيانيات تافهة .. لست أدري ما يجعلنى أستعيد لها لأنثرها من
الذهن على الصفحات .

إنها تفاهات قد تبدو مملة من كاتب يريد أن يمسك بتلابيب قارئه ، ويحبك له
القصة ، ويطرد عنه السآمة والملل .

ولكن ما لى أنا وللقارئ ، وللقصة ؟
إنى أكذب الآن لك .

هذه قصتى الأخيرة كما قلت لك ، التى يعلم الله إذا كنت أستطيع تميمها أم
لا ، بل إذا كانت ستصل إليك أم لا !

ولكننى مع ذلك أكذب فتلك هى صنعى ، وذلك هو عزائى ، ولا أظن هناك
كائناً من كان يستطيع منعى عن الكتابة .

إنى أعتمر البقية الباقية من حياتى على هذه الأوراق . أعتمر البقية الباقية من
نصف الإنسان ، الراقد على الفراش .

إن الممرضة تحاول منعى ، ولكننى أفهمتها فى قسوة وإصرار أنى لا بد أن
أكذب ، أراد الطبيب أم لم يرد .

وقلت لها :

— إذا كانت الكتابة ستضرنى ، فإن ترك الكتابة سيقتلنى
وهكذا تركونى أكذب .

حمد الله مرة أخرى ، لأنه ترك لى النصف الذى أستطيع أن أكذب به
ترك النصف الأيمن ، وأشل الأيسر

أنا نصف إنسان !!؟

من كان يصدق هذا ؟

أتصدقين أنت ؟!

أتصدقين أن هذا الجسد المتين البنيان المنتصب القامة الذى كان يحتويك بين ذراعيه قد بات أشل عاجزاً ؟!

ولكن علام هذا الحديث عن نفسى !.

عذراً . إني ما قصدته قط .. ولكن القلم قد زل به .

دعينا من الحاضر البغيض .

دعينا منه ولنواصل الحديث عن ماضينا الممتع ، وعن سويعاتنا الحلوة معاً

بداية النهاية

٩

كنت أقول إن كلامنا بات يشعر بتملكه للآخر وحقه عليه ، تملكا صورياً ،
وحقاً موهوماً .. فقد كان كل ما بيننا لا يزيد عن الأحاديث والكتابة ، وكان
أقصى ما حدث هو ما نلت من ذلك التماس بين الشفتين في الظلمة وما سببه لك من
آلام وأحزان .

و كنت دائماً تحاولين تجنب لقائنا منفردين .. كنت فزعة خائفة .
حتى حدث ذات يوم أن دق التليفون في مكتبي ، وسمعت صوتك تسألين
عني في شيء من الوجمل .

وأجبتك في شوق وفرحة ، وسألتك متى أستطيع أن أراك ، وكنت أعرف
أنك — كمعادتك — ستحدد اللقاء عند صاحبك ، وأني لو عرضت عليك
الذهاب للسنيما أو اللقاء وحيدتين في مكان ما ، فسترفضين لأنك تخشين الظلمة
ومس الشفاه .

ولكن لدهشي الشديد أجبت في صوت خفيض :

— تستطيع أن ترائي متى تشاء .

— أين ؟

— حيثما تشاء ، فسأكون وحدي .

— حقا ؟

وقلتها في فرحة شديدة ، ثم اتفقنا على مكان اللقاء والموعـد .
وقبل الموعد كنت في طريقي بالسيارة إلى المكان الذي سألتني أن أنتظرك
فيه ، ولم تمض بضع دقائق حتى أبصرتك تقبلين في خطى عجلة وجلة ، وفتحت
الباب بسرعة ثم جلست بجوارى قائلة :

— هيا بنا .

وانطلقنا .. انطلقنا بكل ما فى معنى الكلمة .

انطلقنا بسيارتنا وبأفئسنا وقلوبنا ومشاعرنا وأرواحنا .

كان الوقت أواخر الشتاء ، وبرودة الجو لطيفة محتملة ، والسحب فى السماء تعدو متلاحقة ، كأن إحداها تمسك بتلابيب الأخرى ، وهبات الريح تنذر بالمطر ، والطريق المؤدى إلى الصحراء قد بدا خالياً ساكناً ..

وأنت .. أنت يا حبيبة الروح .. يا منية النفس الدائمة الخالدة . يا أنشودة القلب فى كل زمان ومكان ، مهما نأيت ومهما هجرت ومهما أسأت .

أنت .. جالسة بجوارى متطلعة ببصرك فى هدوء إلى ما وراء زجاج العربة ، وأنا أرقبك بين آونة وأخرى وقد ارتديت « بلوزة » بيضاء من الأنجورا ، وبدا عنقك من ياقتها المستديرة المغلقة وكأنه عنق تمثال أبدع فيه صانعه ، ورأسك قد استقر على عنقك ، وقد شمع منه سحر عجيب ، وفتنة أخاذة .

وانطلقت من صدرك تهيدة حارة ، ثم تركت رأسك يستند فى استرخاء على كتفى ، وقلت متسائلة :

— إلى أين ؟

— إلى حيث تشائين .

— إلى ما لا نهاية .. اذهب إلى حيث لا نستطيع العودة . إلى أحسن بسكينة كبرى ، واستقرار عجيب . ليتنا نضل معاً ، فإن ضلالتنا سويلاً هو خير هداية فى حياتي .

واندفعنا بالعربة فى الطريق الصحراوى مخلفين وراءنا كل أثر لل عمران والحياة . وتركتنا الطريق إلى جوف الصحراء ، وسط الرمال المنبسطة على امتداد البصر ، واختفى كل شيء عن أعيننا وكل صوت عن آذاننا ، وبت وإياك وحيدين بين السماء والأرض .

وأوقفت السيارة . وعمّ السكون وراء الصمت ، كأن المكان قد أقفر حتى

ونظرت إليك ، ونظرت أنت إلى الفراغ البعيد ، وأخيراً التفت إليّ ،
وهتفت باسمي بطريقتك الذائبة المتوسلة للهفى .
كنت أشعر بظلم شديد إليك ، وما أظن ظمأك كان أقل من ظمئى ومددت
ذراعى نحوك فأحطت بك بهما وضممتك إليّ .
وقلت وأنت تحاولين مقاومة ضمى :
— دعنا نتحدث .

ولم آبه لقولك ، وأخذت أضمك إليّ حتى التصق صدرانا وتماس أنفانا ،
وشممت رائحة أنفاسك الحارة ، فسرى منها إليّ ما يشبه التخدير ، تخدير ممتع
لذيذ ، وأخذت أستنشق غيرها فى نهم عجيب .
ومضت فترة ، وأنا ملصقة طاقتى أنفى بطاقتى أنفك ، كأنى أخشى أن
يتسرب من أنفاسك العطرة شئ إلى الخارج دون أن أحتويه فى صدرى .
وأحسست بك تحركين وجهك حركة خفيفة رافعة ذقنك إلى أعلى حتى
انطبقت شفاهنا .

وأغمضنا أعيننا بلا وعى ، وزدنا شفاهنا ضغطاً حتى تماست أسناننا .
وخلدنا إلى السكون وقد تراخت أعصابنا ، ورحنا فى شبه إغفاءة .
وأخيراً فتحت عينيك وسحبت شفتيك من شفتى ، وفككت حصار يدي
من حولك .

وأخذ كل منا يحرق فى عينى صاحبه وهمست أنت قائلة :
— قل شيئاً .

— كل ما سأقوله سيكون نافهاً إلى جانب ما يزخر به باطنى .. إن أقصى ما
أستطيع قوله .. إني أعبدك .

— وأنا أيضاً أعبدك . إني ملكك وحدك . كم أوحشتنى غيبتك ، وكم
ناجيتك فى سكون الليل . كنت أسألك وأتحيل إجابتك علىّ ، فأرد على إجابتك
الموهومة ، وأظل أتحدث معك كأنك كائن أمامى . ضع رأسك فى حجرى ،
(بين الأطلال)

ودعنى أتحسس شعرك .. دعنى أحقق كل ما تمنيتيه وكل ما كنت أفعله معك فى الأوهام والأحلام .

ولم يكن من الميسور أن أضع رأسى فى حجرك ، ونحن جالسان فى المقعد الأمامى من العربة .. وسألتك أن نجلس فى المقعد الخلفى حيث المكان أكثر اتساعاً .

وكان المطر قد بدأ يتساقط دون أن نحس به أو بالرياح التى أخذت تهب عاصفة عاتية .

وفتحنا باب العربة وانتقلنا بسرعة إلى المقعد الخلفى فانتحيت أنت أحد أركان المقعد ووضعت أنا رأسى فى حجرك ممدداً جسدى على المقعد ، ماداً ساقى على نهاية حافة المسند الأمامى .

وأخذت تخللين شعرى بيدك ، عابثة به ، وقلت وأنت تنظرين إلى وجهى وتحديقين فى عيني من عل :

— إنك تبدو كطفل صغير .. وإنى أحس لك بخنان الأم .

ولم أملك إلا أن أضحك ، فقد كان عجباً أن ينقلب الحال فأصبح أنا الطفل وأنت الأم .. أنا طفل فى الثالثة والثلاثين وأنت أم فى السادسة عشرة !
ومددت أصابعك لتحسسين أنفى وشفتي .

ورفعت أنا يدى على غير إرادة فتحسست بها شعيرات بيضاء نبتت فى فودى ، وقلت لك ضاحكاً :

— أيتها الأم الصغيرة الحلوة .. ألم تلاحظى الشيب الذى قد دب فى فودى طفلك .. ما رأيك فى هذه الشعيرات البيضاء ؟

وأخذت لتحسسينها برفق بأصابعك .. وهتفت فى لهجتك الذائبة :

— إنى أحبها .. وأحب كل شئ فىك .. دعنى أقبلها .

وانحنيت برأسك فوق رأسى ، وأخذت تقبلين فودى فى شوق وحنان وأنت

تهمسين :

— سأقبل كل شعرة فيها . إني أعبدك . أعبدك وأعبد كل شيء فيك .. كل ما بك يستحق العبادة .

ما كان أعجبك وأعجب حبك .

إني ما لقيت في حياتي .. أعذب من حبك ولا أشهى ..

أجل يا حبيبة الروح . ما أحبنى أحد كما أحببتني أنت . ما أظن إنساناً قد أحب إنساناً كما أحببتني .

كان حبك أروع وأجل من كل ما كذب عن الحب والعشاق .

كيف لا وأنت تهمسين في صوتك الذائب جداً :

— لن تستطيع أن تعرف الآن كم أحبك .. من العيب أن أحاول وصف مشاعري لك .. ولكنك قد تعرفها على حقيقتها في زمن ما .

زمن ما !! .. أى زمن ؟! لشد ما خذلنا هذا الزمن . لعنة الله عليه .. وعلى كل من توقع منه خيراً .

وسألتني أن أحدثك كيف أحببتك .. ولم يكن هناك أمتع عندي من هذا الحديث .. فاندفعت أقصه عليك .

وبين آونة وأخرى كانت الأذرع تلتف في شوق .. والصدور تتلاصق في هفة .. والشفاه تنطبق في شدة .. والأعين تغمض في رفق .. والرعوس تغفى في نشوة .

إننا لم نمل الحديث .. ولم نمل القبل

لقد قبلتك يومذاك .. حتى التهب شفتاك .

وحلت بنا الظلمة ونحن عنها ساهيان .. وبدا عليك الوجوم والحزن وأنت

تقولين :

— كم أكره الفرقة .. ترى كيف تكون آخرة حينا ؟ ووددت لو غادرنا الحياة

معاً ، وخلفنا الدنيا بمرارتها وسيئاتها ..

تلك كانت أمنيته وقتذاك .. أن نجتمع كموتى بدل أن نفرق كأحياء .

ولكن لم يكن من الفرقة بد .. فافترقنا أخيراً .

وفي اليوم التالي وصلني منك خطاب .

كان خطابك هذا بمثابة تسليم بالواقع .. ورضاء عن كل ما حدث بيننا .

كان خطابك يجرم بأنك لم تندم على لقاءنا قط ، وأنت قررت راضية أن

نمتنع بحبنا على وضعه اليأس الذي لا يتيح لك أملاً في المستقبل ، والذي لا يبيح
لك إلا متعة حاضرة وألماً متوقعاً .

لقد قررت فيه أن تقبليني كما أنا بعد أن أحسست أن ليس هناك من يستحقك

ويستحق حبك .. أكثر من هذا المخلوق المقيد إلى سواك .. لقد عزمت على أن

تندفعي إلى أحضان صامة أذنك إلا عن صوت قلبك .

والتقينا بعد ذلك بضع مرات .. في نفس المكان ونفس الموعد ، وظللنا

نرشف من النعيم ، حتى وصلتني منك رسالتك التي أستطيع أن اعتبرها بداية

النهاية .. والتي تبين أقصى الصعود في علاقتنا ثم تشير إلى بدء الهبوط .

كانت رسالة حزينة قلقة شاكية .. بدأتها بأنك تلجئين إلي كصديق .. لأنك

في أزمة نفسية حادة ، وأخذت تعددين مسببات ضيقك وحزنك وألمك ..

وكان أعجب ما فيها — بالنسبة لي على الأقل — هو أن إحدى بنات عمك تثقل

عليك بإخبارك أنها رأت صديقاً تعرفت به في بعض المناسبات يصاحب هذه

الفتاة أو تلك .. كأنما هذا الصديق يعنى شيئاً لديك ، أو كأنها تحاول أن تدخل

في روعك أنك تحببه .. مع أنه لا يعنى لديك شيئاً .. ثم أخذت بعد ذلك

تحدثين عما يثقل ضميرك قائلة :

« إني في حاجة إلى إنسان أفضى إليه بدخيلة نفسي .. إنسان يفهمني .. إني

أشعر بثقل الضمير ، ولست أريد أن أسبب لك إزعاجاً .. ولكنني واثقة أن

ضميرك أيضاً يثقل عليك كما يثقل ضميري علي ، فحساب الضميرين مشترك

بيننا . كم أتمنى ألا أغضبك بقولي .. وكم أتمنى أن تساعدني على فعل الصواب ،

وعلى تجنب الخطأ .. إني أود أن أكون في باطنى بريئة مستقيمة ، كما أبدو أمام

الناس ، وكما يعتقد فتي كل من يعرفني ، دعنا نكف عن اللقاء وحيدين .. إننا نستطيع أن نمتنع بلقاءنا عند صاحبتى وفى الحفلات وبين الصحاب .

« إني أعرف أنى — برغبتى هذه — أحرم نفسى وأحرمك من متعة كبرى لا نستطيع تعويضها .. ولكن لا تنس أننا نرتكب خطيئة بمجرد إحساس كل منا بحب الآخر .. إن حبنا المستتر فى القلب خطيئة ، ولكنها خطيئة لا قبل لنا على دفعها ، فلماذا نضاعفها بارتكاب أشياء نستطيع تجنبها والحياة بدونها ؟
« دعنا نكون أمناء بالقدر الذى نستطيعه .. أمناء على الأقل فى الظاهر .. ما دمنا لا نستطيع أن نمنع خيانة قلوبنا .

« ليتك تقبل رجائى وتساعدنى عليه بصدر رحب ، وبفرحة المقدم على واجب لا بد من أدائه لا بأسف المقدم على حرمان نفسه من لذة ممتعة .

« لقد كتبت قصة جديدة أرسلها إليك عليها تعجبك كمجرد « قصة » .. أو على الأصح كمجرد محاولة « قصة » ، لقد كتبتها لمجرد التسلية ، ولأبين فيها قسوة الحياة وضعة البشر ، ولست أقصدك بالطبع ضيقهم .

« والقصة بالطبع غير واقعية ، فأنا لا أكن لبطلها أى إحساس ، وما شعرت له بأكثر مما شعرت لأى صديق ، أو صديقة ، إنه مجرد غرأ حق لم يكن من الذكاء بحيث يستطيع خداعى .

« وإنه ليسرنى أن تؤملك القصة ، وأن تحس منها بعض الضيق حتى تدرك كيف أشعر ، وأنا أقرأ قصصك الغرامية الواقعية ، رغم أنى لم أقصد بها قط إيلاملك .

« أنا أعلم أن رسالتى هذه ستؤثر فى نفسك كثيراً .. ولكنى مكرهة عليها لأنى فى حالة نفسية مزعجة .

« إني أشعر الآن — بعد الكتابة — بشىء من الراحة بعد أن أفرغت ما فى صدرى .. شكراً على إنصاتك لى .. وتقبل أعظم حبنى » .

أعمق حبك !!

من أين أتقبله !!؟ من هذه الرسالة !!؟ أمجنونة أنت ؟
 أعتقدين حقاً أنه يبدو منها حب عميق . أم تحول عجيب ؟
 إني أستطيع أن أقرأ ما وراء الكتابة .. بل وما وراء ذهنك .
 إنك حزينة لأن ابنة عمك أخبرتك أن صاحبك (الذى تؤكدين أنه لا يعنى
 لديك شيئاً) قد أبصرته مع هذه الفتاة أو تلك .
 ماذا يحزنك من ذلك وهو لا يعنى لديك شيئاً ؟ .
 وهذه القصة التى كتبها لثورتك على البشر .. ولإرضاء نفسك الساخطة
 عليهم .

لِمَ تثورين عليهم ، إذا كان الرجل الذى تعبدينه ، مازال يعبدك ؟ . وأى رجل
 هذا الذى تكتبين عنه قصة ؟ رجل تدعين أنك لا تكنين له إلا إحساس صديق ..
 ثم تقولين بعد ذلك إنه لم يكن من الذكاء بحيث يستطيع خداعك ؟
 إنك تدعين أنها ليست حقيقية .. ثم تعلنين عن رغبتك فى إيلا مى .
 ما كل هذا الخلط و « الكركبة » و « اللخبطة » .
 وما الذى حرك ضميرك وأنت المعلنه عن أقصى رضائك بما كان بيننا ؟!
 أترى قد جد جديد فى مشاعرك ؟!

قاتل الله الوسوس والشكوك .. لقد بدأت أحس بالغيرة القاتلة .
 ومع ذلك — ورغم ما فى رسالتك من بواذر إزعاج — فقد تقبلتها بمنتهى
 الهدوء .. وقلت لنفسى : إنك لا شك مضطربة .

ولم يضايقنى من رسالتك رغبتك فى عدم اللقاء وحيدى فقد كنت — رغم
 متعنتى بلقاتك — أكره أن أسبب لك متاعب أو مضايقات ، وكنت دائماً على
 استعداد تام لأن أضحي بكل متعة فى سبيل إرضائك وطمأنينتك .

وعلى ذلك فقد تقبلت عرضك عن طيب خاطر ، وقلت لنفسى إني أستطيع
 أن أقنع منك حتى بمجرد التفكير فيك ما دمت واثقاً من صدق مشاعرك .

ولكن ما أزعجنى هو ضيقك من حديث ابنة عمك ، وأزعجنى أكثر من هذا .. قصتك .. التى كتبها على سبيل التسلية — وأنت مفرقة فى حبي — عن شخص آخر .. كل هذا طاف بذهنى وأنا لم أقرأ القصة بعد .. طاف بذهنى من مجرد رسالتك .

وقبل أن أقرأ القصة أسرع بالكتابة إليك محاولاً جهدى إزالة أحزانك .
قائلاً لك : إنه يكفى أن تفكرى فى حبي لك حتى تزول كل أحزانك ، وأنى كنت أعتقد أنك مثلى ، يكفى مجرد التفكير فى لتبديد كل المتاعب والهموم ، وعابتك قائلاً : إني ظننت أنى أحتل فى قلبك موضعاً يهبى على طرد كل ما به من أحزان وأشجان .

وخيل لى أن كتابى سيضع حداً لحالتك هذه ، حالة التوتر والحزن . ولكنى وجدت أن رسالتى ، ككل رسالة كتبها لك ، قد فشلت فى تأدية غرضها ..
وأنا سببت لك إزعاجاً فوق إزعاج وأنا على حد قولك : رؤعتك .
وليس أدل على ذلك من رسالتك نفسها التى رددت علىّ بها .
كانت رسالة عنيقة حارة ملتبة نائرة ، قلت فيها :

« لقد أوجعتنى رسالتك ، بل قتلتنى قتلاً ، ومزقتنى من الداخل إرباً .. لقد استدرت الدمع من مآقى ولو تركته لانهمر كالطرر ، ولكن كان لا بد من التجلد والتماسك ، فإنى لم أكن وحدى ، وإنى لم أعد بعد صغيرة ، ويجب أن أكتب مشاعرى وأخفيها فى باطنى .

لماذا تحدثت ؟ وما هذا الذى قلت ؟

« كيف تشعر أنك لست أهلاً لمنحى السعادة والسكينة التى أحتاجها ؟ هلا تعرف أن هناك بعض المنغصات فى حياتنا لا يستطيع إزالتها إلا مسبها ؟

« كيف تجسر على التشكك فى موضعك من قلبى ؟ كيف تجسر على ذلك ؟

أجننت ؟ أتقول ذلك وأنت فى وعيك وتمام عقلك ؟

« لشد ما قسوت علىّ بقولك هذا ، ولشد ما عذبتنى به .

« هل تستطيع أن تتصور حالى من الألم والعذاب ؟ أنت تدرك تماماً مبلغ حساسيتى !

« وإنما قد تكون أنانية منى أن أفكر فى نفسى أولاً ، ولكنى معذبة موجعة .
« إني أهتف باسمك كما تعودت أن أهتف . استمع إلى فلا شك أن هتافى واصل لأذنك — أو كما تقول أنت — لقلبك .

« صدقنى يا حبيبى وثق بى ، لقد كتبت لك ما كتبت فى رسالتى السابقة كصديق ، فالصديق هو الذى نلتمس معونته إذا ما أصابتنا شدة ، فهل يعنى ذلك أنى لا أحبك ؟

« هل يعنى ألا أحبك مجرد كونى فى حالة نفسية لم تساعدنى على مخاطبتك كما يتخاطب الأحياء ؟

« وما الحب ؟ أليس هو — قبل كل شيء — صداقة خالصة لا تشوبها شائبة ؟
« يا حبيبى . إني أتعذب . إني لا أستطيع الكتابة ولا أستطيع التفكير لأنى أكاد أجبن ، لقد شككت فى حبى من مجرد قراءتك الرسالة .. شككت فيه وأنت لم تقرأ تلك القصة الحمقاء بعد ، فماذا سيحدث إذا ما قرأتها ؟
« ويحى ! إني أخشى أن تلف كل شيء .
« ماذا أفعل ؟

« ولكن ، ليحدث ما يحدث ، إذا لم تثق فى حبى ، فلست أهلا له .
« ماذا كتبت لك حتى تقول لى إن موضعك لم يعد كما هو ، وماذا أفعل لأثبت لك أنى لم أغير ولن أغير ؟

« إني لا أستطيع أن أرغمك على الثقة بى ، فلن تتبع إلا وحي قلبك ومشاعرك .. إني لا أملك إلا التوضيح والرجاء ، وعليك أنت أن تفهم وتقبل .
« ألا تثيرك أنت بعض مضايقات فى عملك أو فى بيتك ؟ لم تأبى على أنا أيضاً أن أثور وأتضايق !! أتأبى على أن يزعمنى إلحاح ابنة عمى السخيفة وملاحظاتها الثقيلة التى تريد أن تثبت بها أنى مشغوفة بصاحبها الصبى الأحمق .

« ألا يضايقنى هذا ؟! أيعجبك أنت أن يظن أى إنسان أنى أعبره أدنى التفات ؟

« إنى واثقة أنه لن يعجبك .. أفلا أكون على حق إذا أنا غضبت أو ثرت ، لأنى لا أحب سوى مخلوق واحد هو أنت ولا أريد من أحد أن يعرف أنى أحبه ، إلا أنت ؟

« هل هناك ، ما أستطيع قوله أكثر من هذا ؟

« وهل هناك طريقة أخرى لتفسير مشاعرى ؟

« إنك تعرفنى جيداً ، وليس هناك من يستطيع فهمى أكثر منك .. إنى لا مضيرنى قط أن أخبرك بكل ما فعلت فى حياتى لأنه ليس به ما يشين ، ولأنى أعرف أنك واثق من موضعك فى قلبى ومن قيمتك عندى .

« وأرجو بعد كل هذا أن تبعد من ذهنك هذه الوسوس وأن تذكر أن هناك أشياء قد تحزنك ولا يفلح حى لك فى تخلصك منها . وكذلك أنا .. وليس يعنى ذلك أنى لا أعبا بك أو أنه لا قيمة لك عندى .

« إنها المرة الأولى أن أصاب بأزمة نفسية وألجأ إليك بحثاً عن المعونة والسكينة .

« لقد دفعنى توتر أعصابى إلى الشجار مع إحدى الصديقات فى هذا الصباح . ولكنى لم أكد أتسلم رسالتك حتى نسيت الصديقة ، ونسيت شجارى معها ، وأحسست بالسعادة والهدوء .. تلك هى إحدى الحالات التى يجدى حبك فيها ؛ والتى يستطيع معاونتى على التخلص من أحزانها .

« أما إذا كانت رغبتى فى عدم لقائنا وحيدى هى التى دعتك إلى التشكك فى حى ، فانس كل ما قلت ، واذكر شيئاً واحداً وهو أنى على استعداد لأن أتبعك حيثما تشاء حتى إلى أقصى الأرض .

« يا حبيبى !! إنى لا أستطيع الشرح أكثر من ذلك ، فإذا كنت لم تقتنع بعد كل هذا ، فليس أمامى سوى الاستسلام لسوء حظى . على أية حال ، سأحبك

حتى آخر رمق في حياتي

ونفت بي أم لم تنق .. بقيت على حبي .. أم محوتني من ذاكرتك .. « أنى أحبك » .

ملحوظة :

إني آسفة لأنى قد مزقت رسالتك . لأنى أحسست أنها ستبكينى فى كل وقت أعيد قراءتها . إني أكره أن أمزق شيئاً كتبته أنت ، ولكنى أيضاً أحب ألا أستبقى منك سوى الذكريات العذبة الهنيئة .. أما الحصام والحزن والأسى ، فإنى أود أن يتبدد مع الرياح . ولذا أرجو أن تمزق خطابى الذى أحزنك حتى ننسى كل شيء عن هذا الحصام ونعود .. سعيدين كما كنا .

تلك هى رسالتك !

وأكون مجنوناً سخيلاً مغروراً ، لو طمعت فى أكثر منها ، اعتذاراً وتفسيراً وتوطيداً للحب ، وتأكيذاً للوفاء .

وأكون كافراً أستحق اللعنة ، لو لم يتبدد حزنى ، ولم أخلق من الفرح فى أرفع السموات .

فلست أظن هناك أبين منها ولا أحر ولا أخلص .

ومع ذلك فقد أبى القدر السيئ إلا التدخل ، فجعلنى أقرؤها بطريقة ، أضاعت الكثير من وقعها ، وبددت الكثير من أثرها .

إن سوء الحظ إذا ما بدأ ، فلن ينتهى حتى يتلف كل شيء . كذا فعل بنا سوء الحظ ، لقد بدأ يزج بنفسه بيننا فلم يتركنا إلا وكل ما بيننا قد أضحى خطاماً .

إن كل ما حدث بعد ذلك من خصام كان نتيجة خطأ فى توقيت قراءة رسالتك .

لقد قلت إني أرسلت إليك رسالتى السابقة التى تشككت بها فى حبك قبل أن أقرأ القصة .

ودعنتى الظروف ودواعى العمل إلى تأجيل قراءتها . فلم أبدأ فى قراءتها إلا

وقد وصلتني رسالتك الأخيرة التي تعتذرين فيها عن الرسالة والقصة .
وصلتني الرسالة وقد قرأت من القصة بضعة صفحات .
ولست أكتفك أن القصة أثارت أعصابي ، رغم كل ما ادعيت من برود
وهدوء وعدم اكتراث .

كانت القصة عبارة عن رسالة كتبها إلى شخص أحببته ، وجعلت تستعيدين
فيها ذكرياتك معاً ، وتسوقين إليه عبارات الشوق والهيام ، وتجزمين له أنك
تحيينه حتى بعد أن هجرك ، وحتى بعد أن أثبت أنه لم يرع لك عهداً .
لم تكن القصة ، قصة ، لا حوادث ، ولا حبك ، ولا حوار . ولكنها كانت
أشبه بنفثة مصدور ، أو بأهه عاشق .

ولو كنت كاتبة أو قصاصة محترفة ، لتلمست لك بعض العذر في نفسي ، ولو
كنت قد تعودت كتابة مثلها من قبل لأندى ذلك على قلبي المحرور ولعزى نفسي
المرورة .

ولكنك لم تكتبي قبلها سوى واحدة ، هي قصتي ، الواقعية ، الحية .
وكتبتها لم ؟ لتفرغي بها مشاعر تصطبغ في صدرك ، ولتسكبي على الورق
أحاسيس فاضت بنفسك .
فإذا ما أتيت بعد ذلك وكتبت هذه القصة أفلا يحق لي أن أظن أنها واقعة حال
تنضح بها نفسك بعد أن هاج بها داء دفين .

وإذا كنت قد قرأت في قصتك الأولى تفاصيل دقيقة عن كل ما حدث بيننا
وسرداً حقيقياً لكل أحوالنا وأفعالنا . أفلا يحق لي أن تذهب بي الظنون شتى
المذاهب ، وأن أعتقد أن ما قرأته في قصتك الجديدة ، لا يعدو أن يكون حوادث
حدثت لك مع صاحبك هذا وقد دفعها إلى ذهنك جرح نكأه حادث طارى ؟
ألم تثورى لأن ابنة عمك ذكرت لك أن الصبي — كما تسمينه — قد شوهد مع
هذه الفتاة أو تلك ؟ ألم تقول إنك قد كتبت القصة ، إرضاء لنفسك ولتبيني فيها
ضعة البشر ؟ أليست قصتك إذا ثورة على حبيب هاجر ؟

لقد قلت لى إنك لا تكنى لبطلها أى إحساس . كيف إذا قضيت الأيام وأنت
تكتبين له بتلك الحرارة وهذا الشوق ؟

أأنت مؤلفة بارعة الوصف خصبة الخيال !!؟

أأنت كاتبة عبقرية !!؟

لا .. لا .. إن فى قصتك كل بواعث الغيرة ، وكل بواعث الخطر
والخوف .. لقد أحسست منها بيدء صراع بينى وبين الصبى ، الصبى الذى
كنت تحبينه ، أو كنت — على حد قولك — تشعرين له بمجرد إحساس صديق .
لقد كنت تغارين من بطلات قصصى . وأنا كاتب محترف .. أخلق فى كل
أسبوع بطللة .

فكيف لا أغار من بطل قصتك .. وأنت لم يكن لك من بطل سوى ؟!
لا تهمنى بالطيش والاندفاع .. بل افهمى مشاعرى كما أحللها لك ..
واقنعى بأنى كنت فى غيرتى ، وفى غضبى ، على صواب .
وعندما وصلتني رسالتك المهدئة .. المفسرة .. الذاهبة بكل غضب ..
كنت قد قرأت من قصتك بضع صفحات .. وكنت فى حال من الضيق
والتوتر .

ولو أننى أنهيت قراءة قصتك وابتلعت كل سوئها .. ثم قرأت رسالتك ..
لكان فى ذلك الخير كل الخير .. لأننى واثق أن رسالتك كانت جديرة بأن تمحو كل
سيئاتها .. ولكن ما حدث .. هو أنى تركت القصة ، ثم أقبلت على الرسالة
أقرؤها دون أن أتم القصة .

وشعرت فى نهاية قراءتى للرسالة بأقصى آيات السعادة والحبور .. وهدأت
نفسى الثائرة ، واستقرت مشاعرى الهائجة .

ولو أنى كتبت ردى على رسالتك عقب الانتهاء من قراءتها مباشرة .. لكان فى
ذلك أيضاً الخير كل الخير .. ولما حدث بيننا ما حدث .

ولكننى — لسوء الحظ — لم أكد أنتهى من الرسالة السعيدة .. حتى أقبلت

على القصة الشائقة وانهمكت في تكملة قراءتها .. فلم أنه منها .. إلا وقد أتلفت
— كما توقعت — كل شيء .

أجل .. لقد كانت أشبه بكوب من المرارة تسكينه فوق طعام شهى أو شراب
حلو .

لقد سكبت في نفسى من المرارة ما أنساى حلو رسالتك وحلو حديثك ..
وحلو اعتذارك .. وجعلنى أنهار فى حزن واكتئاب .

أنا يا حبيبتي .. كاتب .. شاعرى .. حساس .. أعيش على الأوهام
والخيبالات .. وتؤثر فى نفسى جداً ، ما قد يظنه غيرى تفاهات وسخافات .

لهذا أحبتك .. ولهذا جئت بك .. إننا نحن الاثنان : مجنونان غرام .. لم يكادا
يلتقيان حتى اندفع كل منهما فى أحضان الآخر .

أغريب بعد هذا .. أن تحدث بى قصتك من الألم والأسى ما أحدثت ؟

ومع ذلك .. فقد صممت على التجلد والتماسك .. وحاولت جهدى أن
أمسك بزمام نفسى ، وألا أدع أعصابى تغلت منى أو تنهار ، وأن أجيئك بمنتهى
السكينة والهدوء .. وأن أترف بك فلا أحملك فى رسالة أخرى إزعاجاً جديداً
وأن أخفى عنك كل أثر لقصتك فى نفسى .

وأمسكت بالقلم .. محاولاً جهدى أن يكون ردى .. على رسالتك .. لا على
قصتك ، وكتبت بضعة سطور هادئة رقيقة .. قلت لك إني واثق من حبك ..
وأنه لم يعد بنفسى أى شيء ، وأنى قبلت عذرك ..

وقلت لك إن القصة من حيث هى قصة ، لا بأس بها ، وإن كانت تنقصها
الخاتمة .. فهى تبدو كمجرد رسالة .. أو شبه اعتراف .

أما من حيث هى واقعة فقد عجبت مما دفعك إلى كتابتها . وهنا بدأت قدرتى
على التحكم فى كتابتى تخوتنى ، وبدأت سخرىتى الطبيعية فى الكتابة تتخذ
طريقها إلى الورق لتعلن عن ألم وتعبر عن ثورتى على القصة .

قلت لك إني أتساءل عما دفعك إلى كتابتها ، وإنى أستطيع أن أثبت بوضوح

أنها نكسة حب قديم نكى فيه جرح حديث ، وأنتك بكتابتك تتلمسين العزاء عنه .

ثم تساءلت أيضاً .. عما دفعك إلى أن ترسلها لي أنا ؟ وهل لم يكن أفضل لو أرسلتها لصاحبها كما أرسلت لي قصتي من قبل ؟!

ثم قلت لك إنى سأرد لك القصة لأنى لا أود الاحتفاظ بممتلكات الغير ، وأن من الخير أن تبقى القصة لصاحبها .

وأرسلت لك الرسالة — برغمى — مريرة ساخرة .

وكانا

١٠

إني لأسائل نفسي الآن : ماذا كان عليّ لو تمالككت أعصابي فلم أرسل لك تلك الرسالة ؟ أما كان ذلك خيراً ؟ . وأما كنا ما زلنا نتمتع بحبنا سوياً ؟ ولكنني مع ذلك لا أملك إلا أن أجيب ، أن القدر لا بد واقع ، وأن القطيعة بيننا كانت لا بد آتية مهما حدث .

ولم تحببني على رسالتي ، وبدأ لي أنها كانت أشد وقعاً عليك من سابقتها ، فلقد بلغني أن موضعي في نفسك قد تزعزع ، وأني لن أستعيد حبك لي أبداً .. كما كان .

وأحزنتني قولك هذا ، أكثر مما أحزنتني قصتك .. ورأيت نفسي أهبط من سوء إلى أسوأ ومن كدر إلى كدر .

وأرسلت لك رسالة اعتذار رقيقة ، ولكنك لم تحببني . واشتد لي الحزن ، فكتبت هذه الرسالة .. ولم أرسلها لك ، بل أعطيتها لك عندما التقينا بعد ذلك .

هل تذكرين ما قلت لك عن السعادة المردودة آلاماً ؟ وأن القدر بقدر ما يعطينا من متع يهبنا شقاء ؟

إني لأجلس الآن وأسائل نفسي والحزن يرسب رويداً رويداً في أعماقي .. هل نصب معين السعادة المستمدة منك وبدأ سبيل الأحران يطغى ويفيض ؟ حقيقة أني أشعر أن قلبي أفعم منك هناء ، ولكنني أكره أن يكون الهناء قد بلغ منتهاه ، وأتمنى أن تكون هبتك من الأحران هبة مدسوسة طارئة عاجلة الزوال قريبة النهاية ، وأن يعود غيث هنائك إلى التدفق مرة أخرى فيمحو الأحران ويبدد الشجن .

أنا أكتب الآن لنفسى ولى حنين شديد إلى الكتابة ، وأحس من القلم نوعاً عجيباً من الإخلاص ، وأشعر وأنا أمسك به كالمثبث فى بحر نائر يلوح من حطام سفين .

أنا لا أكتب إليك لأنى أعتقد أن كتابتى إليك كانت فاشلة دائماً ، وأن صناعتى التى اتخذتها ، لم تجدنى نفعاً فى نقل ما بنفسى إلى نفسك ، وأنى لم أنجح بها إلا فى إيلاصك وإغضابك .

لقد قلت لك ذات مرة إنى أحبيتك وسأستمر فى حبك لأنك لم تسببى لى فى حبك ألماً وأن التفكير فىك يهين لى راحة ذهنية ، وأنك وطيفك وذكراك خير معين لى على طرد المصوم والتخلص من الأحزان .. فهل يرضيك بعد هذا أن يتقلب الوضع ؟ فإذا بذهنى كلما شرد فى ذكرك جثم على قلبى الحزن وفاضت بنفسى المرارة والألم .

أهكذا صمودك أمام أول تجربة ؟

هيب أنى أخطأت ، وأنى قد أسأت إليك وآلتك برسائلى ! أهذا يدعوك إلى القول بأنى فقدت موضعى عندك ، وأن حبك لى لن يعود كما كان ؟
أتمثل هذه السهولة تزعزع حبك وإيمانك ؟
أحقاً حدث منك هذا ؟

إنى لست جزءاً لأنه لو كان قد حدث فهى شىء غير مفاجئ لى ، فأنا لست شديد التفاؤل فى الحياة ، وأنا دائم التوقع للأحزان ، دائم التهوى لاستقبالها .
ولكنى مع ذلك لا أود قبول أحزانك لأنى لو أخذت بعضها فسأعجز عنها كلها حتى الثمالة ، وسيتبقى عندئذ كل ما بيننا .

وكم أكره أن ينتهى ما بيننا ، وكم أود لو يدوم أبد الدهر .. لأنى أحس أن بك ما يميزك عن سائر الناس ، وما يجعل حبك يخلد فى نفسى ، فأرجوك ألا تبددى ذلك الوهم الذى جعل الحياة فى نفسينا .

إني أحبك الآن كما أحبتك دائماً .. لم يتزعزع حبى قيد شعرة ، فإذا كان
حبك ما زال كما هو فلننس كل ما كان ، ولنندع ربح الإهمال والنسيان نذروه
ليصبح كأنه ما كان .

والتقينا بعد ذاك .. لأول مرة عقب الرسائل المتبادلة بيننا ، وعقب القصة
التي سببت ذلك الخصام .

وكان للقاء المباشر .. أثر عجيب .

أتدريين كيف تنفض هبة ربح كوم غبار ؟ . كذلك فعل اللقاء بما بيننا من
خصام !!

لقد نفخه شر نفخة .. نفخه من بعيد ، من مجرد إقبال أحدنا على الآخر ..
ورؤية كل منا لصاحبه .

لم أكد أبصرك من بعد ، حتى أصابتني نشوة عجيبة ، ودق قلبي ببلاهة
محدثي العشق .. حتى أنكرت منه لفته واستحمتته ، وعلت شفئك ابتسامة
عريضة بمجرد أن لمحتني وبدت عليك نفس اللهفة والشوق التي كنت
تبدئين بهما .

وتعاتبنا طويلا ، ونظرت إليّ نظرتك الحلوة المشوقة وهمست لي :

— شوقى إليك شديد ، كأنى لم أرك منذ أشهر .

وكان هذا نفس ما أحس به .. رغم أنه لم يكن قد مضى على آخر لقاء لنا أكثر
من أسبوعين .

وأجبتك في لفة :

— وشوقى إليك أشد .. قاتل الله الخصام والغيرة والوساوس لقد ألهمت

نفسى ، وجعلت اليوم يمر كأنه عام .

ولم نكن في لقاءنا وحيدين تماماً .. ولكننا كنا أشبه بذلك .. فقد كنا نستطيع
أن نتحدث كما نشاء رغم وجود الناس من حولنا .

وبدا عليك القلق فجأة ، وأنت تلتفتين حولك فسألت :

(بين الأصلا)

— ما بك ؟

— سأتركك الآن .. لأن لدى موعد مع إحدى صديقاتي

وبدا على التجهم وقلت لك :

— كان يجب عليك ألا ترتبطى بمواعيد تقطع علينا لقاءنا .

— ولكننا جلسنا سوياً مدة طويلة ، وهناك أشياء لا بد أن أفعلها .. إني منذ

أحببتك انقطعت عن صديقاتي القدامى ، وأخشى أن أثير في أهل الأقاليل والشكوك .

— كما تشائين .

قلتها ونفسي تفيض بالضيق والحسرة ، وأجبتني راجية متوسلة :

— أرجوك ألا تحزن ! . يجب أن تفهم موقعي .

— إني أفهمه .. ولكن أريد أن أوضح لك أمراً .

— ما هو ؟

— لقد جعلتني في حبك كالطفل المدلل . لقد أفرطت في حبي ، وأمعنت في

تدليلي .. حتى تعودت منك هذا .. ويت لا أقنع منك بغير الإفراط .. والآن ..

في هذا الوقت بالذات .. وفي هذه الفترة التالية لفترة الخصام والشكوك

والوساوس والغيرة .. أراني في حاجة إلى هذا الإفراط الذي عودتني أكثر مما

كنت في أى وقت مضى .. حتى ينحو تماماً كل أثر للوساوس والأحزان .. فإن

أى تقصير منك — غير مقصود — سيبعث الوساس مرة أخرى ، وستكون

نفسى مهياة لمضاعفة أثره وتأويله بغير حقيقته . فأرجو أن تراعى ذلك وتكلفنى

نفسك بعض الجهد حتى يمضى بعض الوقت ويذول كل أثر لما حدث بيننا .

وكنت في قولى صريحاً مخلصاً .. وبسطت نفسى على حقيقتها .

وابتسمت في رقة وأجبت قائلة :

— إن الجوى غير مناسب لأحاديث الحب والهوى .. ولكنى مع ذلك

« أعبدك » .

ومست يدك يدى مسة خفيفة .. وكان هذا أقصى ما نستطيع فعله .

وقبل أن نفترق قلت لى :

— لست أعرف إذا كنا نستطيع اللقاء غداً أم لا ؟ ولكن أرجو أن تتصل بى تليفونياً ، فربما قد تسنح الفرصة للقاء .

وفى اليوم التالى اتصلت بك فى الموعد المحدد ، وكانت بى لهفة شديدة إلى لقاءك ، وكنت متوقفاً — بعد ما قلت لك أمس — أنك ستبثين لنا فرصة لقاء . ولكنك أجبتنى فى عجلة أنك لن تستطيعى لقاؤى . وخذلت كثيراً . ولكنى لم أجبك بأكثر من التحية . ثم وضعت السماعة فى هلهو .

ولم أكد أضعها حتى تملكتنى ثورة مفاجئة ، وغضب شديد .

كنت واثقاً إنك تستطيعين إيجاد الفرصة للقاء .

وزج الشيطان بأنفه فى رأسى .. وبدأ يؤكد أنك لم تعودى تبثين بى كسابق عهدك .. وأخذت مظاهر الغيرة والحقن والسخط تتفاعل فى رأسى . وعبثاً حاولت التمسك بأهداب الاستقرار والهلهو .

ولو استطعت .. لتغير كل شيء .. ولما انتبهنا إلى ما نحن عليه .

ولكن مرة أخرى .. أعود فأقول .. إن ما حدث كان لا بد حادثاً .. على أية

حال .. ما من وسيلة هناك لتجنب فعل القدر

ومرة أخرى طلبتك فى التليفون .

لمه ١٩ لأفرغ لك حق غضبى .

وقلت لك حانقاً .. إنى لن أراك بعد هذا

وصحت مذهولة :

— لمه .. ماذا حدث ؟

وكان الحديث سريعاً أشبه بالشرر .. ولم تكن هناك وسيلة للتفاهم الهادئ ..

كان كلانا متألماً .. موجعاً .. أنا بغضبى وحنقى ، وأنت بذهولك ودهشك .

وأخيراً انتهى الحديث .

وهذا لهيب الغضب ، ولكن بقيت مرارة الندم .
لعنة الله على .. كان يجب أن أكبت الغضب في صدرى فلا ألقيه عليك ،
فأحطم حبك .

ولكن أى حب هذا الذى لا يتحمل صدمة غضب !؟

ومن ذا الذى لا يفضض !؟

لقد حاولت أن أعذر لك .. ولكنك أعلنت القطيعة وأرسلت خطاب
الوداع التالى . وهو آخر ما سمعت منك :

« كم أكره أن أنهى ما بيننا ! وكم أحس صعوبة ومرارة في إنهائه !
« أهذه هى الطريقة التى تحترم بها حبنا ؟ لقد قلت عني « تافهة » . أحقاً أنا
كذلك ؟ وهل هذا هو اعتقادك في ؟

« إنك تظن أن حبي لك قد انتهى ، ولكنى أؤكد لك أنه لم ينته ، وأؤكد لك
أنى مازلت أحبك ، ولكن تذكر أنك أنت البادئ بالقطيعة ، وأنت القائل إنك
لا تريد أن ترانى ، لا لشيء إلا لأنى لم أستطع لقاءك ، لأنى لم أملك اللقاء ..
ولأنى لست حرة فى أن أفعل كل ما أريد بل لا بدلى أن أفعل ما يريد أهلى .

« ولكنى واثقة أننا قد وصلنا إلى نقطة ، أو إلى حالة ، لا بد لنا إزاءها من
وضع حد للقائنا ، وإنى أقول لقاءنا ، ولا أقول حبنا .

« لقد استطعت لقاءك فيما مضى ، ولكن لا تدري شيئاً عما كنت أفاقيه من
أجل ذلك .. كنت دائماً أضطر إلى الكذب ، وهو أبغض إلى نفسى .

« لقد اعترفنا دائماً أن ما بيننا ما كان يجب أن يكون ، وأننا لو حاولنا أن نكون
أبرياء في مظهرنا ، فإن الخطيئة ستبقى كامنة في قلوبنا ، ومع ذلك فإنى أعتقد أنى
لو استطعت أن أحبك بينى وبين نفسى ، أحبك دون أن أراك أو ألقاك حباً صامتاً
في الخنايا ، مستقراً في الأعماق .. فإننى أكون قد فعلت بذلك ما تمنيت أن أفعله
دائماً .. ولكن لم تكن لدى الشجاعة الكافية لكى أقدم على فعله .

« وعندما حدثتني آخر مرة حديث الغاضب ورفضت رؤيتي .. عزمت على ألا أراك ، وأن أبقى حبي في قلبي .. وبهذا أتحرم من وطأة الضمير الذي يثقل على نفسي .

« وإني واثقة أن هذا خير لك ، لقد قلت لي من قبل أن بعدى لا يؤملك لأنك تستطيع أن تسعد بالتفكير في . وسأحاول أن أجرب هذا الأمر .. وأن أتغلب على آلام بعدك .

« فإذا ظننت بعد ذلك أن حبي لك سطحي .. وأن مشاعري نحوك ليست من العمق بحيث تقاوم الأحداث . فأنت حر في أن تظن كما تشاء ، ولست أراني أملك لظنونك دفعا .. كل ما أملك هو أن أداوم على حبك .. بضمير هادئ مستريح .

« وكل ما أرجوه منك هو أن تذكر أمراً واحداً .. وهو أنه مهما حدث .. فأنت دائماً في الذهن مستقر ، وفي القلب مقيم .

« بقي لي رجاء أخير .

« أتذكر ما قالته لك صاحبتى .. عن أني أصلح بطلة لإحدى قصصك ؟!

« أتذكر أيضاً قولك لي .. إنك ستكتب قصتي .. عندما ينتهي أمرنا معاً .. وإجابتي لك أنك بذلك لن تكتبها أبداً .

« وإني لا أعتبر أمرنا معاً قد انتهى ، ولكن .. إذا كنت تعتبره أنت ، وإذا كنت تنوى الكتابة عني .. فأرجوك — بحق حبنا — ألا تكتب ما يشير إلي .. أو ما يكشف أُمري .

« أنا لا أستطيع منعك من الكتابة ، ولا أودّ منعك .. فما تلهفت في حياتي على شيء كتلفني على كتابتك .. إني أعتبرها زادي في الحياة .. إني أعبدُها .

« وحاشاي أن أنكر أني أتوق إلى قراءة قصتي .. وأترقب كتابتك عني .

« إني سأنتظرها على مر الزمن ، وستكون هي عزائي عن فرقتك ، وسلوتي في بعدك .

« ولست أملك في النهاية إلا أن ألقى إليك على البعد تحية وداع ، وأهتف خلالها باسمك كما تعودت أن أهتف به .

« وإني أتمنى لك كل خير وهناء ، وأرجو أن تذكرني بالخير كما أذكرك لأنني لم أفعل نحوك أي خطأ ، وأخيراً وداعاً » .

وداعاً .. وداعاً .. وداعاً .

هذا هو كل ما خرجت به من رسالتك .

أحقاً تعين ما تقولين ؟

إن كل ما برسالتك من ألفاظ الحب والإخلاص .. لا تستطيع أن توازن كلمة « وداعاً » .

إن كل ما أودعته رسالتك من متعة وهناء .. يحويه ويذروه إعلانك الوداع ، إذا كنت تعين ذلك حقاً .

أعازمة أنت حقاً على الفرقة والقطيعة ؟ وعلى أن تحبيني فيما بينك وبين نفسك ؟

أستطيعين ذلك ، وأنت تحبيني فعلاً ؟

أم أن أحبك .. لم يعد إلا كلاماً منمقاً معسولاً ؟

وأمسكت القلم ، وأنا في حدة أئمة .. أسائل نفسي .. أجادة أنت في قطيعتك ؟ أستطيعين تنفيذها وتحمل آثارها ؟

على أية حال .. لم أجد أمامي إلا قبولها ، وانتظار نتائجها العملية .. أجل .. ليس أمامي إلا التمسك بكبريائي وقبول الوداع .

وترددت .. أأرد عليك .. أم أعتبر رسالتك هي النهاية ؟ وأوحت إلي كبريائي ألا أجيب ، وأمرني القلب الأحمق بأن أجيب ، فكتبت إليك :

« عزيزتي ...

« لست أدري أكان يجب أن أكتب إليك خطائي هذا ، أم كان علي أن أعتبر

خطابك الأخير هو تحية الوداع فأكف عن الكتابة وأصمت عن الحديث .
 « لقد ترددت كثيراً في كتابته ، وقلت لنفسى إنه يجب علفى أن أعاونك على ما
 أنتويه من إنهاء لما بيننا ، وأن أساعدك على القطيعة فأناأى بنفسى عنك ، وأبعد بها
 عن محيط حياتك ، وأكفك مشقة رؤيتى أو سماعى أو القراءة لى .

« كان يجب إذاً والأمر كذلك ألا أكسب شيئاً ، وأن أخلد إلى السكون
 والصمت والابتعاد ، ولكنى أشعر أن ثمة شيئاً فى صدرى لا بد أن يقال ، وأن
 هناك بعض تعليقات على رسالتك الأخيرة لا بد أن أسر إليك بها .

« على أية حال استمعى لرسالتى ولا تزعجنى نفسك بها كثيراً .. بل اعتبر بها
 بمثابة رد على تحيتك ، وأنها بعد كل شىء لا تعدو أن تكون كلمة « وداعاً » .

« أول كل شىء أشكرك أحزول الشكر على رسالتك ، فقد كانت لنفسى —
 رغم أنها رسالة وداع ورغم أنك قطعت بها كل ما بيننا وأنهيت بها كل علاقتنا —
 كانت رغم ذلك كله أجمل عزاء وأطيب دواء ، وما أظننى قرأت خيراً منها رسالة
 وداع .. لقد جعلت من مرارة الوداع حلاوة ومن قسوته رقة .

« ولكن لى عليها بضع ملاحظات أخلصها فيما يلى :

أولاً — قلت فى رسالتك أنى وصفتك بالتافهة فمتى قلت ذلك ؟ أقلتها بلسانى
 أم بقلمى ؟ إنى لا أذكر أبداً أنى قلتها لك ، وأستطيع أن أجزم بذلك لسبب
 واحد ، وهو أنك آخر من توصف بالتافهة ، وأن أحسن ما فىك — كما قلت لك
 مائة مرة — أنك لست تافهة ، ومع ذلك فلو كان قد حدث أنى قلتها فعلاً .. فلا
 بد أن أكون قد قلتها ، وأنا فى حالة غضب جعلنى لأعنى ما أقول . وعلى أية حال
 أنا أعتذر عنها لأنى — إذا كنت قد قلتها فعلاً — فإنى قطعاً أعنيها .

« ثانياً — إنى موافقتك على أن ما بيننا — منذ مبدئه شىء خطأ ، وأن من
 الحكمة والعقل والمصلحة أن نضع له حداً ، ولكن أتذكرين أنك سبق أن قلت
 ذلك كثيراً ، ولكنك لم تستطعى تنفيذه ، حتى لقد قلت لى ذات مرة : « إنك
 لو كنت قد أقدمت على ترك رؤيتى لأصابك الجنون ، فهل حدث جديد جعلك

تقدرين الآن على فعل ما لم تكوني تقدرين على فعله ؟ . ألا ترين معنى أنه كان من الأفضل أن نجعل الأمور تجري سهلة بلا قطعة حتى نفترق افتراقاً طبيعياً في عطلة الصيف ؟ أتدريين كم مرة كنا سنلتقي خلال المدة الباقية ؟ لن يزيد لقاءنا قبل الفرقة على أربع مرات ، فهل لقاء أربع مرات قد أضحى من الخطورة بحيث يحتم علينا أن ننهي ما بيننا الآن ؟

« وأخيراً أرجو ألا تفهمي حديثي هذا على أنه رجاء للقاء ، وأرجو ألا تحملي قولي محمل العتاب أو اللوم ، بل هو مجرد شرح لوجهة نظر في مسألة اعتبرتها منتبهة . ولم أملك أنا — تلبية لرغبتك — إلا أن أعتبرها كذلك ، بل إنى لأعتبر رسالتك الأخيرة هي النهاية فعلاً ، وأعتبر رسالتى هذه شيئاً خارج الموضوع .. أو على هامشه .

« وأظنك تعرفين أكثر من غيرك .. أنى لست الإنسان الذى يرجو لقاء ، وأنه كان يكفى أن أعلم أنك نويت القطيعة حتى أنهى ما بيننا .. وأن أكبت كل مشاعرى فلا أبلغك منها شيئاً ، ولكن لم أفعل لسبب واحد ، وهو أنك مخلوقة عزيزة ، وإنى أكره منك أن تأخذينى بلحظة غضب لا يخلو منه مخلوق .

« أما عن قولك بأنى قلت دائماً : إنه لا يؤلمنى ألا أراك . فقد قلت ذلك حقاً عندما كان التفكير فيك يسبب لى كما قلت دائماً « راحة ذهنية » . أما الآن والفكر يزرع تحت عبء مُلح من الحزن . أما الآن ورصيد الأحلام الجميلة قد تبدد ، وربيع الذهن قد أضحى خريفاً تتساقط فيه الأوراق الصفرة وتعصف فيه الريح العاتية .. فلا أظننى أستطيع أن أزعم أننى فى غير حاجة إلى رؤيتك .

« ولكنى — كما سبق أن قلت لك — أعلم تماماً أن سعادتنا لا يد مردودة ، وأن من الجنون أن نتخيل أن الحياة يمكن أن تداوم على منحنا هذا القدر العجيب الذى منحتنا إياه من السعادة .. لأن هذا ليس من طبيعة الحياة .

« لقد مررت بأجمل أيام الحياة ، والآن أمر بأشقاها ، وكما استمتعت بمتعة الأيام الحلوة ، لا بد أن أحتمل آلام الأيام المريرة ، وكما استمرأ الذهن لذة

« الراحة الذهنية » لا بد أن يلقي نصيبه من « الإجهاد الذهني » .
 « وبعد .. فالحمد لله .. إن كل شيء إلى زوال ، وإلى نهاية .. حتى الألم ..
 وحتى الشقاء .. لقد أقبل النعيم ، ثم ولّى ، وأقبل الشقاء ، فلا بد أن يولى ،
 وسنخرج في النهاية بلا شيء لا نعيم ولا شقاء .. اللهم إلا ذكريات راسبة في
 الذهن .. الله أعلم بحلاوتها أو مرارتها .
 « لعن الله الذهن الذى لا يهدأ ولا يغفو .. بل يعمى في التفكير والتذكر ،
 حتى يصيبه الكلال ، دون أن يجد له مستقراً يستقر فيه ، أو ملجأ يمنحه الرجاء
 الضائع .. والراحة المسلوبة .
 « حتى الساعة العاشرة قد باتت موضع يأس ، بعد أن كانت مرفأ رجاء .
 « كان الذهن يجد فيها أقصى راحته ، إذ يشعر أنه ليس وحيداً . وأنه يلتقى مع
 ذهن آخر في الفضاء الحر الطليق حيث لا حدود ولا قيود ، ولا خوف من
 رقابة ، ولا خشية من تقليد .
 « أما الآن فما أشبهه بوحيد مهجور يحوطه الفراغ والظلمة والوحشة ..
 ينتظر ، و ينتظر ، و ينتظر .
 « أجل ! إن الذهن قد بات يخشى الساعة العاشرة . بعد أن كان يترقبها ، لأنه
 يحس فيها الفشل والخيبة والخذلان .
 « لقد أطلت في الكتابة ، لأنى مثلك ، أكره أن أنهى ما بيننا ، ولكن مادمت
 نصرين فلتكن النهاية .
 « أما عن قصتك فأنى لا بد كاتبها فهمي كل ما تبقى لى للجزء منك .. وأرجو
 أن تطمئننى ، فما تعودت قط أن أفصح أبطالى وأكشف أمرهم .
 « أجل ! يا حبيبة الروح ، لن يكشف أمرك إلا ثلاثة : أنا ، وأنت ، والله ..
 الستار ، الغفور ، الرحيم . سأذكرك بالخير ، لأنى لا أذكر لك إلا الخير .
 « وأخيراً .. وداعاً » .

قلت لك وداعاً ، ويعلم الله أنى ما عنيها قط .
لقد كنت أعتبرها مجرد كتابة ، وما صدقت وقتذاك .. أنها وداع حقيقى .
والآن لندع الرقة والمجاملة جانباً .. ولنتحاسب معاً على ما فعلناه بعد ذلك :
ماذا فعلت ، وماذا فعلت ؟

كنت جادة فى وداعك ، مصرة عليه .. وكنت أنا لا أتصور حدوثه .
ومرة واحدة ، وجدت كل شيء قد تخلى عني وإذا بى أترغ كالذبيح .
تخليت عني أنت بالفعل لا بالقول .. فتجبتنى تماماً .. لا لقاء ولا حديث ولا
كتابة .

وتخليت عن كبريائى وعنادى واعتدادى .. فذهبت ألاحقك راجياً
عفوك .. مؤملاً صفحك وغفرك ، وارتدادك إلى .
وتخلت عني الصبر والتؤدة .. فلم أحاول أن أتركك للزمن أو لنفسك .. حتى
تلهفى أنت على لقائى إذا كنت حقاً ما زلت تحببني .
وتخلت عني العقل .. فتصرفت فى غير حكمة ، وفى كثير سخف وغباء .
وتخلت عني القلب فاشتط وتغالى وجعلنى أغرق فى أعماق من الحزن واليأس
لا نهاية لها .

قاتلنى الله من غرأ أحقق ، قليل الصبر ، ذاهب اللب !
ولكن .. علام التفرع واللوم وأنا بشر ؟
بشر .. عاشق .. مهجور .

مهجور .. بعد طول حب وتدليل .. ملطوم .. بعد طول رفق ووريت
كانت صدمتك صدمتين : صدمة المفاجأة .. وصدمة الإذلال .
كانت — على كثرة تجاربى وصدماتى فى الحياة — أشق صدمة تلقينها . وأقسى
تجربة صادفتها .

إن المسألة برمتها ، قد تبدو تافهة .. أو قد تبدو إنهاء سليماً لحالة خطأ .. كان
لا بد أن تنتهى .

فأنا زوج عاقل مستقيم ، وكاتب معروف محترم ، ورجل متزن جاوز الثلاثين ، وخط الشيب رأسه .. قد أخطأت بحب فتاة في الخامسة عشرة ، وأخطأت هي بحبي .

وقد كنت أنا نفسي أتمنى في كثير من الأحيان ، رفقاً بها ، أن تكف عن حبي ، وأن تنفصم تلك الرابطة التي شدتنا بلا أمل ولا رجاء . كنت أتمنى أن ينتهي ما بيننا .. عندما أحكم عقلي .. وعندما أحاول النظر إلى مصلحتك ومصلحتي .

فما بالي قد جننت ! وأنا أرى ما بيننا قد انتهى ، وأجد حالة الخطأ قد زالت ؟ ولكن هذا تفكير إنسان عاقل .. يحكم على الأمور وهو في حالة طبيعية إنسان غير عاشق ولا مهجور . أما أنا فقد كنت عاشقاً مهجوراً ..! ذاهب اللب .. شارد الذهن ، محرق القلب .

لقد ذهبت عني كل صفة ، إلا هذه الصفات ، صفات العاشق المهجور وانطويت على نفسي ، وكتمت السهم في كبدي ، ولم أكن أملك غير ذلك .

ماذا أفعل وكيف أتعزى ؟

لقد حاولت التعزى بالصالحات السابقات .. ولكنني وجدت لقائي بهن لم يغير حالي .. كنت أجلس معهن صامتاً شاردأ ، لا أكاد أنيسر بكلمة ، فضغن لي وضقت بهن .

إن شر ما في الهجر .. أنه ما من إنسان يملك للمهجور عزاء .. إلا المهاجر .. وأين للمهجور عزاء المهاجر ، وهو ممن في هجره !

لقد كان دوائى عندك وحدك .

أنت وحدك التي كنت تستطيعين أن تفعل لي شيئاً ، وأنت وحدك التي لم تفعل شيئاً ، سوى التجاهل والإنكار كأنك لم تقولي لي إنك ستحبيني دائماً ،

وأنى سأبقى فى ذهنك وفى قلبك إلى الأبد .

أمعقول هذا ؟

أمعقول أنى باق فى قلبك أو فى ذهنك ، وأنت تبخلين على حتى بمجر

إيماءة ، أو نظرة ، إحساس بوجود ؟

لا .. لا .. لقد انتهى كل شىء .

وأى عجب فى ذلك ؟ أهو أول حب ينتهى .. أم أنك أول حبة تكف عن

الحب ؟

أنت معتورة ! .. ما ذنبك وقد سلوتنى ، وتبدد حبنى من قلبك ؟ حبنى الذى

كنت أعتقد أنه لا ينفد .

ولكنى مع ذلك أعتب عليك .. فلو أنى كنت البادئ بالسوان ، ولو أنى أنا

الذى كففت عن حبك أولاً لكنت أكثر رفقاً بك .

أجل ! إنى ما كنت أمعن فى الهجر ، وما كنت أنكرك وأتجاهلك . إنى ما

كنت أسبب لك جرحاً ، بل كنت أجعل من حبنى صداقة أضمد بها جرحك .

لو كففت أنا عن حبك لما أشعرتك بهذا ، ولما تحولت عنك ، بل لذكرت لك

طول حبك ، وفرط تدليلك ، ولما نسيت ما اعتبره منك جميلاً طوّقتنى به .

وهكذا أخذت أرزح تحت أحزان الهجر ، وآلام الإذلال .. وبدأت أقبع فى

الدار .. فى شرود وصمت وحزن .

أجل ! لقد أخذت أقبع فى الدار .. أنا الهائم الحمر الطليق ، الذى لا يستقر له قرار .

لقد عدت أخيراً ، كما يعود الطير الجريح إلى وكره .

وفى الوكر ، وجدت الصابرة الساكنة .. تنظر لى فى تساؤل صامت .

لقد أخذت ترقبى الساعات الطوال .. وأنا مغرق فى الصمت مخلد إلى

الشرود .

ولا شك أن قبوعى فى الدار وشرودى قد أثار دهشها ولكنها لم تخرج من

صمتها .

لم تفصح بالسؤال ، فما تعودت قط أن تسألني شيئاً .. كانت سميمة مطيعة .. لا تسأل ولا تطلب ، ولكنها تسمع وتفعل .

لقد كان يداخلها إحساس بأنها مقصرة نحوي ، لأنها لم تنجب لي أطفالاً ، ولأنه لا أمل لها في الذرية ، إلا بأبهظ الأثمان ، بحياتها .

كانت تشعر أنها مقصرة في حقى . لأنها هزيلة مريضة ولأن الطبيب حرم عليها .. الولادة .. لأن في الحمل والولادة قضاء على حياتها .

ولم أكن في قرارة نفسي أكرهها .. بل على النقيض .. لقد كنت أحبها — كما سبق أن قلت — حب أخت أو أم أو ابنة ، وكنت لأرى لها ذنباً فيما أصابها ، لقد تزوجتها كالزهرة الياقوتية ، ولكن المرض بدأ يمسك بتلابيبها .. فهزل جسدها وأوجع نفسها .

وهكذا كانت دائماً ، تقبض السؤال والتدخل ، فلم تحاول قط أن تستفسر :
أين كنت ؟ وأين أذهب ؟ وماذا أفعل ؟

ولكن في هذه المرة .. كنت أقرأ التساؤل واضحاً في عينيها .. كنت أجلس في صمتي وشرودي ، وقد أرقفت فلم أذهب إلى المضجع ، وكانت تجلس أمامي منهمكة يديها في عمل « التريكو » وقد طأطأت رأسها ، وأخذت تحديق في الإبرتين بين يديها ، وبين آونة وأخرى ترفع عينيها في تساؤل ثم تخفضهما في استسلام دون أن تقول شيئاً .

وهكذا تظل ترقبني حتى أذهب إلى الفراش ، فتطفئ النور وتمدد جانبي في صمت وسكون .

وفي ذات ليلة طال لي الأرق ، والذهن مغمى في التفكير فيك .. كيف أنساك ؟ إنى أتوق إلى نسيانك ، ولكن كيف ؟ إنى أحاول أن أجسم سيئاتك وعيوبك حتى أكرهك .. وأظل أجهد ذاكرتي في جمعها وفي تضخيمها وأقول لنفسى إنك رديئة متقلبة وأنتك لست جميلة وأنه ليس بك ما يميزك عن سائر البشر وأنتك لا تستحقين حبي ، ثم ينتهي بي الأمر بعد كل هذا .. أتدريين إلام ؟

إلى مزيد من شوق .. ومزيد من حب .. ومزيد من حنين ولهفة .. لا على
تقبيلك ، بل على تقبيل أطراف أصابع يديك ، بل قدميك ..
وطال لي الأرق والتفكير فيك ، وهى جالسة أمامى ، دائبة يديها فى عمل
التريكو .. متسائلة بنظراتها الصامتة المتوسلة بين آونة وأخرى .
وأخيراً .. وجدتها تضع الإبرتين جانباً .. ثم تنهض مقتربة منى فى سكون
وتقف ملاصقة لمقعدى ، ثم تمد يدها إلى رأسى وتحسس جبينى فى رفق وتقول فى
صوت خافت وجل :

— ماذا بك ؟ ماذا يحزنك ؟ ألا أستطيع أن أفعل لك شيئاً ؟
وبذلت جهدى لكى أكم تلك الزفرة الحارة التى همت بالانطلاق من
صدرى .. وأجبت وأنا أربت على يدها فى رفق :
— لا شيء .. اذهبى وسألتحق بك للنوم ..
يا للسخرية !! لقد قتلتنى برفقها وحدها ، كما قتلتنى أنت بهجرك
وقطيعتك ؟

ماذا أقول لها ؟!
أقول لها .. إني حزين لأنى أحب غيرها .. التى هجرتنى وضربت بحبى
عرض الحائط ؟!

ما هذا الخلط العجيب ؟! وعلام تكررنا الأقدار على هذه المتناقضات ؟ ولم
تأبى إلا أن توجه أذهاننا ومشاعرنا أسوأ توجيه ؟!
ولكن . وحمد الله .. أن جعل روعنا منطقية على ما فيها ، وإلا .. ماذا ترى
يحدث .. لو كان كل منا يرى ما فى ذهن الآخر ؟
إنها تسألنى : هل تستطيع أن تفعل لى شيئاً ؟

ترى هل لو عرفت سبب ما يحزننى ، وأدركت حقيقة ذلك الشيء الذى
يمكن أن يذهب يحزننى . أكانت تصر على سؤالها ؟!
أم تراها على استعداد لأن تذهب إليك ، وتحضرك إلى وتقول لك : أحبيه ،

ما كنت تحببته ، حتى لا يقتله الحزن ؟
هذه سخرية عجيبة !

لعن الله حياتنا ، إنها كلها سخریات .
ولم أملك إلا أن أنهض وأتمدد على الفراش وقد ثبتت عيناى فى سقف
الحجرة .. أو على الأصح ، فى صورتك ، فما كنت أبصر أمامى مبصراً
ومغمضاً .. إلا أنت .

ومرت الأيام والشهور ، وأنا مثقل بالحزن .. مقل فى الكتابة .. لا أكاد
أكتب إلا ما أكره على كتابته كواجب لا بد من تأديته ، وحتى هذا الذى كنت
أكتبه كنت تزجى بنفسك فيه .. فلم تكن تخلو منه صورة لك
ولم يكن ما بى فى أول الأمر .. ليزيد على إرهاق نفسى وكلال ذهنى ، حتى
أصابنى ذات يوم ما يشبه الإغماء ، وأنا أسوق العربى ، ووجدتنى أتهاوى فى
مقعدى ، وقد أخذت المراثى حولى تدور وتتمايل ، وبهت صورتها فما عدت
أرى فيها سوى أشباح متداخلة .. وحاولت جهدى أن أسيطر على عجلة
القيادة ، ولكنى وجدت كل شئ يدور بى ، وفجأة سمعت صوت فرقعة
شديدة .. ولم أعد أحس بعد ذلك شيئاً .

ولم أفق إلا وأنا راقد على فراشى فى المستشفى .. وبذراعى وساقى وحولهما
بعض الضمادات والأربطة .

ولم أكن أحس بجراح ولا رضوض ، ولكنى لم أكن أحس أيضاً بإحدى
ساقى وإحدى ذراعى .. لقد بدا لى أنهما ليستا منى .

إنى لا أريد أن أسترسل فى وصف تفاصيل مزعجة ، ولا أريد أن أستبكي
بكتابتى مقلة .. أو أستدرف دمعاً .

لا .. ولا أريد أن أكتب لنفسى رثاء ، ولا أستجدى من غيرى رثاء .. فما
كرهت فى حياتى أكثر من شعور الرثاء .. إن الفشل نفسه لم يكن يحزننى بقدر ما
يحزننى ما أتوقعه من رثاء الناس لى على ذلك الفشل .

وأنت بالذات .. أكره رثاءك لى .. إني أتوق إلى حبك وعبادتك وتقديرك ،
وبقدر ما أتوق إلى ذلك أكره أن أكون موضع رثائك أو شفقتك .

وعلى ذلك أعلنك أنى فى أشد حالات مرضى وعجزى وشقائى وحزنى ، ما
زلت قوى النفس .. شديد الاعتداد بها .. بل إني فى باطنى أكثر منى قوة فى أى
وقت مضى .. إن ما أصابنى من عجز وكلال .. لم يؤثر على قوة نفسى ،
فأنا .. هو أنا ، دائماً ، وسأبقى كما أنا ، حتى الموت ، وما أظنه يعيد .

بل أن توقعى الموت .. هو سر قوى ، واعتدادى .
لقد كنت أفهم الموت دائماً على حقيقته .. أفهمه على أنه نهاية واجبة ، لحياة
أكرهنا على تحمل متاعبها وآلامها . لقد فهمت الموت دائماً على أنه نومة مريحة ،
وأنا ما أحببت فى حياتى شيئاً كالنوم ، فهو ينزعنا من كل متاعبنا ومضايقاتنا .
ويتركنا فى خير حالة من الطمأنينة والراحة .

هكذا فهمت الموت دائماً ، وأنا منه بعيد ، وهكذا أفهمه وأنا منه غير بعيد .
لست أريد رثاء ولا بكاء .

فما ضايقتنى من فكرة الموت .. سوى شىء واحد ، خطر لى ذات مرة وأنا
أشيع جنازة صديق ميت ، وهو ولولة النساء وفزعهن ، فلقد كرهت أن أرى
ذوى فى مثل هذا الفزع والارتياح ، ولكنى حمدت الله ، أنى عندما أموت .. لن
أسير وراء جنازتى ، ولن أبصر هذا المنظر المروّع .

إنى أحاول المزاح ، وسأمزح حتى أموت ، فإنى على حال من التجلد
والقوة ، لا أشك فى أنها ستوقف رثاءك لى لو كنت تنوينه .

إنى على خير حال .

ليس هناك ما يضايقنى سوى ثلاثة أشياء .

أولها ، وأسوأها : هجرك ، ونسيانك .

وثانيها : هو مرضى زوجتى .. فأنا أحبها ، رغم كل ما فعلت بها من خيانات
فى عرف الشرع والناس ، أحبها الحب الهادى الدائم ، الثابت ، الباقي ، الذى لا

تبدو مظاهره ، ولكن لا تتزعزع أصوله .
لقد أصابتها حادثتى بصدمة أقعدتها ، وضاعفت هزالها ومرضها ، فلزمت فراشها فى الدار .

إن مرضها يضايقنى ، ويضايقنى أكثر من ذلك وجيعتها فى وألمها على ، وعجزها عن أن ترانى وتسهر على راحتى .

أما المضايقة الثالثة : فمبعثها أبى الشيخ .. إني لا أكاد أحتمل منظره وهو قادم إلئى كل يوم متكئاً على عصاه ، محاولاً الابتسام ، فلا يكاد يجلس إلئى حتى ينهمر الدمع الصامت من عينيه كالطرر .

وكم أحب هذا الشيخ ، وكم أكره دمه ، إني أراى صورة أخرى منه ، وأراه أكثر الناس فى هذه الدنيا فهماً لى . وتقديراً لطبيعتى .. إنه لم يحاول مرة واحدة أن يوجه إلئى نصحاً ولا لوماً ، بل كان دائماً شديد الإعجاب بكل ما أفعل .

إني أحبه ، وأكره أن أسبب له فجيرة بموتى .

آه .. ما أحب الموت ، لولا أحيائنا فى الحياة .. إن الموت يبدو فى عيونهم ، لأنهم يروننى شاباً ، ونافعاً وطيباً . ويحهم كأن الموت لا يأخذ سوى الكبار المعجزة الأشرار : ولكن ما هذا السخف الذى اندفعت فيه ؟

ما هذه الأقوال اللينة الضعيفة ؟
إني إن آبه بمن حولى ، لن أضعف قط ، سأخرج من الدنيا ، ضاحك الثغر مرفوع الهامة .

شئ واحد كان يزيدي ضحكاً ومرحاً وقوة ، وهو استمرار حبك .
لو أنك لم تخذلينى ، لكنت بلا جدال ، أحسن بكثير مما أنا ، ولكنى مع ذلك ، أستطيع أن أستعيض عنك ، بالكتابة إليك .. أجل .. أجل .. إن خير ما أفعل هو أن أكتب قصتك .. لقد سألتنى أن أكتبها ، وأنت لا شك تنتظرينها .. فمن النذالة أن أخذلك فأغادر الحياة ، قبل أن أكتبها لك .
لا بد أن أكتب قصتى الأخيرة .

حمدًا لله .. إن الجزء العاجز منى هو الجزء الأيسر .

إياك أن تشعرى لى برئاء أو بعطف .

إنى حقاً مشلول .. ذلك الجسد الطويل الفارع — كما كنت تسمينه —
والذراعان القويتان .. لم تعودا تستطيعان ضمك ، ولكن ما حاجتها إليك ،
وأنت هاجرة نائية ؟!

إن يمنأى تستطيع أن تمسك بالقلم .

وأنا بالقلم فى يمينى والورق أمامى أشعر بقوة خارقة . إن قوتى كامنة بين
أصابعى ، وفى قلمنى .. إنى أستطيع بها أن أفعل كل ما أريد .
لا يهمنى كثيراً إذا ما رقدت عاجزاً مشلولاً .

فإنك لن ترينى على حالى تلك .. ولكن ما يهمنى هو أن أستطيع أن أمسك
بالقلم وأكتب .. فكتابتى هى ما يمكن أن يصل إليك وهى التى يمكننى من أن أبر
بوعدى لك .. فأمنحك قصتك ..

راقداً على الفراش ممدود كما أنا .. وقد اتكأ ظهرى ورأسى على الوسائد ..
وضعت أمامى المنضدة الصغيرة المتحركة التى أتناول عليها الطعام وهى تكاد
تلاصق صدرى وعليها كوم من الأوراق .

والحجرة هادئة ساكنة لا أكاد أسمع من حولى إلا أقداماً تروح وتجيء فى الممر
بين آونة وأخرى ..

أنا لا أعرف علة ما بى .. فهو لاء الأطباء الأغبياء يأبون أن يقولوا لى إلا أنى
بخير وأن ما بى مسألة بسيطة .

لعنة الله عليهم . إنى أعرف أكثر منهم . إنهم يحاولون منعى من أى جهد ،
ولكنى سأكتب رغماً عنهم .

ليعاوننى الله على الكتابة .

وليهينى من لدنة قوة ، فلا يشتت ذهنى ، ولا يفقدنى وعى قبل أن أتمم

القصة .

وبهذه العزيمة ، وبهذه القوة ، وبهذا الرجاء من الله أمسكت بالقلم لأكتب قصتك .. وظللت أكتب ، وأكتب حتى تملكبني الإعياء .

لست أدرى ماذا كتبت .. وما موقعه من الجودة أو الرداءة ؟
إني متعب منك ، ويبدو أن ما كتبت به كثير من خلط وتشويش ، من أثر ذلك الذهن المتعب ، والجسد المنهك ، والنفس المريضة المرهقة .
كما يبدو لي أنني لم أكتب شيئاً يستحق النشر .. أو القراءة .
ويخيل إلي أنه لن يرضى إذا ما نشر عامة القراء .

ولكن مع ذلك أتعزى بأملين : الأمل الأول : هو سماحتهم وسعة صدرهم ، وتقديرهم لظروفي التي كتبت بها ما كتبت ، وأن يعتذروا بما أرضيتهم في حياتي عما ضايقتهم به في نهايتي .

أما الأمل الثاني : فهو ثقتي من أنها إذا لم تعجب عامة القراء كقصّة ، فإنها ستعجبك كرسالة .. ولقد كتبتها لك أنت ، فإن أعجبك فكفى بهذا تقديراً .
ولكني بعد كل ذلك تصيني بعض الوسوس بأنّها لن تعجبك ، فأنت قد تغيرت نحوي ، وتبدد من نفسك حبي وتطائرت مشاعرك .
أفلا يبعد ألا ترى بعد ذاك في قصتي .. سوى شيء يستحق السخرية ؟ . من يدري ؟

لقد حيرني تغيرك نحوي ، وجعلني أتساءل في عجب .. عن طبيعة البشر ، وتقلّهم .. وتلونهم .

لقد ضيعت ثقتي في نفسي ، وفي الناس جميعاً .
ضيعت ثقتي في الناس لأنني لم أعد أثق بعدما رأيت من اندفاعك ونكوصك في قول مخلوق أو إحساس بشر .
وضيعت ثقتي في نفسي لأنني ظننت أنني ككاتب أستطيع أن أتفهم نفسيّة الناس وأحلّلها تماماً .
ولكنني وجدت نفسي عاجزاً إزاء نفسيّتك .

ذلك الانقلاب العجيب ؟. كيف اندفعت في حبي

اندفعت في هجرى ونسيانى .

ألا يحق لى بعد هذا أن أتوقع منك سخرية بقصتى !. أو على الأصح
بقصتك ؟

أجل ! إنك قد تسخرين الآن من نفسك ، ومن نفسى ، ولقد قلت لك هذا
فيما مضى فأبيت أن تصدقيه .

إنى شديد القلق والضيق .. فأنى أكره أن أكتب شيئاً لا ينال الإعجاب ..
أكره أن أخرج من الحياة بغير تصفيق وأنا الذى تعودت دائماً .. أن أسمع
الإعجاب والتصفيق لكل ما كتبت .

لا بد أن أتمم القصة .

لا بد أن أضع لها خاتمة من عندى .. فأجعلك مثلاً تعودين إلى فى اللحظة
الأخيرة نادمة مستغفرة .. ولكن تجديننى قد انتهيت .

أجل ! أجل ! هذه نهاية جيدة ، ولكنى متعب الآن .

لندع الورق جانباً .. وسأتمها فيما بعد ، عندما أستريح . أجل .. سأكتب
لها خاتمة جيدة .. وسأجعلها من خير ما كتبت .

الجزء الثالث

شمس غاربة

النصف المحرم

١١

« سأكتب لها خاتمة جيدة .. وسأجعلها من خير ما كتبت » .
وانتهت « سامية » من قراءة هذه الجملة ، وأخذت تقلب الأوراق فلم تجد
بعد ذلك شيئاً .

وأحست بالدمع يترقق في مآقيها ، وحاولت عبثاً أن توقف انهماره .
إن الكاتب يكره أن يستبكي عيناً أو يستذرف دمعاً ، وهو لا يخشى أكثر من
أن يثير الشفقة أو الرثاء .. فهو يتناسك ويتجلد ، ويدعى القوة وهو مجروح
النفس ، مشلول الجسد ، مرهق الذهن .

أية قوة بعد ذلك قد تركها له الحجر والمرض واليأس من الحياة ؟
كيف يسأل قارئه عدم الرثاء ؟!

ولكن أين الخاتمة ؟! أتراه قد كتبها كما كان يريد ؟
إنه يخشى أن يخذله القارئ في آخر ما كتب .. يخشى أن يخرج من الحياة بغير
تصفيق ولا إعجاب ..

عجباً هؤلاء الكتاب .. ما أشد محبهم لكتابتهم .. أفي مثل هذا الموقف الأليم
يتوق للإعجاب والتصفيق ، ويخشى خذلان القارئ ؟

ولكن القارئ لن يخذله ، فهى لم تقرأ أروع من هذا شيئاً .. حتى ولو لم
تكن له خاتمة .. أجل .. إن هذه الأوراق على حالها من النقص .. تعتبر أحر
وأصدق ما قرأت .. إنها شئىء حتى .. إنها مشاعر زاهرة متدفقة ، لا حبر على
ورق ، ولا حديث يقص ، أو قصة تروى .

ولكن .. أترى قد حدث هذا حقاً ؟ أهذا الذى قرأته أمر واقع .. أم مجرد
قصة ؟! وإذا كان مجرد قصة فلماذا لم تطيع ؟ ولم تركت في هذه الأوراق القديمة
الباهتة ؟ وماذا أوصلها لأمها ، وما دخلها بها ؟

ولماذا أعطتها إياها في هذه الظروف العجيبة اليايسة ؟ أتراها تريد أن تخفف من مصابها بإعطائها أمثلة من بعض مصائب الناس ؟
إن الأمر يحتاج إلى تفسير ، فهذه المذكرات — رغم قوتها وشدة تأثيرها — لا تعتبر حلاً لمسألتها ولا تفسيراً لها .

وكانت تحس بعد قراءة المذكرات بإرهاق شديد ، فقد زادت بأساً على بأس وحزناً على حزن .. وودت لو ظلت ممتدة في فراشها مستغرقة في النوم ، ولكنها كانت تعلم أن النوم لن يقرب من أجفانها .
وألقت بنظرة خاطفة على الساعة الصغيرة الموضوعة على المنضدة ، وغادرت الفراش ممسكة بالأوراق في يدها . . .

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ، وكانت تخشى أن تكون أمها قد آوت إلى فراشها ، فسارت تسترق الخطى إلى غرفة نومها ، ومدت رأسها من خلال الباب فوجدت الفراش خالياً منها .

وعبرت الحجرة إلى الشرفة المظلة على الحديقة فوجدت أمها قد جلست على الأريكة شاردة ببصرها في أنحاء الحديقة التي لفتها الظلمة .

وانخذت « سامية » مجلسها بجوارها ، ثم مدت يدها بالأوراق متسائلة :

— أما زالت لها بقية ؟ إن الخاتمة لم تكتب بعد !

وأمسكت الأم بالأوراق في رفق ، وأجابت وهي تهز رأسها :

— ليست لها بقية .. لقد ذهب قبل أن يكتبها .

وبدأت الأسئلة الحائرة تتراحم على شفتى الفتاة .. من هو ؟ وما علاقته بها ؟ ولم أعطها هذه المذكرات في هذا الوقت بالذات ؟ وما صلة ذلك كله بالصدمة المفاجئة التي تلقتها اليوم ؟ أحقاً ما قالت العجوز ؟ إن هذا أمر مستحيل ! إن العجوز تهذى بما لا تعى .. هذه لا شك خرافة ! ولكن لِمَ لا تتحدث أمها ؟ لماذا لم تجب ؟ لماذا لم تنكر ؟ بل لماذا لم تسخر وتقهقه ضاحكة ؟

إنها لم تفعل شيئاً من هذا كله ، بل بهتت ووجمت .
وبعد كل هذا لم تقل شيئاً ، ولم تجب بنعم أو لا .
أو على الأصح لم تجب بـ « لا » ، فإن إجابتها في الواقع لا يمكن أن تكون
« نعم » .

أجل ! إنه لا يمكن أن يكون هناك أبداً تعليل للمسألة .
لم تقل الأم « لا » ، وكل ما فعلت هو أن أعطتها هذه الأوراق لقراءتها .
وقد ظنت الفتاة في ذهولها ودهشتها ، أنها ستجد فيها تفسيراً لهذا اللغز
المعجب والمسألة المعقدة .

ولكنها مع ذلك لم تكذب تنهت من قراءتها حتى زادت دهشتها .
واستمرت الأسئلة تلح في ذهنها ، دون أن تجسر على الإفصاح بها .
وعادت الأم تتمم قائلة :

— أجل ! لقد ذهب قبل أن يكتب الخاتمة ، ولكني أعرف الخاتمة ، أعرفها
جيداً ، وأستطيع قصتها عليك .

وهمت الفتاة بأن تصيح : « ليس هذا وقته يا أماه .. أجيبي أولاً ، دعي
الخاتمة الآن ، وقولي لي أهو ابنك حقاً ؟ أريحي نفسي المعذبة بالشكوك ، قولي لي
إنه ليس ابنك .. وإن العجوز الغبية مجنونة محرقة ! أريحيني يا أماه ! » .

ولكنها كانت تكره أن تؤلم أمها ، إنها تحبها أكثر من أي شيء في هذه الحياة ،
وقد رأت كيف أذهلها النبأ وكيف صدمها وتركها مشدوهة حيرى .. فلماذا
تلح عليها بما يزيد في إزعاجها .

وأكثر من هذا كانت تخشى الإجابة والتوضيح ، فقد كان مظهر أمها لا
يوحى بخير ، بل يوحى بكل عوامل الشر وينبئ أن المسألة لا شك صحيحة ..
فإنها لو لم تكن صحيحة لاستطاعت أن تقول ببساطة : لا .. إن هذا كذب ..
إن هذا مضحك .

ولكنها أيضاً لو كانت صحيحة ، فقد كانت تستطيع أن تقول أيضاً ببساطة :

نعم ، إنها صحيحة ، إنه ابني ، إنه أخوك . ولكنها .. لا تقول شيئاً .. ربما لا تريد أن تصدمها وربما تريد أن توضح لها أشياء خافية ، وأسراً دفينية .
على أية حال ليس أمامها إلا الصبر والانتظار .
ليس عليها إلا أن تسمع الخاتمة ، كما قرأت المذكرات
وبدا صوت الأم ينبعث خافتاً مثبداً ، وسط السكون السائد ، لا يشوبه سوى حفيف الأوراق ، يحركها النسيم .

قالت الأم :

— إنى أعرف الخاتمة ، وأعرف الكثير مما قبل الخاتمة
أعرف الكثير مما لم يعرفه هو .

أعرفها ، وهى طفلة يتيمة .. لا تذكر عن أبيها إلا مجرد صورة باهتة .. أما عن أمها فهى تذكر بسمه حلوة ، وضمة حنون .. لم يتركها القدر تنعم بهما فى طفولتها طويلاً .

ووجدت نفسها ، وهى فى الثامنة تغادر دارهم فى أسبوط نازحة إلى القاهرة لتستقر فى بيت خالتها .

لقد قالوا لها عندما مات أبوها إنه قد سافر ، وظلت على هذا الوهم حتى ماتت أمها ، ولكنهم فى هذه المرة ، لم يبالوا بأن يخفوا عنها حقيقة الأمر ، فقد كانت أكثر فهماً لحقائق الأمور ، ولم يكن هناك من يهيمه كثيراً أن يجنبها الأحزان بإخفاء الوفاة .. لقد كانت أمها هى التى جنبتها الأحزان فى أول مرة .. أما فى المرة الثانية ، فقد كانت أمها نفسها هى الميتة .

ورحلت إلى القاهرة ، وبذهنها الصغير ذكريات حلوة عن أسبوط ..
ذكريات لهو ومرح ولعب وضحك وحنان وتدليل .

كانت تحب كل ما يذكرها بطفولتها ، وبأمها .. كانت تحب الصيف ولياليه ، فقد كانت تذكر لعبها مع الأطفال على شاطئ النيل ، وكانت تذكر

ليالى الحر عندما كانوا يصعدون بالأسرة فوق سطح الدار ، وكانت أمها تروى لها الأقاصيص ، وهى ترنو إلى السماء محدقة فى النجوم اللامعة حتى يأخذ الكرى بمعاقد أجفانها .

ولم تقبل على القاهرة إقبال مستبشر . فما توقعت فى بعدها عن منبتها الجميل ، وفى فرقتها عن أمها المحبوبة أى خير ، ولم تسعر كثيراً بطول السفر ولا ملله ، فقد راحت فى إغفاءة طويلة من فرط التعب لم تفق منها إلا على ضجة المحطة وأصوات المسافرين .

وهبطت من القطار تشق طريقها بين الأجساد المتراخمة وقد أمسك بيدها « زوج خالتها » يتقدمه بعض الأقرباء .

وكان الوقت مبكراً ، ولم تلتقط عيناها الكليتان من القاهرة المستيقظة سوى مناظر سريعة خاطفة : المسافرين يتحركون فى عجلة ، والحمالين بوجوههم المجعدة العابسة وحناجرهم الصائحة الصارخة ، وعربات التاكسى تروح وتجيء .

وأخيراً استقر بها المقام فى إحدى هذه العربات ، وسمعت صوت الرجل الجالس بجوارها يقول للسائق :
— مصر الجديدة .

ولم تميز كثيراً من مشاهد الطريق .. فقد كانت العربة تعدو مسرعة كأن بسائقها مساً من شيطان ، وكان ذهن الصغيرة قد شرد بها فيما توشك أن تحل به ويحل بها .

إنها ذاهبة إلى بيت خالتها « زينب » فقد أنبأها زوج خالتها « أحمد بك » أنها ستنزل فى بيتهم .

وهى تحب « أحمد بك » فهو رجل طيب ودود حنون حلو الحديث ، لطيف المعشر ، وفى بضع المرات عندما زارهم فى أسبوط أو زارتهم هى وأمها فى دارهم فى القاهرة كان يغمرها بالهدايا ويفرقها بالتدليل .

ولكنها مع ذلك كانت توجس خيفة من بيتهم ، ولم تكن تشعر بارتياح كبير إلى استقرارها فيه .

كانت خالتها « زينب » هي سبب هذه الخيفة .. فقد كانت دائمة العجوس ، شديدة التجهم .. متوترة الأعصاب ، لا تكف لحظة عن الشكوى واللوم والتأنيب والتفريع .

لم تكن الصغيرة تحبها .. فقد كانت تمنعها من اللعب واللهو ، وتؤنب أمها على تدليلها لها .. زاعمة أنها « ستلفها » قائلة إنها لو كانت ابنتها لعرفت كيف تربيتها .

والآن ، وقد سنحت لها الفرصة .. فهي ستعرف كيف تنفذ وعيدها وتربيتها .

وثمة أمر آخر كان يزعج الصغيرة .. هو أنها لن تجد في البيت أطفالا تلهو معهم .. إنها ستكون وحيدة بين المرأة وزوجها .. أو على الأصح ستكون وحيدة بين برائن المرأة .

ولكن لماذا لا تذهب إلى بيت عمها ؟

إن عمها رجل طيب ، وزوجته امرأة رقيقة ، وهي تستطيع أن تلعب مع بنات عمها وأولاده .

كان يجب عليها أن تذهب إلى بيت عمها ، فهو خير بكثير من بيت خالتها .. ولم لا تذهب ؟

ولكن قد لا يريد لها عمها ، فهي لا تذكر أنه قد زارهم كثيراً ، وما كانت والدتها تذكره إلا نادراً .

على أية حال لا فائدة من كل هذا .. فما كان أمامها مجال للاختيار ، إنها لا تملك إلا الذهاب حيث يأمرونها .

وأخيراً توقفت بهما العربية أمام إحدى العمارات الكائنة في أول مصر الجديدة ، وهبط الرجل ووراءه الطفلة وتبعته صاعدة إلى الطابق الذي يسكنه .

ووقفاً بالبواب برهة قبل أن تفتح الخادمة ، ولم تكن خالتها قد استيقظت بعد .. فأمر « أحمد بك » الخادمة بأن تغسل لها وجهها ، وتغير لها ملابسها ، وتبهي لها إفطارها ثم تضعها على إحدى الأرائك لتسترخ . واستسلمت هي للخادمة ، ففعلت بها ما أمر به سيدها ، وتناولت قطعة صغيرة من الجبن ، ثم اضطجعت على أريكة في إحدى الحجرات وأغمضت عينيها .

وكانت تعلم أن خالتها مريضة ، وأن مرضها قد حال دون ذهابها مع زوجها إلى أسبوط . على أية حال ما تظن ذهابها كان مجدياً شيئاً .. لقد انتهى كل شيء . وشردها الدهن في أمها .

أحقاً أنها لن تراها بعد الآن ؟! أمعقول هذا ؟
أيمكن أن تتركها هكذا وحيدة ؟ لا . لا . إنها لا شك عائدة في القريب !
إن التفكير في أنها لن تراها بعد الآن ، أمر متعذر ، بل مستحيل .
إنها سترها .. سترها .

وقطع عليها حبل تفكيرها صوت « أحمد بك » يناديها قائلاً :
— تعالى ... خالتك تريد أن تراك .

وذهبت إليها .. وكانت ترقد في حجرة وثيرة الفراش فاخرة الرياش ، واقترب منها حتى وقفت بجوارها هيابة وجللة . ومدت السيدة ذراعيها فضمتها إليها وأغرقت وجهها بالدموع والقبل .
كانت المرة الأولى ، والأخيرة .. التي تتلقى منها قبلاً ، وتبصر لها دمعاً .
دقائق معدودات بدت فيها إنسانة ذات مشاعر رقيقة ، وذات قلب يخفق ، ونفس تنحن .

لقد هزتها الصدمة .. وأبكاهها منظر الطفلة اليتيمة الوحيدة في الحياة ، ولكن ليس لأكثر من بضع لحظات عادت بعدها إلى طبيعتها القاسية ، ومشاعرها المتحجرة ، ونفسها الثائرة الحانقة .

وبدأت الطفلة حياتها الجديدة في بيت خالتها ، ولم تمر بضعة أيام حتى تبينت أن ظنها قد صدق ، وأنها مقبلة على حياة جافة شاقة لا خير فيها .
حياة خلّت من العواطف والتدليل ، واللهم واللعب .

إن خالتها قد نوت .. أن تجرب فيها تربيته الجادة الصارمة .. أو هي — على وجه أدق — لن تملك لها أكثر من تلك التربية الجادة الخشنة .. فهي امرأة قد خلقت جافة بطبعها ، عبوساً متشائمة ، نفوراً مستوحشة .. وقد زادت ظروف حياتها تبرماً وضيقاً وجفافاً ، فهي لم تنجب بنين لزوج يحب البنين ويميل إلى البهجة والطرب والمجتمعات ، وهي شديدة القلق على نفسها دائمة الخوف من أن يفلت منها زوجها .. كثيرة الشكوك في الناس لانفتاح تنوهم منهم التآمر عليها لنزع زوجها منها ، ولا تفتأ تتوقع في كل لحظة أن يعلنها زوجها أنه سيتزوج ثانية لهنجب بنين .

وبهذا الوجل والشك والخوف والاضطراب زادت نفسها ضيقاً ونفوراً ، وزادت أعصابها توتراً ونفسها ثورة وانفعالا .
تلك هي نفسية المرأة التي وجدت الطفلة نفسها بين برائتها ، وتحت رحمتها وسيطرتها .

وهوّن على الطفلة حلول موعد استئناف الدراسة وقضاء معظم وقتها خارج الدار بعيدة عن تأنيب المرأة وتفريعاتها ، ولكنها مع ذلك كانت تجد في الفترة التي تقضيها في البيت ما هو كفيل بتعذيبها وإيلام نفسها .
ولم تكن الصغيرة تملك إلا الاستسلام التام .. لأنها لم تجسر على أن تعترض على شيء .

أجل .. لم تجسر على أن تعترض على مكان نومها .. رغم أنه قد أوجد في نفسها رعباً شديداً .. لقد ضاقت الشقة على سعتها بالطفلة .. فلم تجد « خالتها » مكاناً ترقدها فيه سوى حجرة المائدة ، فنصبت لها فراشاً بجوار الثلاثة الكهربائية ، إذ كان المكان الوحيد الذي رأيته خالياً في الشقة .

ولم تكن لتهم كثيراً بالموضع الذى ترقد فيه .. فأى مكان كان يرضيها ،
ولكن هذا المكان بالذات كان مريعاً .

لشد ما كان يخيفها ذلك الصوت الذى تحدثه الثلاثية بين آونة وأخرى .. لقد
كان يصدر فى صمت الليل وظلمته صوتاً أشبه « بالقر » الصادر من جوف
حيوان متوحش .

كانت دائماً تتوهم وراء الصوت وحشاً جائماً فاغراً فاه يوشك أن يطبق عليها
بأسنانه وينشب فيها مخالبه ، ولم تكن تملك إلا أن تغطى بالملاءة وجهها ،
وتنكمش حتى تضع ذقنها فى ركبتيها وأصابعها فى أذنيها ، ولكنها مع ذلك لا
تلبث حتى تسمع « القر » الخفيف خافتاً مبحوحاً وكأنها بالصوت — أو بالوحش
— قد ابتعد قليلاً .

ومرّت بها الأيام والأشهر والسنون وهى محتملة فى صبر فقد تعودت الجفوة
والإهمال ، والتأنيب واللوم ، والحنق والغضب .. ولكن شيئاً جد عليها لم تكن
قد تعودته بعد ، وهو الضرب .

لو أنها كانت شريرة أو مخبطة .. لكانت تستطيع أن تحتمل بسهولة كل ما
يوجه إليها .. ولكنها وهى ترى نفسها تبذل كل جهد لا تفعل ما يثير خالتها وحتى
لا تتمهم بالإهمال أو بالكسل .. ترى نفسها بعد ذلك فى موضع المذنبية الدائمة ..
التي لا تنفك تعتمد الإلتلاف والفسناد .

لقد عودت نفسها الصبر على الأذى ، واحتمال القسوة .. فلم تحاول
الشكوى أو التبرّم .

كانت إذا حاولت العمل فى البيت اتهمت بأنها تقصد العبث ، وكانت إذا لم
تعمل اتهمت بأنها مكسالة مدللة .

وفى ذات يوم نهرتها خالتها على عمل فعلته فقالت لها بهدوء :

— إنك أنت التى أمرتنى أن أفعله .

فصرخت فى وجهها حائقة :

— أنت كذابة شريرة مفسدة .

ولم تملك الصبية سوى الصمت .. وفي الليل آوت إلى فراشها وسكبت من عينيها دمعاً مدراراً .

وبعد بضعة أيام أمرتها خالتها بأن تفعل ذلك العمل الذى أنبأها على عمله .. فدهشت الصبية وتملكها الحق وأجابت :

— إني لن أفعله .. لأنى كذابة شريرة مفسدة .

ولم تتالك المرأة القاسية نفسها ، فرفعت يدها وهوت على وجه الصبية بصفعة أليمة ، ثم انهالت عليها باللطمات ، واندفعت فى ثورتها فأمسكت بعضا كانت فوق المنضدة وهوت بها على ظهرها .

كانت وقتذاك فى حوالى الثانية عشرة ، ووقفت صامدة للضرب فلم تقاوم ولم تفر ولم تبك .. بل تحملت الضرب حتى كَلَّت يد المرأة وحتى تهاوت هى نفسها متشنجة باكية .

كانت المرأة تجعل من الصبية مخرجاً لكل همومها ، ومتنفساً لغضبها على حياتها القلقة اليائسة .

وفى الليل .. جلست الصبية فى الفراش واجمة صامته لا يغمض لها جفن ... كانت تحس بأوجاع شديدة فى ظهرها ، ونهضت إلى المرأة وكشفت عن ظهرها فإذا به ملء بخطوط زرقاء متورمة ، وانهارت نفسها فارتعت على فراشها باكية موجهة .

وهكذا وجدت أن عليها أن تتحمل نوعاً جديداً من العذاب والألم لم تتعوده من قبل .. وهو الضرب .

لقد باتت تتوقع من المرأة كل ضروب الأذى ، وكل أنواع الشرور ، ولم يكن يغريها إلا فترات عطف متباعدة كان يغمرها بها الرجل الطيب — زوج خالتها — بين آونة وأخرى .

ولكن حتى فترات العطف هذه أخذت تقل رويداً رويداً .. فقد كانت تثير

مشكلات بين الرجل وزوجته . إذ كانت تدعى أنه يحاول بتدليله إفسادها .
وقد خيل للصبية في بادئ الأمر — وهي تسمع المشاهدات بين الاثنين من
أجلها — أن المرأة غيرة حقاً على تربيتها ، وأن كل هذه القسوة لا تقصد بها إلا
مصلحتها ، حتى بدأت الأيام تتكشف عن أمر لم يكن يخطر لها ببال .
لقد وضع لها .. أن المرأة تغار منها على زوجها .

لأى والله ! هذا هو ما تبينه فعلاً !
مجنونة ولا شك ، فما من مخلوقة عاقلة تغار من طفلة في الثانية عشرة على زوج
يقرب من الخمسين ؟

إنه أمر لا يصدق ، ومع ذلك فقد كان هو الواقع .
لقد حدث ذات مرة أن أحضر لها هدية صغيرة فتقبلتها شاكرة ، ولكنه سألها
ضاحكا ، وهي تهم بالانصراف :

— أهكذا .. شكر حاف .. بلا قبلات ؟!
وضحكت الصبية ، وعادت إليه ، ثم أحاطت عنقه بيديها الصغيرتين ،
وطبعت قبلة على خده ، فقبلها الرجل في حنان وقال ضاحكا :

— هكذا يكون الشكر .. يجب أن يحصل الإنسان على ثمن الهدية .
وأقبلت المرأة على الصبية ، وهي تقبل زوجها ، وهو يرد عليها القبلة ،
فتصاعد الدم إلى وجهها وصاحت حانقة :

— لم يكن ينقصك إلا هذا العيب ؟!
وأسرعت إليها فجذبتها من ذراعها في حقد ، واستمرت تقول في لهجتها
الحارة :

— إنى أستطيع أن أحتمل كل سيئاتك ومفاسدك ، إلا هذا .. يجب أن تفهمي
أني لن أسمع لك بأن تخزني بيتي .. أتفهمين ما أقول ؟
وذلت الصبية . ولم تدر بم توجب ، ولا ماذا تقول .. ولم تملك إلا أن
تراجع في ارتياح وتفر من أمام المرأة الغادرة المتوحشة .

- وصاح الرجل فى دهش :
- ما هذا الذى تهرفين .. أجننت ؟!
- وصرخت المرأة فى وجهه :
- صه .. إنى لن أسمع بهذا العبث فى بيتى .. لن أسمع لئلا هذه الشيطانة الصغيرة أن تسلبنى زوجى !
- كفى عن هذا الجنون ، يجب أن تكونى أكثر عقلاً ! إنها ليست ابنتى فحسب .. بل إنها حفيدتى .. إنها ما زالت طفلة غريرة ..
- طفلة ! إلى متى ستستمر طفلة ! .. إن صدرها قد نبت وأضحت امرأة لها أنوثتها .. إنى لست بلهاء .. إنى أفهم كل شىء تماماً !
- إنك لا تفهمين شيئاً مطلقاً !
- أنا أفهم كل شىء .. وإن لم تكف عن هذا الجدل العقيم سأترك لك البيت .. إنى لم أعد أحتمل .. إما أنا أو هى .
- أرجوك أن تهدئى ، وأن تخفضى صوتك .. هذا كلام لا يمكن أن يصدر قط من عاقلة مثلك .
- عاقلة أو غير عاقلة .. إنى لم أعد أحتمل ، أنا مجنونة فإذا كنت تريدنى مجنونة كما أنا ...
- لا داعى لكل هذا . إن الطفلة طيبة هادئة .
- لا تقل عنها طفلة .. إنها امرأة ماهرة .
- هبى أنها كذلك ، ولكنها ابنة أختك اليتيمة !
- لقد احتملتها كثيراً ، وإنى على استعداد لتربيتها .. ولكنى لست على استعداد لأن أخرب بيتى من أجلها .. ليكون هذا مفهوماً لديك .
- وماذا تريدن إذا ؟
- أن تغادر الدار .
- إلى أين ؟

— إلى مدرسة داخلية .

— وفي أثناء العطلة ؟

— تنزل في بيت عمها ، وأنا على استعداد لدفع كل ما يلزمها من المصروفات .

كل هذا الحديث كان يبلغ مسامعها ويقع عليها وقع المطارق ، وهى قابضة في فراشها ، دافئة وجهها بين ركبتيها .

ولم تستطع أن تفهم سر غضبها في بادئ الأمر ، إذ لم يخطر لها ببال أنها يمكن أن تغار منها ، أو أنها قد بلغت من الأنوثة ذلك المبلغ الخطر .

وأحست بالآلام تنهش قلبها ، وهى تصر على طردها من المنزل ، ولكن لم يكذبتهى الحديث بإصرارها على أن تذهب إلى المدرسة الداخلية ، وتعيش في بيت عمها ، حتى أحست براحة كبرى .

وهكذا بدأت الصبية مرحلة جديدة من حياتها قد خلت من المرارة والتعذيب .

وأقبلت على حياتها بأمل جديد ، وخيل إليها أنها قد تخلصت نهائياً من منغصات الحياة ومتاعبها وآلامها .

ولكن هل تخلو حياة إنسان من منغصات وآلام ؟

إن الصبية قد أصيبت بمزلة كانت سبب مصابها في حياتها فحق عليها القول (ويتلى الله بعض القوم بالنعم) .

كان بالصبية ما يجذب الناس . كانت دائماً موضع إعجاب واستملاح .. ولا شك أن هذا ما أثار خالتها وزادها جنوناً على جنون ، فتوهمت في الصبية الصغيرة خصماً قوياً قادراً على أن يسلبها زوجها .

فلما انتقلت إلى بيت عمها ، بدأت منغصاتها .. مما كانت تظنه سيكون مبعث سرورها وتسليتها .

كان خير ما أسعدها عندما تقرر نقلها إلى بيت عمها ، هو أنها ستجد من ابنتي

عمها اللتين تقاربانيها سناً خير صديقتين تلهو وتمرح معهما ، ولكن لم يكدهم يمضي بها الزمن حتى وجدتتهما أكبر سبب لشقاها ، منغص لحياتها .

لقد أمضت الأيام الأولى وهي سعيدة هائلة ورحبت بها زوجة عمها وبقية أهل الدار كما يرحبون بضيف مؤقت المقام .. عاجل الرحيل .. ولكن لم تكده تنقضي الأيام الأولى ويتعودون إقامتها حتى بدأت تتكشف لها خصالهم وأخذت المعاملة تتبدل .

لم يعد أحد يعبأ بها ، بل أضحت تلقى بروداً من الجميع ، ولم يحزنها ذلك كثيراً فقد تعودت في ماضيها شراً منه .

وقالت لنفسها : تلك هي طبيعتهم ، وأنا لن تفترض منهم أن يولوها اهتماماً دائماً .

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد بدأت الفتاتان ابتنا عمها تتخذان منها موقف الخصومة ، وأضحى لسان حالهما « أنا واخويا على ابن عمي » .

كانت الفتاتان دميمتين ، ولم يكن هناك سبيل للمقارنة بينها وبينهما .. في كل النواحي .. الظاهر والباطن .. الشكل والعقل ، وهكذا نشأت بينها وبين المخلوقتين — اللتين توقعت منهما أن يكونا لها خير عزاء في حياتها الموحشة — هوة عميقة .

لم يكن هناك وجه للتفارب والتصادق .. فقد كانت هي من طينة .. وكانت من طينة أخرى . كانت حساسة مرهفة شاعرية ، وكانت تافهتين ماديتين سطحيين .

ومع ذلك فقد بذلت جهدها لاستمالتها .. ولم تحاول أن ترد على فظاظتهما بغير الرقة .. وعلى غلظتهما بغير الأدب ، وكانت تحيب على نقدهما المر بمدح عذب ، وقول رقيق مهذب .

ولم يكن لها أمل بعد ذلك في غير المدرسة الداخلية التي تقرر إدخالها فيها ، وقد سرّها أن تكون مدرسة أخرى غير مدرسة الفتاتين ، فقد أصبحت زاهدة في

عشرتهن ومرافقتهن .

وبدأت حياتها في المدرسة الداخلية فوجدت فيها كثيراً من عزاء ، وإن كانت الوحدة قد باتت تضنيها .

لم تجد هناك من يسأل عنها ، حتى أيام العطلات حيث كان مفروضاً أن يحضروا لأخذها فيها كانوا يتركونها في المدرسة ولم تكن في الواقع راغبة في الخروج لأنها ستجد ما يفرحها ، ولكنها فقط كانت تخرج من أن تبدو أمام الفتيات أنها وحيدة ليس هناك من يهتم بها أو يسأل عنها .

وأخذت تعجب من هذه الحياة التي قست عليها في كل أطوارها ، ومن هؤلاء البشر الذين خذلوها بكل أنواعهم .

كانت تجد المادية أمامها .. في كل مكان تحل به ، وكانت تبين الأناية في كل شخص تلقاه .

كل الناس مشغولون بأنفسهم .. كل يقول .. أنا .. أنا . ما من أحد قال لها .. أنت .. أنت .

خالها المجنونة التي غارت منها وهي طفلة .. وزوجها الذي تخلى عنها خوفاً على بيته وأمنه وحياته .. وبنات عمها وبقية أقرائها .. ما من أحد قد أحس بها .. والصديقات في المدرسة .. تافهات .. ماديات .. لا وجه قط للتقارب بينها وبينهن .. كل فتاة لا تقدم إلا على ما فيه نفعها .. ولا تبحث إلا عن مصلحتها .

وهؤلاء الفتيات الذين صادفهم سواء أكانوا أصحاب أولاد عمها أو إخوة صاحباتها ، والذين كانت تلهو بالرقص معهم في الحفلات التي تقيمها ابنتا عمها في الدار .. لقد كانوا أكثر تهاوة وسطحية وسخافة .. عجباً هؤلاء الناس ! إنهم أشبه بالزبد الذاهب جفاء .. لا عمق ولا جوهر ، ولا شيء قيم يرسب منهم في قرارة نفوسهم .

ومرت بها السنة تلو السنة ، وكلما زادت في التمز زادت نفسها حناسية
وقلبها إرهافاً ، وزاد مع هذا مبلغ شقائها ، وإحساسها بالفراغ والوحشة من
حولها .

كيف يعيش هؤلاء الناس ، وهم أشبه بالقلب الفارغ أو الطبل الأجوف ؟
لشد ما تشقى بهم .. وبحياتها .. لو أن أمها ما زالت موجودة ، لما أحست
بشيء من ذلك .

ولكن أترى الخطأ فيها .. أم في كل من حولها ؟. إن الخطأ لا شك فيها .
فالمسألة قياسية ، ولو كان الناس كلهم محطّين وهى على صواب ، فإنها تصبح
بذلك هى المخطئة .

إن العاقل بين المجانين .. مجنون بين عقلاء .
إن الشذوذ فيها .. إن الخطأ كامن فى نفسها .. كان يجب أن تكون سطحية
نافهة وتنطلق مع الركب لاهية عابثة راقصة .
أليس من الشذوذ أن تجلس فى الليل لترقب النجوم ، وتستمتع لحفيف الأوراق
وهديل الحمام ؟! أليس من الشذوذ أن تجلس لترقب الغروب ، وتتأمل حمرة
الشفق تكسو هام الأشجار ؟
إنها شاذة أن تفعل هذا وسط أناس يعدون فى العربات وينغمرون وسط الأتربة
ويضحون بالصياح .

كان يجب أن تقلع عن تأملها وشاعريتها ، وتندمج معهم وسط الضجيج
والصخب .

ولكن أتراها تستطيع ذلك ؟ لقد حاولت فباعت بالخيبة والخذلان. لقد
أجهدا الضجيج والانطلاق وأتعبتها مشاركة صاحباتها وأصحابها رقصهم
ومجونهم ، فعادت ترقب النجوم والأشجار والشمس الغاربة والقمر المشرق فى
صمت بهيج وسكون ممتع .

كانت تتوق وسط ذلك الهدوء إلى إنسان ينقصها .. إنسان شاذ مثلها ،
يشاركها شذوذها ، ويجلس معها ليرقب ما ترقب ويسمع إلى ما تسمع ، دون أن
يسخر منها أو يهزأ بها .

كانت تحس بحاجتها إلى مخلوق غريب ، غير السائرين في القطيع ، المتشابهين
في السخف ، المتماثلين في التفاهة .

أترى يوجد في الحياة مثل هذا المخلوق الذى يماثلها في الشذوذ ؟ أم أنها
الوحيدة الشاذة في هذه الحياة ؟

ومر بها الزمن وهى فى وحدتها القلبية ووحشتها الذهنية تشارك أصحابها
حفلاتهم الراقصة دون أن يشاركها فى مشاعرها أو تفكيرها مخلوق ، حتى تملكها
اليأس من العثور على شبيهها فى الحياة .

وفجأة ، وبعد طول يأس وانتظار وجدته .
أجل ! وجدت نصفها الآخر .. زميلها فى الحس المرهف والشاعرية الذائبة
والشعور الرقيق .

لقد رأته بضع مرات ، قبل أن تتبين حقيقته .. رأته يرقبها من بعد فلم تجد
به ما يميزه عن سائر الناس .. لقد كان يرقبها كما يرقب سواها وكما يرقبها سواه .
وحاول مرة أن يحادثها بطريقة صبيانية ، فصدته .. كما صدت غيره من
قبل .. ثم دفعته الظروف إلى الجلوس معها ذات مرة فتكشفت لها نفسه .

لقد تبين لها أنه كاتب ، وأهداها بعض كتبه ، فاستشفت من كتابته .. عمق
نفسيته وشاعريته .. واندفعت فى القراءة له بشغف .

وما من شك هناك فى أنها كانت مخلوقة سيئة الحظ .. قد نقش لها القدر فى
لوحه بالخط العميق العريض كلمتى : « شقاء وفشل » .

وسط هذا الخضم المتلاطم من البشر التافهين الماديين الأنانيين ، وفى هذا
الفراغ العريض من الوحشة والوحدة يلوح لها .. المخلوق الفرد ، الذى طال بها

التهلف عليه والذي نادته في كل ترقب لها للنجوم ، وسمعت صوته في تغريد كل
طير هادل .. وورقاء هتوف .. ذلك المخلوق الذي أبصرته بعين الوهم في كل
شفق منمق ، أو زهرة موشاة ، والذي أحست بأنفاسه في كل هبة نسيم ونفحة
طهب .

ذلك المخلوق التوأم الصنو من بين كل هذا القطيع الغريب المنطلق الذي لا يمت
لها بهصلة رلا شبه .. يلوح لها أخيراً .
فإذا به .. من بين البشر جميعاً .. محرم عليها .

أما من نظرة

١٢

يا للسخرية !

أما كان أولى بالقدر أن يبعده عن طريقها .. ويخفيه عن عينيها ويجعلها تظل هائمة شاردة ؟

أما كان ذلك خيراً من أن يلوح لها به ليقول هذا مطلبك وتلك أمنيته ، فإذا ما مدت يدها لأخذه سحبه منها قائلاً في سخرية .. لا .. لا .. إنه محرم عليك ، إنه ملك لغورك ؟

لقد شغفت به حباً .. شغفت به هو ، وليس بكتبه ، كما ظن في بادئ الأمر ، وكما كتب في مذكراته .

لقد كانت كتبه معبرها إلى نفسه .. إنها لم تحب الكتب لذاتها ولكن لأنها عرفتها بنفسيته وبقلبه وبذهنه وبشخصيته العميقة التي تفيض حباً وسكينة وإيماناً .

لقد كانت تبصره في كل كلمة وبين كل سطر ، ووراء كل صفحة .. كانت تقرأ كتابته وهو في ذهنها .. ما قرأتها قط كما يقرأ كل إنسان أى كتاب ، بل كانت تقرؤها كأنها تستمع إليه ، وكأنها تراه يتحرك فيها .

ولكنها مع ذلك لم تملك إلا أن تقول إنها معجبة بكتابته وأنها تحب كتبه .. فقد كان ذلك هو الشيء المباح الذى تستطيع أن تقول به بلا حرج .. بل كان الشيء الذى تستطيع أن تعزى به نفسها عنه .

أجل .. لقد عرفت منذ اللحظة الأولى أنه زوج ، ولم يكن فى وسعها إلا أن تصد نفسها عنه .. وأن ترغم قلبها على اليأس منه فهو كفرد ملك مخلوقه سبقتها إلى امتلاكه . إنه بشخصه .. شىء خاص ، وليس ملكاً مشاعاً .

أما بكتبه ، وبوصفه مؤلفاً ، فقد كان ملكاً مشاعاً .. يشترك فيه آلاف القراء والقارئات المعجبين والمعجبات .. وما أظن أن هناك ما كان يمنعه أو يحرم عليها

مشاركة هذه الآلاف في تقديره والإعجاب به .
وقنعت بهذا ، أو على الأصح لم يكن لها مفر من القناعة بهذا .. فقد كان
شيء .. خير من لا شيء ، ولا أظن المهجر الصادى الذى يتلهف على غدير يروى
ظمأه ، برفض ورود الغدير .. عندما يقال له إن الغدير يشاركه فيه بقية البشر .
ولا أظن المرتجف المقرور برفض طلوع الشمس إذا عرف أنها ستطلع لتدفقه .
وغیره من المخلوقات .

كذلك كانت محاولتها في إقناع نفسها ، لقد قالت إنها طالما تآقت إلى أن تجد
إنساناً يشبهها في الشذوذ والشاعرية والإرهاق ، أفلا تحمد الله على أنها قد
وجدته ؟ وعلى أنه يستطيع أن يغمرها بشاعريته وإرهاقه وحساسيته كما يغمر
غيرها من الناس . أم أنه لا يقنعها إلا أن تملك شخصه ؟
لا .. لا .. حمداً لله أن عثرت عليه ، وحمداً لله أنها تستطيع أن تمتع نفسها به ،
وأن تذهب وحشتها بكتابته .

هكذا أقنعت نفسها ، وأدخلت الطمأنينة إلى قلبها .
ولكن القدر الساخر ، لم يرد أن يتركها في قناعتها ، بل أبقى التدخل حتى
يتم سحريته إلى النهاية .

وأية سخرية هناك أكثر من أن يجعل — هذا المخلوق العجيب — أمنيتها وأملها
بعد طول تمن وهيمان !! أية سخرية أكثر من أن يجعل هذا المخلوق الذى قنعت
بأن تشارك فيه آلاف المعجبين به .. يحبها هى ، من دون سائر البشر ؟
إنها مسألة عجيبة !

لم تحاول أن تصدقها في بادئ الأمر ولم تجترئ على أن تقنع بها نفسها فقد
ظنته يتسلى بها ، ولكنها بدأت تشاهد الدلائل الواضحة على أنه يحبها مخلصاً صادقاً .
ولم يكن هناك بعد هذا سبيل للمقاومة .
إنها حاولت أن تقاوم .. ولكن ماذا تقاوم ؟ وكيف تقاوم ؟

أتقاوم الحنان المتدفق والحب الجارف الفياض .. بعد أعوام قحط مرت بها منذ وفاة أمها كانت فيها محرومة من كل عطف وحنان ؟

أتقاوم أشواق من طال بها الشوق إليه ؟

أتقاوم لهفة من باتت تذوب لهفة عليه ؟

أتقاوم هوى من تفتدى بالدنيا هواه ؟

أتقاوم المحبة التي أضحت لا تحتاج في الحياة سواها ولا تطلب غيرها ؟

أتقاوم الحياة التي دبت فيها ، والروح التي سرت إليها ؟

أجل .. لقد كان هو الروح ، وكان الحياة ، وكانت من قبله ، جسداً بلا روح ولا حياة .

أبعد كل هذا يمكن أن تقاوم ؟

أترفض الماء وهي ظمأى ؟ والزاد وهي مسغبة ؟ والكساء وهي مقرورة ؟ والملجأ وهي ضالة شاردة ؟

عبث ! عبث !

ما من إنسان يستطيع أن يقاوم فيض السعادة إذا ما غمره ! ما من وسيلة هناك إلى المقاومة !

نحن أمام السعادة والنعيم لا نملك سوى الاستسلام بلا تفكير في عاقبة أو خشية من نتيجة .

وهكذا لم يكن أمامها من سبيل إلا الرضوخ والتسليم .

.. ليكون كيف يكون ، زوجاً أو غير زوج ، ملكها أو ملك غيرها .. إنه أمنيتها وأقصى أملها ، وإنه يعطيها ذوب نفسه وعصارة قلبه ، وهي أئمن ما تريد وأعز ما تبغى .

واندفعت في حبه ، اندفاعاً لا يتصوره عقل ، حتى عقلها هي ، أو عقله هو ، لقد احتل ذهنها وقلبها ، بل لقد احتل كيائها وروحها ، احتل كل ذرة في هيكلها وفي كل نقطة في دمها .

لم يكن ما أصابها حب .. أبداً .. أبداً !
إن الحب شيء يمكن وصف أعراضه ، ويمكن حصر مظاهره ، أما ما أصابها
فكان شيئاً لا يوصف ولا يحصر ولا يدرك كنهه ولا تفهم خفاياه .
أهو عبادة ؟!

أبداً .. إنه فوق العبادة .. فهو قد علمها العبادة .. عبادة الله .
هذا ليس كفرأ ، بل هو الواقع ، ولولاه ما عرفت الله ولا الدين ولا العبادة .
كانت تجلس معه ذات مرة وقد وضعت رأسها على صدره وأحست بسكينة
عجيبة وأخذ هو يتحدث إليها فأنبأها أنه رآها في حلم في الليلة الماضية وقد ارتدت
ثوب عرس وأخذت أهبتها للزفاف ، فأصابه حزن شديد وسأل ممن ستزوج
فقال له فلان .. فتساءل في دهش واستنكار : كيف تزوجه ؟! إنها مسلمة
وهو مسيحي ؟

وضحكت عندما سمعت ما رواه وقالت له في رفق :

— إني آسفة ، لأنني أزعجتك في أحلامك .

ولم يمر حديثه عليها بسهولة .. بل استقر في أذنها قوله إنها مسلمة .
أحقاً هي مسلمة ؟ لقد مرت بها الحياة وهي لا تعرف إن كانت مسلمة أم غير
مسلمة ! إن أحداً لم يحاول أن يلقيها ديناً ، ولا رأت هي أحداً يصلي أو يعبد
الله .. إنها لم يخطر لها ببال قط أنها مسلمة ، وما عرفت عن الإسلام شيئاً .
ولكنه يقول إنها مسلمة .. إنه يؤكد أنها مسلمة ، ويرتاع لأنها تزوجت في
الحلم مسيحياً .. إنه إذاً يجهل أن تكون مسلمة ...
ولأول مرة في حياتها تحس برغبة في الدين ، ولهفة على أن تكون كما تصوّرهما
وكما يود أن تكون .. مسلمة .

لقد كانت من قبل تحس بالله كقوة مطلقة يلجأ إليها الإنسان إذا أصابه ضرر أو
مسه سوء ، ولكنها لم تحاول أن تهتم بأية تفاصيل أكثر من ذلك .. لم تعرف
الصلاة إلا بقلبها ونظراتها إلى السماء .. أما الركوع والسجود والتحيات فلم

تعلم عنها شيئاً ، ولا عرفت شيئاً عن محمد ورسائله ولا عن القرآن والحديث .
أما بعد أن قال لها إنها مسلمة ، فقد أحست بحنين إلى الدين الذى ينتمى هو
إليه والرسول الذى يؤمن به .. إنها أحست بسعادة تغمرها لأنها مسلمة مثله ..
إنها أضحت تقدّس محمداً ودين محمد .

إنها أحبت الإسلام لأنها يتشاركان فى التبعية له والإيمان به .

أىكون ما بها بعد كل هذا .. مجرد حب ؟

لا .. لا .. إنه شيء .. فوق الحب ، وفوق العبادة .. شيء لم يوجد له اسم
فى قواميس المشاعر بعد .

واندفعت فى تيار مشاعرها .. أشبه بالمسحورة .. أو بالسكرى .. كانت
تفنى بين اللحظة وأخرى .. فيذهلها أمرها ، ويثقل عليها ضميرها فتجد أنها
سارقة ، وأنها مذنبه خاطئة ، وتندفع فى بكاء أليم ، ولكنها لا تكاد تهدأ .. حتى
يعاودها الحنين إليه ، وتود لو قضت العمر بين يديه .

وكانت تقاسى من مرارة الغيرة .. الغيرة من الأوهام والحقائق .. الغيرة من
بطلات كتابته ومن زوجته .. كانت تشعر أن كل هؤلاء يشاركنها فى ملكيتها
له .. أو هن يملكنه دونها .

وبين كل هذه المعامع من المشاعر والانفعالات .. كانت تخرج مثقلة
بالسعادة .. كانت النتيجة النهائية .. ربحاً من الهناء .. لا يقدر ولا يقاس .

لقد دفعها حبها الجنونى إلى أقصى قمم النعيم .

ومرّت بها حينذاك أسعد أيام حياتها ، وكانت أشبه بالمغامرة التى تندفع وراء
هدفها مغمضة عينيها عن كل ما حولها من أخطار

كانت تحس أن فرصة السعادة لا تسنح كثيراً فى هذه الحياة ، وأنها إن سنحت
فمن الحمق ألا تغتنمها ، وكانت واثقة أن هذه هى فرصتها فى الحياة .. قد تكون
فرصة مبكرة ، وقد تكون غير خالصة ولا دائمة ، ولكنها مع ذلك فرصتها
الوحيدة .. فلتقدم عليها وليكن ما يكون .

وهكذا أسكتت عقلها وأغمضت عينيها وتركت لقلبها العنان .. يرتع في
أخصب مرعى ويثبل من أعذب مورد .

أغمضت عينيها فلم تبصر التغامز حولها ، وأصمت أذنيها فلم تسمع
الهمسات .. حتى هبت من سكرتها فجأة .. فإذا بالهمس قد أضحى طينياً ،
والتغامز أضحى قولاً صريحاً .

بدأ الأمر بسخرية من ابنتي وعمها وكلام أجوف لا يعنى شيئاً ولكن يشتم منه
رائحة خطر .

قالت لها إحدهما :

— لقد كثرت غطساتك أخيراً .. أين تذهبين ؟

— أقضى الوقت مع صاحبتى فاطمة .

وصاحت بها الأخرى شامته :

— كذابة .. فى كل مرة كنت تخرجين .. كانت فاطمة تسأل عنك .

— ربما أكون قد تأخرت لذهابى إلى إحدى المكتبات .

— أنت كاذبة .. إني أعرفك أين كنت .

— ماذا تقصدين ؟

— أنت أدري بما أقصد .

ومرة أخرى سألتها إحدهما :

— إننا سنذهب إلى « بارقى » .. ألا تأتين معنا ؟ سنستمتع بوقت لطيف

وحفلة راقصة .

ولم يكن أكره عليها من حفلاتهم الراقصة الصاخبة فقد كانت تشعرها
بالفارق الكبير بين غثائهم وعلو قيمته وتفاهتهم وعمقه .

فأجابتها :

— إني أحس صداعاً ، ولن أستطيع الذهاب معكما .

— أنا أعرف من سيزيل صداعك .. أعرفه جيداً .

وتدخلت الأخرى قائلة في سخرية :

— إنك تضربين في العالى .. نقبك على شونة .

وأحست بالغضب يفعم صدرها وتمنت لو رفعت كفها وهوت به على صدغها وأسكتتها .. ولكنها لم تملك سوى التمسك بالصبر .
وعادت الثانية تقول :

— ماذا تريدن منه ؟ إنه كبير عليك .. وهو متزوج ؟

ولا شك أنه يضحك عليك .

وصاحت هى في حقن :

— من هذا الذى يضحك على ؟

— على أية حال .. إني أنصحك لوجه الله . أوكد لك أنه لو عرف عمك بما تفعلين لكانت النتيجة وبالا عليك .

وأحست بالأرض تميد تحت قدميها .. واشتكت أن الخطر مقبل لا ريب فيه .. وقضت ليلة سوداء مليئة بالوساوس والهموم والآلام .

وعادت إلى المدرسة حزينة النفس ، كسيرة القلب .. لقد أيقظها ناقوس الخطر من غفوتها ، فأبصرت حقيقة ما هى منغمرة فيه ، وأبصرت الأفق أمامها مظلماً لا بارقة فيه ولا هداية .

إن النهاية تو شك أن تحل .. فما من شيء بلا نهاية ، ونهاية المتعة لا بد أن تكون
ألماً :

إن الخطر لن يحيق بها وحدها .. بل سيشمله أيضاً .. وما روعها شيء مثل تصور مضايقته أو جرحه أو إيلا مه .

إن الناس لا شك يتقوّلون عليه كما يتقوّلون عليها .

وهكذا أفعمت بالخوف والقلق ، وكان أكثر ما يزعجها هو تصوّر ماذا يمكن أن يقول عمها لو بلغه الأمر ؟ وماذا يمكن أن تقول خالتها القاسية ؟ إنها لا شك ستشتت فيها وتقول لمن حولها إنها كانت محقة في سوء ظنّها بها ، وإنها لو لم

نخرجها من بيتها لاقتنصت منها زوجها .
وبين هذه الوسوس والاحزان والحيرة والقلق ، كانت تتلهف على لقائه ..
ولكنها باتت تخشى هذا اللقاء وتتوجس منه خيفة على نفسها وعليه .
وأضحى اللقاء متعذراً بعد أن أخذت الفتاتان الخبيثتان تضيقان عليها الخناق
وتلازمانها في كل ذهاب لها وإياب .
وكما قال هو في مذكراته « إن سوء الحظ إذا ما دس بأنفه لا يخرج حتى يتلف
كل شيء » .
لقد بدأ بينهما سوء تفاهم لم تقصده هي قط .. لقد نتج عن القصة التي أثارته
والتي لم تكن تعنى هي بها أى شيء .
واستمر سوء الحظ يكيل ضرباته دون أن يمكنهما من تفاهم أو تسوية ، حتى
انتهى الأمر بالضربة القاضية التي قضت على كل شيء .
إنه يتساءل في مذكراته عن سر هجرها له ويقول « إنها جعلته يفقد ثقته بالبشر
وبالحياة » . ويتساءل : « كيف كانت تحبه هذا الحب العجيب ثم أقدمت على
نسيانه بهذه السرعة ؟
ولكنه لو علم لعادت إليه ثقته بكل شيء .. ولأيقن أنها ما زالت تحبه كما كانت
بل أكثر مما كانت .
ولكن ما الفائدة في أن يعلم .. وأية قوة هناك كانت تستطيع أن تسوى الأمور
وتعيدها إلى نصابها ؟ . لم تكن هناك وسيلة للتصرف في المسألة إلا كما تصرفت ..
كانت المسألة كلها يأساً في يأس .
بدأ الأمر بأن عادت إلى البيت في يوم ما ، فوجدت حالتها وزوجها ، وقد
جلس الجميع يتسامرون ، ودار الحديث طبعياً ، حتى فوجئت بقول عمها :
— لقد جاءك خطيب اليوم .
وتلفتت حولها إذ لم يخطر ببالها أن القول موجه لها .
ولكنه عاد يكرر قوله :

— أقول إنه جاءك خطيب اليوم .. مبروك .

وتساءلت في دهش :

— أنا ؟ خطيب لى أنا ؟

— أجل أنت .. وما الغرابة فى ذلك ؟ لقد اكتملت أنوثتك ونمت

وأصبحت فتاة جميلة تستحق الزواج .

وتملكها الاضطراب ، وقالت متلعثمة :

— ولكنى لم أتم دراستى بعد ؟

— الدراسة لا تهم كثيراً .. إن أمل كل فتاة هو الزواج من رجل يصلح لها .

وأحست من قوله بصدمة شديدة .. وألم مرير .. دفعها إلى الرغبة فى القىء

لولا أن تماكنت نفسها .

كان الزواج هو آخر ما ترجو وتتوقع .. كانت تعرف أنه شىء لا بد منه ،

ولكنها كانت تراه بعيداً .

كانت تراه كالموت .. أمراً واقعاً .. ولكنه مكروه ومستبعد .

إلى هذا الحد كانت تكرهه ، بل كانت ترجف منه وتحشاه . وكيف لا

ونتائجه والموت سواء .

إن الموت يحرم الإنسان حياته ، ويأخذ منه روحه .

والزواج سيحرمها حياتها ويأخذ منها روحها .

أفلا يحق لها أن تكرهه وتستبعد وقوعه ؟ أفلا يحق لها أن تصدم ، وهى ترى

عمها يتحدث عنه كأمر واجب .. لا بد منه !

ويهمهم !. ألا يتركونها بضع سنوات ؟. إنها مازالت فى السادسة عشرة ،

ومازالت أمامها فسحة من الوقت كبيرة .

ولكنها كانت تدرك أنهم يتوقون كلهم إلى زواجها .. والتخلص منها فى أقرب

وقت .

كانت خالتها تريد أن تتخلص من عبء مصروفاتها .. وكان عمها وزوجته

يجدان فيها عقبة كأداء في سبيل زواج ابتيهما ، وكان لا بد من التخلص منها وإزالتها من طريقهما ، حتى تستطيعا الزواج ، وحتى لا تظهر دمايتهما واضحة جلية بالمقارنة بها .

وهكذا أخذ الكل يرمقونها ، كأنها فريسة بين الذئاب . ولم تستغرق أفكارها كثيراً .. حتى عاد يقرع أذنها صوت عمها قائلاً :
— إنه خطيب محترم .. موظف في السلك السياسي .. ومن عائلة طيبة ، كريم المنبت ، عريق الأصل .

وكانت تعلم أن الواقعة لا محالة واقعة .. ولكنها أرادت أن تبذل محاولة بائسة .. فتمتعت في صوت خفيض :
— إن الوقت مازال مبكراً .. وأنا أريد أن أتمم الدراسة .
وتدخلت خالتها في صوت ناهر :

— أى وقت هذا الذى مازال مبكراً ؟! إنك أضحيت امرأة .. والعمران لا يصادفهم الإنسان في كل وقت !! ثم إنك لا بد أن تتحمل عبك في الحياة !. إلى متى ستظلين طفلة ؟. إنك لم تعودى في حاجة إلى المدارس .
ولم يكن هناك بعد هذا مجال لقول شيء .. لم يكن هناك وسيلة خير من الصمت والتسليم !

ولم تحاول بالطبع المناقشة أو السؤال أو الاستفسار .. لأنه لم تكن هناك فائدة .. ولأنه لم يكن يهمها أمر الخطيب كثيراً أو قليلاً .. لقد كان كالقضاء .. واقعاً .. واقعاً .. لا وسيلة هناك لدفعه .. وعند ما يلقي الإنسان الموت لا يهمه كثيراً أن يناقش في كلفيته أو صورته .. فالموت هو الموت مهما تعددت صورته ، وتباينت وسائله .

وعاد عمها يقول :
— إنه يقول إنه قد رآك في إحدى الحفلات ، وقد أعجب بك كثيراً ، وسيحضر اليوم لتناول الشاي معنا .. فكوني على استعداد لاستقباله في السادسة .

(بين الأطلال)

هذه الأقدار لا شك مجنونة .. أم ترى الإنسان هو المجنون ؟
مثل هذا الخبر كان ولا شك يسعد أية فتاة .. خطيب محترم في السلك
السياسى .

ولقد كان خليقاً أيضاً — على الأقل — بألا يزعمها كل هذا الإزعاج .. فقد
كانت تعلم جيداً أنه لا أمل لها في المخلوق الذى اختارته ليحتل قلبها من بين جميع
البشر .. فهو نفسه متزوج .. ومتعلق بزوجته كزوجة ، وما حاول قط أن يهبها
أى أمل في زواج ، وهى تحترمه وتجله من أجل ذلك .. فقد كان دائماً صريحاً
معهما في شرح مشاعره إلى أبعد حدود الصراحة .

وهى نفسها لم تحاول حتى في أفكارها أن تضع نفسها منه موضع الزوجة ..
لأنها كانت تفهمه جيداً ، وتعرف أن قيمتها الكبرى عنده هى كحبيبة .. وأنها لا
صلة لها قط بالزوجة .. بل إنها قد تتعارض معها أشد تعارض .. فقد قال لها إن
الحبيبة شئ والزوجة شئ آخر ، ولا يمكن للحبيبة أن تكون زوجة ، ولا للزوجة
أن تكون حبيبة .

مع كل هذا اليأس منه .. كانت تحس من خطبتها بصدمة كبرى .
وحلت السادسة .. ولم تكلف نفسها مشقة التزين .. ولم تقف أمام المرأة
لتفحص نفسها جيداً .. كما كانت تفعل قبل أن تذهب للقاء الآخر .. فقد كانت
تبدو لها المسألة كأنها لا تعنيها فى قليل ولا كثير .

وأقن الخطيب وجلس مع الأهل لتناول الشاي ، وكان ذهنها شديد الشرود ،
فلم تأبه كثيراً لما حولها ، وإن كان شرودها لم يمنعها من أن تلقى بضع نظرات
فاحصة على ذلك الرجل الذى دفعه القدر إليها لتشاركه حياته .

كان إنساناً عادياً كبقية خلق الله .. وكان يربو على الثلاثين .. بين الثلاثين
والخامسة والثلاثين ، يكاد يبلغ سن صاحبها .. وقد يكون فى حقيقته أصغر منه
قليلاً ، ولكنه فى مظهره يبدو أكبر كثيراً .. كان على شئ من البدانة .. أكرش
قليلاً .. وكان منظره بطربوشه مقبولا بعض الشيء ولكنه لم يكد يخلعه حتى

أضاعت صلته ما بمنظرة من قبول .

وأى ذهنا إلا أن يضع صاحبها مكانه .. وتخيلت القدر قد كرم معها .. فبدل كل ما حولها من ظروف .. وساقه إليها لخطوبتها بدل هذا الغريب الجالس قبالتها .. وأبصرته بعين الوهم .. بضحكته المرحية ، وأسانته المتلاثلة ، وعينيه الصافيتين ، وشعره الذى لم يكن يتمتعها شيء أكثر من أن تعبت فيه بأصابعها وتتركه نائراً فوق رأسه .

وأبصرت جسده الفارع المشقوق ، وكفيه العريضتين وقد جلس واضعاً ساقاً على ساق في ثقة وكبرياء .

وعادها الشوق واستبد بها الحنين .. وساءلت نفسها : أيمكن أن تكون حقاً قد حرمت منه إلى الأبد ؟ أيمكن أن يقف هذا الشخص الغريب حائلاً بينه وبينها ؟! أمعقول أن يكون لهذا الدخيل من الحقوق عليها .. ما يحرم عليها لقاءه ؟ سخف وحمق ! من الذى يستطيع أن يحرمها من نفسها : إن صاحبها أقرب إليها من نفسها .. إن له الحق في كل قطعة من جسدها .. إنها ملكه وحده .. لا شريك له فيها .. إنها لا تحس بينه وبينها أى فارق أو كلفة .. إنه نافذ إلى قرارة نفسها .. مسيطر على كل جارحة فيها .

إنها لم تكن تجد أى حرج عندما تتصور أن يضمهما فراش واحد ، بل كانت تلك أمنية طالما تافت إليها نفسها ، وهى تنقلب على فراشها وحيدة ..

أما هذا الشخص الغريب .. فهى تعجب لنفسها كيف يمكن أن تسمح له أن يضع فمه على فمها .. ويقرب أنفاسه من أنفاسها .

ولكن هذا هو ما ستجبر عليه ، ليس أمامها مفر منه .

إن أسعد أيام حياتها قد شارفت النهاية .. وليس أمامها إلا أن تعد نفسها لاستقبال سود الأيام وحالكات الليالي .

ليس أمامها إلا الاستسلام الأليم والصبر المرير .. إنها لم تعد تملك من وسائل العزاء .. سوى التفكير واستعادة ما باشرته بالأمس حقائق ورددته اليوم ذكريات .

أجل ! أجل ! حمداً لله .. أن ترك للإنسان أحلاماً وذكريات .
وانتهى القوم من تناول الشاى .. دون أن تسمع كلمة من أحاديثهم أو تعي شيئاً من أقوالهم .

كانوا فى واد ، وكانت فى واد آخر .. كان جسدها معهم وروحها بين أحضان صاحبها .

وأخيراً انصرف الخطيب ، واستطاعت هى أن تعود إلى غرفتها وأن تخلو بنفسها .

وفوق الفراش وضعت رأسها بين كفيها .. وانهمرت دموعها كالسيل .. إنها لم تعد تملك إلا الدموع .

ما أحققها ! علام الحزن والبكاء ؟

أتبكي على حب يائس لا أمل فيه ؟ أم تحزن لمصير مقرر معروف لا شك فيه ؟
يجب أن تتجلد وتتماسك ، وتجتاز المحنة .

إن الظروف لا شك ستساعدنا على ذلك ، فحالة سوء التفاهم ما زالت قائمة للآن بينها وبينه ، لقد حدثها آخر مرة فى التليفون غاضباً حانقاً عندما قالت له إنها لن تستطيع مقابله لأنها لم تعد حرة فى تصرفاتها ، فقال لها إنه لا يريد أن يراها .
لشد ما أجزعها قوله .. فقد كان يجب عليه أن يفهم .. وأن يقدر ، ولكنه كان ثائراً مهتاجاً .. لقد قال لها إنها عودته الإفراط فى المشاعر ، وجعلته كالطفل المدلل .. ورجاها ألا تقتصد فى مشاعرها حتى تنتهى فترة حنقه وقلقه الناتجة عن القصة التى كتبها .

لعنة الله على تلك القصة .. وعلى الساعة التى كتبها فيها لشد ما أثارت وساوسه وهمومه بلا أدنى سبب ولا مبرر .

ولعنة الله على الظروف السيئة المزعجة ، التى أثبتت إلا أن تحرم عليها أن تهبه من مشاعرها ما تعودت أن تهبه .. أو كانت تتلهف على أن تهبه .

أهناك أمتع عندها من أن تهمس فى أذنه بمناجياتها وتدليلها وحبها ؟

ولكن كيف تلقاه ، وقد أمسكوا بتلابيبها وضيقوا عليها الخناق ؟
ثم .. ما الفائدة في أن تلقاه أو تناجيه أو تدله ، والأمر بينهما قد وصل ، أو
يوشك أن يصل ، إلى نهايته .
لا .. لا .. لا فائدة من اللقاء .. لا فائدة من التراجع ، إن خير ما تفعله هو أن
تسير في طريق القطيعة التي بدأها هو .

أجل .. يجب أن تكره نفسها عليها ، يجب أن تحتمل .
إن المسألة لن تحتاج إلا للجد وتماسك بضعة أيام ، وبعدها ستتجلد وتتماسك
مكرهة لا بظلة .

وهكذا عزمت على القطيعة وأرسلت إليه خطاب الوداع الذي نشره في
مذكراته بعد أن استقر رأيها على أن تقنع منه .. بكتبه ، وأن تعود إلى موقعها
السابق .. قارئة بين آلاف القراء .

ورد عليها بخطاب وداع أيضاً ، أبكاها ليلة كاملة . لقد أحست بالألم يحز في
نفسها وهي تراه يتألم .

ولكن لم يكن هناك سبيل إلى التراجع .. إن الألم واقع لا محالة ، والفرقة آتية
لا ريب فيها .

فليقع الألم ، ولتأت الفرقة .. ولينته كل شيء .
لقد قال لها : إن كل شيء إلى الزوال مآله ، حتى الحزن . ولكن .. أحقاً
سينتهى الحزن ؟ إن في صدرها أكداً من الحزن .. لن يقدر الزمن على
تبيديدها .. ولن تجسر كف النسيان على إزالتها .. شيء واحد هو الذي
سيمحوها ، وهو الموت .. الذي ستركها بلا شعور ولا حساسية .

وهكذا انتهى كل ما بينهما .. من حيث الشكل ، ومن حيث الظواهر .. أما
ما في القلب .. فقد كانت جذوره أعمق من أن تقتلع .. إلا إذا اقتلع القلب
نفسه .

وساعدتها الظروف إلى حد .. على الاحتمال .. فقد تمت الخطبة بسرعة ،

وكان الكل متعجلين متلهفين على إنهاء كل شيء ، فقد كان الخطيب أو الزوج يريد أن ينهى كل الإجراءات قبل سفره إلى مقر عمله في أحد الأقطار الشقيقة حيث عين ملحقاً بالمفوضية المصرية هناك .. وكان يرغب في أن يتم الزواج ويصطحبها معه في سفره .. ولم يكن الأهل أقل منه لفة في إتمام الزواج .. للتخلص منها .

وفي بضعة أيام ، كان كل شيء قد انتهى ، وهي مشدوهة مأخوذة .. تباشر أعمالها في شروود .. كأنها تشاهد رواية أو تقرأ قصة .. وفي النهاية وجدت نفسها في المطار تسير إلى الطائرة والأهل يلوحون لها بأيديهم .
وفي الطائرة .. جلست بجواره وقد أغمضت عينيها واستغرقت في صمت عميق .

وأخيراً وصلت إلى مقرها النهائي .. الذي فرض فيه أن تجعل منه ملاذ العمر وملجأ الحياة .

ولكنها كانت فيه ضالة تائهة شاردة .

لم يكن هناك قط ما يسيئها .. على النقيض ، لقد وجدت أقصى ما تأمل فيه فتاة .. بيتاً جميلاً هادئاً .. وزوجاً محباً طيباً محترماً .

لقد وجدت الشيء الطبيعي ، الذى تتمناه الفتاة الطبيعية ، وجدت حياة طبيعية وزوجاً طبيعياً ، ولكن المصيبة لم تكن فيما حوّلها .. بل كانت في نفسها .. كانت هي غير طبيعية .. أحبت إنساناً غير طبعياً .

لو أنها مخلوقة طبيعية .. أحبت إنساناً طبعياً ، وخذلها القدر فلم يهبها إياه .. وأعطاهما بدله آخر .. لا بأس به .. لما أثر ذلك في نفسها كثيراً .. ولتقبلت مصيرها بنفس راضية قريرة .

ولكنها .. هي بالذات .. كانت بلا جدال .. شاذة بين البشر .. بحسبها المفرط في الإرهاف ، ونفسها المفرطة في الهيام والوله والشاعرية والرقّة .

وأحبت من ؟ مخلوقاً .. كانت واثقة أنه نسيج وحده .. مخلوقاً ليس به من

صلة ولا شبه ببقية المخلوقات .

لقد كان يخيل لها ، أن الله عندما خلق البشر خلق الملايين المحتشدة في هذا العالم الواسع من طينة معينة وبطريقة مخصوصة ، فلما انتهى من خلقهم ، وجد لديه قطعة طين مختلفة فصاغ منها مخلوقين بطريقة مختلفة أيضاً ، ثم ألقى بهما فكانا شيئاً غريباً بين البشر ، كانا هذين المخلوقين ، كانا إياه وإياها .

كانت تجد فيه مخلوقاً لا يقارن .. وما الداعى للمقارنة وليس هناك وجه للمقارنة ؟

ذلك هو مبعث عدم استقرارها النفسى ، وعدم قدرتها على الرضا بفعل القدر والرضوح لسلطانها .

ولم يكن عدم رضائها أو عدم رضوخها .. فعلاً .. بل كان مجرد حس .. كان شيئاً فى الباطن . ، فقد كانت ذات إرادة على فعلها وعلى مظهرها .

كانت تقوم بواجبها الشكى نحو زوجها خير قيام .. ولكنها كانت فى تصرفاتها معه سلبية .. كانت تؤدى كل ما يطلب منها ، ولكنها لا تفعل قط ما لم يطلب .. كانت تجيب على حديثه ولكنها لا تبدؤه الحديث ولا تسأله .

كانت تجد حياتها فارغة خاوية لا يملؤها سوى شىء واحد .. هو مجموعة رسائله التى احتفظت بها فى صندوق ، وكانت تستعيد قراءتها كلما زاد بها الحنين أو عاودها الشوق .

وكانت تكره الخيانة والكذب ، ولكنها لم تكن تجد فى احتفاظها برسائله نوعاً من الخيانة لزوجها .. بل كانت موقنة أن هذا من حقها على نفسها ، أو من الظلم أن تحرم نفسها البائسة العزاء الوحيد الذى يمكن أن تعزى به .

ورآها زوجها ذات مرة وقد اختلت بنفسها وأقبلت على قراءتها فى لفحة فساها

فى هدوء :

— ما هذه ؟

— رسائل خاصة .

— ممن ؟

ورفعت رأسها عن الرسائل ونظرت إليه نظرة بها بعض التبرم والضيق واليأس :

— إنها رسائل خاصة بى .

— أقول ممن ؟

— من مخلوق عزيز لدى .

— أما زال عزيزاً إلى الدرجة التى تحتفظين فيها برسائله وتقبلين عليها بمثل هذه

اللهفة ؟!

ولم تكن ترغب قط فى تحديه أو إثارة أية مشكلات بينها وبينه ، وكانت تراه دائماً هادئاً طيباً ودوداً .. فبهت لمحاولته التحدى والبحث عن المتاعب .

ووجدته قد أثارها بسؤاله وأحست منه بما يشبه الإهانة فأجابت فى حدة :

— أجل .. إنه ما زال عزيزاً لدى .

واقترب منها وجلس قبالتها ، وأجابها بصوت أكثر رقة وهدوءاً :

— اسمعى .. إني أعرف كل شيء .. ولم أقدم على خطبتك إلا ليقينى أن

المسألة لم يكن فيها فائدة .. وأنه لم يكن هناك أمل فى أن تتزوج فتاة مثلك رجلاً ذا

زوج .. إني لم أقدم على زواجك إلا وأنا واثق أنى لن أحرملك هدفاً تأملين فيه ..

بل كنت واثقاً أنك سرعان ما تنسين ، وأنى سأستطيع أن أمنحك حياة سعيدة

وأجعلك تحبيننى ، ولكن يبدو لى أنى قد فشلت .. إنك دائمة الشرود

والذهول .. أنا أعرف أنك تمنحيننى كل ما هو مطلوب من الزوجة شكلاً

وعملاً ، ولكن لا تمنحيننى حساً ، وأنا لا أستطيع إلا أن أشكرك على ذلك ، ولا

أملك أن أجبرك أن تمنحيننى الحس .. فذلك شيء لا يجبر عليه إنسان وإلا منح فى

غير صدق وبلا رغبة ، منح فى تظاهر وادعاء .. فكأنه لم يمنح . إني أفضل ألا

تمنحيننى حساً .. من أن تمنحيننى حساً كاذباً ، ولكنى أيضاً أكره أن أراك لا تبدلين

جهداً فى النسيان .. أكره أن أراك تستثيرين مشاعرك وتنكينى جراحك .. إن

من حقى كزوج أن أمزق هذه الرسائل ، ولكنى لا أريد أن آخذك بالعنف ..
فهذه طريقة لا فائدة منها .. فهى تزيد الهوة بيننا .. وكل ما أرجوه أن تبدلى
بعض الجهد .. لا من ناحية الشكل والمظهر .. فهذا قد بذلت فيه أقصى الجهد .
ولكن من ناحية الحس والباطن .. لا بد أن نحاولي .
وكان حديثه كريماً معقولاً .. زادها ألماً على ألم . ولم تستطع أن تجيبه بأكثر
من قولها فى حزن :

— إلى شديدة اليأس ، ولن يضيرنى شيء بأكثر مما أنا فيه .. وهذه لحظات
عزاء أتعزى بها .. إلى أكره الخيانة والكذب ، ولكنى أعتبر هذا حقاً لى نحو
نفسى ، ومع ذلك .. إذا كنت تجدها فيها نوعاً من الخيانة .. فسأطويها ، ولن
أفتحها بعد ذلك .

وفعلاً ، طويتها فلم تفتحها أبداً .

ولكن لو كان يدري .. لما حرم عليها قراءتها !

ما الفائدة فى أن يحرم عليها قراءتها .. وهى تحفظها عن ظهر قلب ، وتستطيع
أن تتلوها كلمة كلمة وحرفاً وحرفاً ؟

إنه لم يزد على أن منعها من مجرد الشكليات والمظاهر ، ولم يكن هناك أقدر
منها ، ولا أقوى إرادة فى هذه الشكليات والمظاهر .. أما فى الذهن وفى القلب ..
فقد كانت مغلوبة على أمرها مقهورة فى باطنها .

وأخذت الأيام تمر بها هادئة طبيعية .. فحملت بعد بضعة أسابيع .. ومرت
بها شهور الحمل كما تمر بكل امرأة ، وفى نهايتها وضعت طفلاً .

وما من شك هناك فى أن البعد واليأس ومرور الزمن والحمل والولادة
ومتاعب الطفل وغيرها من مشاغل الحياة قد هدأت نفسها كثيراً ، وخففت من
حدة أحزانها ، وإن كان الحب والتقديس ما زالا راسيين فى أعماقها .

وما من شك أيضاً فى أن الأمور لو سارت على ما هى عليه لزادت من تهدئتها ،
ولجعلتها أكثر استقراراً وقناعة بحياتها ، ولجعلت من حبها .. شيئاً سامياً علوياً ،

لا يقض مضجعها ولا يفرح جفنها ، ولا يشوقها ولا يعذبها .. ولكن يضيء لها الحياة ، ويهيئ لها السكينة والطمأنينة ، وتشعر به كمنحة منح الله لها في فترة من فترات حياتها ، لتهدبها سواء السبيل .

هذا هو ما كان يمكن أن يحدث ، حياة هادئة ، تضيئها ذكراه ، وتنمئشها القراءة له ، وتصوره فيها ، كما كان يطلب هو منها : مثلاً أعلى ، وقدوة حسنة . ولكن القدر يأبى علينا ، حتى تعود المصائب .. فهو في البلايا مجدد مبتكر يكره الركود ويأبى الاستكانة .

لقد عادت مع زوجها إلى القاهرة في أول عطلة .. عادت وهي أشبه بالناقهة .. ناقهة القلب .

والنقاهة تحتاج إلى الراحة والهدوء ، والبعد عن الإجهاد والإرهاق والإثارة ، حتى لا يصاب المريض بنكسة ، تعيد إليه الداء .

وهي في نقاقتها الحسية .. كان يخشى عليها التعرض لأقل انفعال أو إثارة . فقد كان قلبها يكاد يستقر في موضعه ، كان ضعيفاً مترنحاً ، وكان جرحه يكاد يلتئم .

وكانت هي عازمة .. أن تقى نفسها شرّ التجارب ، وأن تبعد بها عن كل ما يثير مشاعرهما ويرهف حسها .. عازمة أن تقضى المدة التي ستقضيها في القاهرة وهي مغلقة على نفسها وقلبها كل السبل .

كانت تعرف أن عليها أن تقاوم الحنين ، وكانت تعرف أن عليها أن تبذل جهداً في المقاومة ، ولكنها كانت مصرة على هذا البذل .. مصرة على أن تخرج من التجربة بسلام .

وبدأت المقاومة ، بمجرد أن وطئت قدماها أرض مصر، بل بمجرد أن لاح لها النيل والمزارع والصحراء في نهايتها .

لعن الله هذه المراتب ، إنها تأبى إلا أن تلتصق نفسها به .. كل شيء تراه .. لا بد أن يمت إليه بصلة .

هذه الصحراء كانت تلقاه فيها ، وهذه الأرض وطنتها قدماه ، حتى هذه
العربة التي بدأت التحرك لحملها هي وزوجها إلى البيت ، وجدت فيها ما يذكرها
به .. إذ أتت العربة أن تتحرك وأخذ السائق يضغط على « المارش » فأحدث
صوتاً جعلها تذكر كيف كان يحاول إدارة عربته فلا تقوم لأول وهلة .. ثم يخبرها
ضاحكاً أن العربة بردت ، ويسألها :

— أمستعدة للزق ؟

فتجيبه ضاحكة :

— وللجر .. وللحمل .. ولكل شيء معك .

وخيل إليها أن السائق سيسألها نفس السؤال ، ولكن العربة دارت أخيراً
واتخذت طريقها إلى البيت .

ووصلت العربة إلى بيت أبي زوجها حيث كانا سيقضيان مدة العطلة ، وكان
البيت يقع في أحد أطراف مصر الجديدة .. بيتاً منعزلاً صغيراً ، وكان الأب
يقطنه وحيداً .

وأحسّت في البيت نوعاً من الطمأنينة .. فقد أحبت عزله وسكونه ورحب
الأب بهم ترحيباً شديداً .

ولم تجد هناك ما يضايقها أو يقلقها .. فقد كان العجوز هادئاً ميالاً للعزلة ..
وكان بالبيت خادمة كبيرة تستطيع أن تحمل عنها أعباء الطفل .

وهكذا استقر بها المقام في أمن واطمئنان ودعت الله أن يجعلها تقضى بقية المدة
دون أن تتعرض لأي إثارة .. أو على وجه أصح .. دعت الله .. ألا يعرضها
للقاء .. وألا يلقي بأحدهما في طريق الآخر .

هكذا دعت الله بذهنها وعقلها .. دعت برغبة قوية أكيدة وإن كان ذلك لم
يمنع قلبها المريض المترنح من أن يهتف في صوت خافت :
أما من نظرة ؟! أما من لقاء ..!

كان يهتف في شبه توسل .. كان أشبه بالسائل .. بين بخلاء قساة .. أو باليتيم
في مأدبة اللثام .

نكاء ...

١٣

وبدأت زياراتها لأقربائها ولصديقاتها .. ومرت الزيارات مروراً عادياً ، بما فيها من ترحيبات ودعوات وولائم وحفلات ، حتى زارتها ذات يوم صديقتها العزيزة عليها ، التي كانت السبب في تعريفها به .

كان الوقت صباحاً حوالى الساعة العاشرة ، وكان اليوم من أيام الصيف ، ولكن الجو مع ذلك كان لطيفاً ، وكانت بعض السحب المنخفضة تحجب الشمس من أن لآخر فيبدو الجو كأنه في يوم من أيام الخريف .

كانت تجلس تحت خيمة في ركن الحديقة ، وكانت تتسلى بعمل التريكو .. معدة ثياب الشتاء لطفلها الرائد في عربته بجوارها .

ودق جرس الباب الخارجى ، ورفعت بصرها فلمحت من خلال الأشجار صديقتها وقد وقفت بالباب .

وفتح الحارس الباب ونهضت هى من مقعدها لاستقبالها مرحبة بها . وأقبلت عليها الصديقة تحتضنها وتقبلها وتصبح بها مؤنية :

— يا خائنة .. أتمضى عليك هذه المدة وأنت في القاهرة دون أن تخبرينى ..

يخونك البسكوت والجلاس ؟

— كنت أنوى أن أزورك اليوم .

وكانت كاذبة في قولها .. فهى لم تكن تنوى زيارتها أبداً .. فقد كانت تعتبرها ضمن مناطق الخطر، إذ كان لقاءه عندها أمراً محتمل الوقوع ، وحتى لو لم تلقه فإن بيتها نفسه شر مثير لذكريات دفينه .

وعادت صاحببتها تقول مؤنية :

— أتذهبين لزيارة « عفت » قبل أن تزورينى .. ولو لم ألقها مصادفة لما

علمت بوجودك ؟

— كانت زيارتي لها مصادفة .. كيف حالك ؟ وكيف حال المدرسة ؟
— كيف حالك أنت ؟ لقد أصبحت أمأ .. ومع ذلك فلا يبدو عليك أى
تغيير ، ولو عدت إلى المدرسة تحملين الحقيبة لبدوت طفلة كما كنت .. لا بد أن
تكبرى قليلا وإلا لن يحترمك ابنك .
وانطلقتا تضحكان وتبادلان تافه الحديث وغث الأسئلة وكانت تتمنى لو
مرت الزيارة بمثل هذه التفاهة والغثاءة .

كانت تسكت بشدة وحزم ذلك الهاتف من أعماقها باسمه المتسائل عن
أخباره ، المتلهف على أنبائه .

وحمدت الله أن ألزم صاحبته جادة العقل .. فلم يجر لسانها بذكره ، والواقع
أن ذلك كان منها غريباً فما اجتمعتا قط إلا وكان هو محل حديثهما .. بل لقد
كانت هي نفسها تدفعها إلى الحديث عنه حتى تمل صاحبته وتصيح بها :
— أرجوك ، دعينا نتحدث عن شخص آخر .. لقد مللت من ذكره .
— ولكنى لا أمل أبداً .

كيف إذا استطاعت أن تجلس معها طوال هذا الوقت دون أن تلفظ عنه كلمة
واحدة !

ولكن حمداً لله .. إنها فتاة عاقلة .. وهى تعلم أنها قد أضحت زوجة ، ونبيش
ماضى الزوجات أمر غير مستحب .

واستمر الحديث يطرق كل موضوع إلا هو ، وكانت هى ما زالت مكبة على
عمل التريكو ، وقد طاف بذهنها عبثه المستحب فى نزع الإبرة من الصوف ،
وتخيلته بجوارها يرمقها بنظراته المشوقة اللفهى .. ولكنها سرعان ما طردت طيفه
من ذهنها .

ويبدو أن صاحبته كانت قد سألتها سؤالا .. خلال شرودها ، فلم تسمعه ،
إذ قالت لها ضاحكة :

— اللى واخذ عقلك .. يتهى به .

وكان لهذه الجملة وقع شديد .. كأنها مطرقة هوت على سندان .
كانت جملة « شهيرة » إذ كانت لا تفتأ ترددها لها كلما وجدت بها شاردة
الذهن .. وكانت إجابتها الدائمة لها هي قولها في استسلام : « واخذ عقلي بس ..
دا واخذ عقلي وروحي وقلبي .. وكل حاجة في » .
وساد صمت عجيب .

صمت هو أبعد ما يكون عن الصمت .. صمت صارخ صائح .. ملء
بصخب الصدور وضجيج القلوب .

ولم تنبس بينت شفة .. ولم تقل بالطبع جملتها .. التي تعودت أن تقولها ..
ولكنها كانت ترزح تحت وطأة حنين ملتهب وشوق متأجج . وكأنما القدر أراد
أن يحكم إخراج الموقف المرهب المستعر .. فانبعث في تلك اللحظة لحن من ناي
في الإذاعة .. لحن سمعته في أول لقاء لهما على حدة .. وأنبأها هو أن هذا اللحن
يطربه وينتشيهِ ويذيب نفسه .

ورفعت عينها إلى وجه صاحبها .. فإذا بسحابة حزن معتمة قد طافت به ..
كأنما هي قد تذكرت أمراً أليماً .

وفجأة ألقت صاحبها بسؤالها المروع .. قائلة في صوت خافت يملؤه الأسى
والألم :

— ألم ترى ... ؟

ولم تذكر الاسم ، ولكنها أدركت من معنى .. ولم تجب بشيء ، ولكنها
هزت رأسها بالنفي .

وعادت صاحبها تسأل :

— ألم تسمعي بما حدث له ؟

— حدث له ؟

ولم تستطع أن تتمالك نفسها فهتفت متسائلة :

— ماذا حدث ؟

— أحقاً لم تسمعى ؟

— أسمع بماذا ؟ قولى أرجوك !

— إنه راقد فى المستشفى .. فى حالة خطيرة .

— كيف ؟ .. ومتى ؟ .. ولمه ؟

— لقد تصادم بعربته .

— وماذا أصابه ؟

— يقولون إن الصدمة أصابته بارتجاج فى المخ .. أو كسر فى العمود الفقرى .. لست أدرى .. ولكن النتيجة أن نصفه الأيسر قد أضحي عاجزاً .

وأحست بأطرافها تتلجج وبأعصابها تنهار .. ووجدت نفسها قد باتت عاجزة عن فعل أى شئ .. لا دموع .. ولا صراخ .. حتى صيحة دهشة لم تستطيعها .

ووضعت منديلها بين أسنانها وأخذت تضغط عليه .. محاولة كبت ما بها من ألم والسيطرة على نفسها .

وبعد فترة صمت أليمة .. استطاع صوتها أن يخرج متحسراً من شفتيها
متسائلاً :

— فى أى مستشفى ؟

— الإسرائيلى .

ونهمزت فى تناقل واتجهت إلى البيت فى بطاء وصاحت :

— فاطمة .

وظهرت الخادمة بالباب فأمرتها بحمل الطفل إلى الداخل وإحضار حذاءها .. ودست قدميها فى الحذاء .. ثم سارت إلى صاحبها كأنها شبح يتحرك ، وقالت لها فى هدوء :

— هيا بنا !

— إلى أين ؟

— إلى المستشفى .

وبدا التردد على وجه صاحبها وقالت معترضة :

— ولكن ... ؟

— ماذا ؟ أتخشين زوجته ؟

— لا .. ليست زوجته هي التي أخشى .. إن زوجته راقدة في دارها .. إنها

لا تستطيع النهوض .. فهي كما تعلمين مريضة من قبل ، ولم تستطع احتمال الصدمة لشدتها فأقعدتها في الفراش .

— علام ترددك إذا ؟

— إن زوجك قد ...

وجذبتها من ذراعها نحو الباب وقالت في يأس شديد :

— زوجي ؟ إني أكره زوجي .. وابني .. أكره الناس كلهم .. وأكره

الحياة .. لن يستطيع أحد أن يفعل لي شراً مما لي .. أنا ميتة .. وما لجرح بميت إيلام .

واندفعت في عزم إلى الخارج ، ولم تملك صاحبها إلا أن تسير خلفها .

كانت تسير بلا وعى وبلا إرادة .. لقد أفقدتها الصدمة كل سيطرة لها على نفسها وعلى عقلها .

كانت تتحرك بدافع خفي مجنون .. كانت لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً ..

ولا تحس بشيء .. إلا أنه هو .. راقد بلا حراك .

هو .. الذي ظنته قد انكمش في قلبها على مر الزمن .. لم تكد تسمع نبأه ..

حتى وجدته قد تضخم وعاد ليحتل مكانه .. في كل ذرة في كيائها وكل نقطة في دمه .

هو .. كل شيء .. وسواه لا شيء .

هو .. في جانب .. والدنيا كلها في جانب .

هو .. هو .. وإذا لم يبق هو .. فلا بقيت هي .. ولا بقيت الأرض .. ولا

السماء على الأرض .

ووصلنا إلى نهاية محطة الأنوبيس رقم ١٠ ، واتخذنا مجلسيهما متجاورتين ..
وكانت العربى خالية تماماً إلا من الكمسارى والسائق .

ومست صاحبها فى أذنها معيدة النصيح :

— أما كان يجب أن تنتظرى زوجك .. و

ولم تجب عليها بكلمة ولكنها نظرت إليها نظرة أسكتتها .

وتحركت العربى وتتابعت المحطات ، وتزاحم الركاب ، وهى شاردة بعينها لا تبصر شيئاً ، وسمعت صاحبها تصيح بالسائق :

— محطة السلم .

ووقفت العربى وجذبها صاحبها من يدها ، وهبطنا إلى الطريق .. عابرتين
أسفل الكوبرى .. متجهتين إلى المستشفى الإسرائيلى .

وعبرنا الباب الحديدى ثم صعدنا السلم الرخامى العريض وقادتها صاحبها
يميناً فى ممر بين الحجرات .. وأخذت تمر ببصرها على الأرقام الصغيرة التى على
الأبواب .. ثم توقفت أمام باب مغلق .. وبدت عليها الحيرة .. ولم تدر أنطرق
الباب أم تنتظر .. وأخذت تتلفت حولها ، عليها ترى أحداً خارج الحجرة .

وأقبلت إحدى المرضعات فى خطوات سريعة حاملة فى يدها « طاقية ثلج »
واقتربت من الباب هامة بالدخول .

وسألتها صاحبها :

— أنستطيع أن نراه ؟

— إنه نائم .. لقد مضت عليه بضع ساعات وهو فى غيبوبة تامة .. إن أباه فى
الداخل ، وسأخبره بوجودك .. استريحاً قليلاً فى الردهة .

واختفت المرضعة داخل الحجرة ، وتهاوت هى على أحد المقاعد فقد أحست
بقدميها تكادان لا تحملانها .

وأخذت صاحبها تسير جيئة وذهاباً بحركة عصبية متوترة . وأخيراً فتحت

المرضة الباب ودعتها :

— تفضلا .

وتقدمت صاحبها أولا .. وسارت هي خلفها .
وهي لا تدري حتى الآن .. كيف لم تخرم مغشياً عليها .. وكيف استطاعت
الوقوف على قدميها .. والإحساس بما حولها .

وقع بصرها على الحجرة البيضاء الجدران والسقف ، وفي وسطها الفراش
بملاءاته البيض ، وجسده الطويل مسجى تحت الملاءات ، وقد بدا وجهه شاحباً
هزيلاً رقيقاً ووضعت فوق رأسه « طاقيّة ثلج » وامتدت إحدى ذراعيه وقد
اتصلت بخروطوم رفيع تدلى من حقنة « جلوكوز » مدلاة من أعلى .

وبجوار الفراش .. وقف عجوز أشيب الرأس ، بادي الهزال ، يمد إليهما يده
مرحباً .

كان الرجل ولا شك أباه .. إذ كان الشبه بين الاثنين واضحاً في ملامح
الوجه ، وطول القامة وعرض الكتفين .

وقامت صاحبها بواجب التعريف في كلمات مقتضبة سريعة خاطفة قائلة :

— والد محمود بك .. صديقتى .

ثم تساءلت .. لمجرد السؤال :

— كيف الحال ؟

ولم يجب الرجل .. بل بدا تشنج خفيف في نهاية شفثيه وفي ذقنه ، وحاول
جهده أن يمنع نوبة البكاء التي توشك أن تمسك بتلابيبه ، ولكنه لم يفلح .. فقد
احمر جفناه ، وهوى الدمع من مقلتيه ، وتهاوى على مقعده ودفن وجهه في
كفيه .

ولم تستطع هي المقاومة .. وكانت أحزانها المكبوتة في صدرها تتحين الفرصة
لتجد لها مخرجاً .. فلم تكذبصر دموع العجوز حتى انهارت تماماً ، واستندت
بيدها إلى حرف أحد المقاعد ، وأخفت وجهها باليد الأخرى . واندفعت في نوبة بكاء .

وبكت صاحبها .. ولكنها كانت أول من أفاقت .. وأخذت تربت على
كف العجوز في رفق قائلة :

— إن شاء الله سليمة .. لا داعى للبكاء .. أكثر من هذا ويزيله ربنا .

ثم اتجهت إليها وأخذت تمزها من ذراعها ، قائلة في شبه تأنيب :

— كفى .. كفى هذا .. يجب أن تتأسكى .

وكان يجب أن تتأسكى وتتجلد .. فكفت عن البكاء .. وتهاوت على أحد

المقاعد ، وبعد برهة صمت سألتها صاحبها في همس :

— أظننا يجب أن نعود الآن ؟

— نعود !!! إلى أين ؟ .. وإلى من ؟

لقد كانت تعرف أن مقرها بجواره .. وأنه هو كل ما لها في هذه الحياة .

فكيف تتركه ؟

أتركه ملقى هكذا ؟ لا كانت .. ولا كانت الحياة .

ولكن أى حق لها في البقاء بجواره ؟ بل أى حق لها في أن تبكيه كما بكته ؟

أياً كان هذا الذى بينهما ، وكيفما كانت الرابطة الروحية التى تشد أحدهما

بالآخر ، فإنها لا تزيد في الواقع وأمام الناس عن أن تكون غريبة عنه .. دخيلة

عليه .. حتى في مرضه .

إنه ما زال زوجاً ، وقد تكون زوجته راقدة الآن في فراشها .. ولكن ذلك لا

يمنع من أنها قد تبل في أية لحظة ، وتأتى إلى المستشفى لتتخذ مكانها بجواره .

يا للعجب ! .. أيعقل أن يحرم إنسان حق الحزن .. وحق العناية والتمريض ؟

التمريض ؟ ولكنها قطعاً تستطيع تمريضه .. إن أية ممرضة هنا تستطيع

تمريضه .. وهى لن تقل بحال عن أية واحدة منهن .

أجل . لن يستطيع أحد أن يمنعها من تمريضه والسهر عليه .

واستمرت الأفكار تطن في رأسها ، وعادت صاحبها تستحشها :

— أظن الوقت قد حان للذهاب !؟

ولكنها لم تجبها بكلمة ، واستمرت متهاوية في مقعدها مغرقة في شرودها .
وانتظرت صاحبها برهة أخرى ثم قالت هامسة في حزم :

— يجب أن تعودى .. ماذا يقول زوجك ؟

وأخيراً نهضت متحاملة على نفسها ، وألقت نظرة أخيرة على الوجه الذابل
الساكن ، وشدت على يد العجوز ، واستدارت متجهة نحو باب الغرفة ، ولكنها
لم تكذب تبليغه حتى سمعت هتافاً باسمها .

هتافاً حاراً متوسلاً متلهفاً .. نفس الهتاف الذى تعودا أن يتبادلاه فيما
بينهما .

وأصابها رجة شديدة وجمدت في مكانها .
حمداً لله .. لقد أفاق .

واستدارت في ببطء لتستقبل هتافه .. ولكنها وجدته ما زال مغمض العينين
وتكرر الهتاف ، وهو مستغرق في غيبوبته .
لقد كان يهذى .. باسمها .

وقال الأب مفسراً بصوت متهدج في شبه اعتذار :

— إنه يهذى .. منذ أن راح في غيبوبته ، وهو لا يفتأ يهذى بهذا الاسم
ومرة أخرى أحسّت بأنها تنهاوى ، واندفعت ثانية في نوبة بكاء مريرة .
وهمس الأب متسائلاً في دهشة شديدة :

— أهو أنت التى يهتف باسمك ؟

ومدت صاحبها يدها فسحبها من ذراعها ، وأخذت تهوول بها إلى خارج
المستشفى ، وهى تقول مؤنية :

— ما كان يجب أن تحضرى .. ولكنى أنا المسعولة .. كان يجب ألا أوافقك ،
وأن أمنعك عن الجيء .. بل ما كان يجب أن أخبرك بالنبا أصلاً .

وصممت برهة ثم عادت تقول وهو تهز رأسها في دهشة :

— ولكنى كنت أظنك قد نسيت ولم أكن أظن أنك ستهارين بهذه الطريقة ،

ولا كنت أظن أنه قد بلغ هذه الحال من سوء .
وأخيراً بلغت الدار وهي تكاد تكون فاقدة الوعي .
وعلى باب البيت لقيها زوجها .. فأذهلته حالها وأدهشه احمرار جفניה وهتف
بها متعجباً :

— أين كنت ؟!

ولم تجبه ، واتجهت إلى داخل البيت وارتمت على أقرب مقعد ، ووضعت
رأسها في كفها وأخلدت إلى الصمت .

وتبعها زوجها وعاد يلح عليها بالسؤال :

— أين كنت ؟ أجيبى ؟ أين كنت ؟

ورفعت رأسها وأجابته في هدوء وقد تماكنت نفسها :

— في المستشفى .

— أى مستشفى ؟

— الإسرائيلي .

— لِمَ ؟ ماذا حدث ؟ هل أصيب أحد من أهلِكَ بسوء ؟!

— ليس من أهلى :

— من يكون إذا ؟ من يكون هذا الذى أزعجك كل هذا الإزعاج ؟

— إنه هو ..

وعض زوجها بأسنانه على نواجذه ، وأحس بشورة شديدة تهب بين
جوانحه .. وحاول جهده أن يتمالك أعصابه وقال فى غيظ مكثوم :

— أذهبت الآن لزيارته فى المستشفى ؟

— أجل .

— أنت لا شك مجنونة !

ولم تجبه بكلمة .. وعادت تضع رأسها فى كفها .. فازداد غيظه ، ولم
يستطع أن يكبت ثورته وصاح بها :

— أجيبي ! ما الذى دفعك إلى زيارته ؟

— لأنه مصاب .

— ومالك به ؟ إنك تنسين نفسك .. تنسين أنك متزوجة .. فأى وضع تزورينه ؟ وما علاقتك به حتى تزوريه ، وهو رجل متزوج .. أتزورينه كعشيقة ؟

ولم تكن حالتها تسمح كثيراً بالمناقشة أو بالرد .. ولم تكن تضيرها أقواله .. بل إنها كانت لا تكاد تفهمها .

واستمر هو فى ثورته قائلاً :

— يجب أن تفهمي أنى لن أسمح لك بهذا العبث .. لقد صبرت عليك كثيراً .. هذا الشرود والوجوم .. الذى أنت فيه .. شئ لا يحتمل ، ومع ذلك فقد احتملته ، وقلت لنفسى إن الزمن سيعيدك إلى رشذك ويرد إليك صوابك ، وإنك سترتدين من تلقاء نفسك . لقد قلت لك إنى لن أحاول التدخل فى مشاعرك الخفية ، ولكن هذه الفضائح التى نحاولين إثارتها ، وهذا الجنون الذى أنت مندفعة فيه .. لن أقبله قط بحال من الأحوال .. لن أسمح لك بأن تجعلينى مضغة فى الأفواه ، وأضحكة بين الناس . إنى سأغفر لك لوثتك وحمقك هذه المرة ، ولكن إذا عدت إليها ، فسأعرف كيف أتصرف .

ولم يكن لهذه العاصفة من أقل أثر فى نفسها إذ لم يكذب ينتهى من حديثه حتى رفعت رأسها وأجابت بنبرات هادئة وفى عزم وإصرار :

— خير لك أن تتصرف من الآن .. فأنى سأذهب إليه غداً و كل يوم ، وسأبقى بجواره حتى يبل أو ينتهى .. أعلم هذا جيداً .. وافعل كل ما يبدو لك . — ما هذا الذى تقولين ؟ . إنك لا شك مجنونة ؟

— مجنونة أو غير مجنونة .. من الغد .. سأقوم بتمريضه .. إنى لن أفعل نحوك ما يمكن أن يسمى خيانة ، إن ضميرى مستريح .. لأن كل ما سأفعله هو أن أمرض مريضاً على فراش الموت .. مريضاً لا يحس بشئ مما حوله ، ولا يحس

حتى لى .. فإذا كان ذلك يفزعك ويسبب لك مثل هذه الثورة والانفعال ..
فلتفعل ما تشاء ، ولكن لن يشينى عن عزمى شيء .

وصمت برهة تمالك فيها نفسه ، ثم قال فى حزم :

— اسمعى .. إذا خرجت من هذا البيت فلن تعودى إليه ؟

— سأخرج .

— رلن ترى ابنك ؟

— سأخرج .

— يجب أن تفكرى جيداً ؟

— سأخرج .

— إنك مجنونة ؟

— سأخرج .. سأخرج .. دعنى وشأنى .. أرجوك .. كفى ما لى .

وعادت تخفى رأسها بين كفيها مغلدة إلى الصمت .

وقال لها قبل أن يوليها ظهره :

— على أية حال سأترك لك فرصة تفكرين خلالها حتى الغد .. وربما تعودين

إلى رشذك وتصرفين هذا الشيطان الذى يركب رأسك .

وأحسّت أنها لم تعد تستطيع احتمال كلمة منه ، فرفعت إليه رأسها محدقة فيه

برهة ، ثم نهضت فجأة قائلة :

— لا داغى لهذه الفرصة .. سأذهب من الآن .

ثم اتجهت إلى الباب بخطوات ثابتة .. ولكنه أسرع فوقف بينها وبين الباب

وصاح بها :

— إذا خطوات خطوة واحدة نحو الباب فأنت طالق ؟

— دعنى أخرج .

— وابنك ؟

— دعنى أخرج قلت لك .

— لن أتركك تخرجين من هنا حتى تكتبي لى تنازلا عن كل شىء .

وخرجت من بين شفتيها ضحكة مريرة ساخرة :

— لست فى حاجة إلى شىء ، ولا أريد منك أى شىء . دعنى أخرج .

— لن تخرجى .. حتى تكتبي التنازل .

— سأكتب لك ما تريد .

وبعد لحظة كانت توقع على ورقة قدمها إليها وهى مغمضة العين وقذفت إليه

بها وبالقلم ، ثم أخذت طريقها إلى الخارج متجهة إلى بيت صاحبها .

ووصلت إلى بيت صاحبها وقد استمدت من يأسها شجاعة .

إنها تشعر أنها قد أضحت حرة طليقة .. تشعر براحة لأنها وجدت فى نفسها

من القوة ما جعلها تقدم على ما أقدمت عليه .

ولقيتها صاحبها صائحة فى دهشة :

— أنت !! ماذا أتى بك ؟!

— لقد أصبحت حرة .. وسأذهب إلى المستشفى .

— ماذا تعنين بحرة ؟!

— حرة طليقة .. أو طالقة .. كما يسمونها .

وندت عن صاحبها صرخة فزع وصاحت :

— ماذا فعلت بنفسك أيتها المجنونة ؟ ما الفائدة من كل هذا ؟

وأجابتها فى ضيق وملل :

— مجنونة .. مجنونة .. هو أيضاً قال لى ذلك ، وسيقول الناس جميعاً عني

مجنونة ، ومع ذلك فلن أراجع . أى جنون هذا الذى ترينه فى عملي !! ألم

تسمعى عن أحد دخل الدير .. إني سأعمل ممرضة .. بدل دخول الدير .. أى

جنون فى هذا ؟!

— ومستقبلك ؟!

— ليس لى أى مستقبل .. كل هذه الظواهر لم أعد أعابها .. إني ذبيحة فى

باطنى .. إني ميتة .. أى مستقبل هناك لامرأة ميتة ؟

— وابنتك !؟

— هو أعز لدى من مائة ابن .. إذا كنت على استعداد لأن أفقديه بروحى ..
أفلا أترك من أجله ابنى ؟

— ولكن ...

— أرجوك . وفرى نصحك .. لقد انتهى كل شيء .. لقد كتبت له إقراراً
بالتنازل عن كل شيء .. ولا فائدة من الجدل .
— وماذا تنوين الآن ؟

— سأعمل ممرضة ، وسأقوم بتمريضه .
— كيف تعملين ممرضة .. إن التمريض يحتاج إلى دراسة . يجب أن تهدي
وتتروى .

— إذا سأقوم بخدمته .. أظنهم لن يرفضوني مجرد خادمة ؟

ثم تهدج صوتها وقالت بتوسل :

— أرجوك .. لا تعقدى الأمور .. أرجوك أن تساعدنى .. كل ما أطلبه هو
أن أكون بجواره .

واغرورت عينا صاحبتها فضمتها إليها .. وهمست فى أذنها :

— لا تخزنى .. سأفعل من أجلك كل شيء .. اعتمدى على الله وعلى ..
وليساعدك الله .. سأخرج معك ، ولكن بعد تناول الغداء .. إنك لا شك لم
تتناولىه .. فهيا بنا الآن نأكل لقمة تقيم أودك .

وتناولت بضع لقمات ، ثم خرجت وصاحبتها إلى المستشفى .

ولم تكن صاحبتها تعرف كيف يمكن أن تفعل لها ما تريد ، ولكنها دعت الله
أن يوفقها فى سعيها .

ودخلا إلى المستشفى ، واتجهتا إلى حجرة المريض ، وهناك وجدتا الأب
والطبيب المشرف على العلاج .

وسألتها صاحبها أن تبقى خارج الغرفة ، ودخلت هي وبدأت في عرض مطلبها .

ودهش الرجلان .. وهز الطبيب رأسه في حيرة وقال :
— ولكن يجب أن تكون لديها شهادة .

— يا دكتور أرجوك .. إنها ستسهر على خدمته هو ، ولن تقوم بعمل من الأعمال الفنية . ستكون ممرضة شكلاً . لقد تركت زوجها وابنها من أجله .. فيجب ألا تأخذها .. ولا أظن هناك أى شيء يمكن أن يحول دون تطوع إنسان لخدمة مريض !

وهز الطبيب كتفيه وقال لها :

— أمرك .. دعها تلحق بي في المكتب .. حتى أتفاهم مع مدير المستشفى .
وانجبه الطبيب إلى المكتب .. وبعد برهة لحقتا به .. ولم يستغرق الحديث وقتاً طويلاً .. حتى كان كل شيء قد انتهى .

وأحسنت وهي ترتدى ثياب الممرضات البيضاء أنها تقذف من فوق كتفها عبثاً ثقيلاً .. وتملكها إحساس المؤمن يبدأ جهاده .

وتركتها صاحبها عائدة إلى بيتها .. وهي تقول لها في حزن :

— ليعاونك الله .. إن ما فعلته .. غريب على البشر .. إنه عمل لا أتوقعه من مخلوق على الأرض .. ولكن منك أنت محتمل الوقوع .. لقد كنت دائماً أراك مخلوقة عجيبة .. ليرحمك الله .. وليجعلك لا تندمين على ما أتيت .

— لن أندم على شيء قط .. ما من شيء كان يمكن أن يسعدني في هذه الظروف إلا ما فعلت .. كل ما أطلبه من الله هو أن يحفظه ويرده سليماً .

يحفظه !! من أجل مَنْ ؟!

ويرده سليماً ؟! لمن ؟!

لها هي ؟! أم لزوجته الراقدة في فراشها ؟

آية سخرية هذه .. لقد ضحت بكل شيء .. لكي تنقذه لغيرها ؟!

إنها الخاسرة في جميع الأحوال .
لو ذهب إلى ربه .. فهي الخاسرة .. ولو عاد إلى بيته فهي الخاسرة أيضاً
لو ذهب .. فسيذهب عنها .. ولو عاد فلن يعود إليها .
لو عاد .. فسيعود إلى زوجته .. وستعود هي .. إلى أين ؟! الله وحده أعلم
بمصيها .

إنها ضائعة ضائعة .. مفقودة مفقودة .
ومع ذلك .. فما استقر في ذهنها شيء من هذا .. فقد كان ذهنها لا ينسع
لشيء قط .. كان لا يملأ ذهنها إلا الجسد المسجى ، والوجه البشاحب ، والرأس
المتقل بطاقة الثلج ، والذراع المربوطة إلى السقف بمخرطوم الحقنة .. وبعد كل
هذا .. الصوت العميق .. الهاتف باسمها .

إنه لم ينسها حتى في غيوبته .. فكيف تنساه ؟
إنه ينادى .. فلا بد أن تلبى ندائه ! إنه لا شك في حاجة إليها .. في حاجة إلى
حبها وعطفها .. وإجابتها هتافه باسمها .. بهتافها باسمه .. لقد كان ذلك هو أحب
شيء إلى نفسها ونفسه .

فك الحوين

١٤

وسارت بخطى ثابتة إلى حجرته ودفعت الباب برفق فوجدت الأب قد أسند برأسه على كفه .. وراح في إغفاءة .. فلم يكذب يسمع وقع أقدامها حتى تنبه من غفوته ، وهمست به في رفق :

— يجب أن تستريح الآن .. سأخذ دورى في الخدمة .

— بل سأبقى معك .

— يجب أن يريح أحدنا الآخر .. حتى نستطيع أن نتناوب الخدمة . أرجوك أن تذهب لتستريح الآن .

ونفض الأب متحاملاً على نفسه .. وقال ، وهو يفتح أحد الأدراج :

— عندما تنتهى حقن الجلو كوز .. ستحضر الممرضة لإعطائه واحدة من هذه الحقن .. إنها موجودة هنا في هذا الدرج .

ونظرت إلى داخل الدرج فوجدت أنه قد صفت فيه بضعة « أمبولات » ، ووجدت بجوارها رزمة ورق .. لم يصعب عليها تمييز الخط الذى كتب عليها .

ولاحظ الأب نظرتها إلى الورق ، فقال في صوت خافت :

— هذا آخر ما كتب .. إنها قصته الأخيرة .

واغرورقت عيناه بالدموع وتهدج صوته ، وهو يتمتم قائلاً :

— لقد كانت السبب في انتكاسه ، وفي مضاعفة حالته .. لقد أمره الطبيب ألا يجهد نفسه ، ولكنه أصر على الكتابة ولو علمت بما سيحدث ، لقتلت نفسى قبل أن أدعه يكتب .

وغادر الأب الحجرة ، وأغلق الباب .

وأخيراً .. أصبحنا فى خلوة .

سخرية أخرى .. من نوع بديع .. لا شك أن القدر يصفق لها ، طرباً وإعجاباً .

أجل ! لقد باتا في خلوة .. وأية خلوة ؟
ألم يكن هذا ما يتوق إليه ، وما طلبت هي منه في خطابها أن يقلع عنه ؟ فلما
غضب أنباته بأنها ستذهب معه إلى آخر الأرض ، بل إلى آخر العمر ؟
ها هي قد أتت إليه .. لا لتذهب معه إلى آخر الأرض بل إلى آخر السماء .
من كان يصدق هذا ؟

إنه أضحي ملكها أخيراً .. ملكها وحدها .. هي خادمتها وعبدته .. ألا
تجمعهما الآن وحيدتين غرفة واحدة ؟! ألا يرقد أمامها على الفراش وحده ..
وهي التي لم تكن تتمنى شيئاً قدر أن ترقد بجواره وتختبئ بين أحضانها ؟
ماذا تراه بقائل لو فتح عينيه ووجدها أمامه ؟ لقد قال لها فيما مضى إنه لا شيء
أحب إليه من التطلع إليها ومناجاتها ..

أما يستطيع أن يتطلع إليها الآن .. ويناجيها ؟
وعلا صوته مرة أخرى هاتفاً باسمها .. هتافاً حاراً مخلصاً ، يذوب من
الصباية والوجد .. ومس المتاف جسدها كما يمسه تيار كهربائي ، وانتفضت
مرتاعة ، وأخذت تقترب منه في بطء ، ولم تملك إلا أن تحجب هتافه .. بأجر
منه .

وأخذ يهتف باسمها ، وأخذت تحببه ودمعها ينساب من عينيها كالسيل
المنهمر .

آه لو يسمعها ! آه لو يحس بها !

واستمر في هذيانه قائلاً في رجاء حار :

— تعالى .

وأجابت باكياً :

— إني بجوارك يا حبيبي .. إني بجوارك .

وأخيراً عاد إلى صمته .

وانحنت عليه تمس بشفتيها وجنتيه .. وتغرق بدمعها وجهه ، وحتى أحست

بأنها تكاد تنهاوى فهبطت فوق المقعد .

ومضت فترة سكون عجيب كانت تبدو كأنها فى غيبوبة .

فلم تفتق إلا على صوت الباب يفتح ، والمرضة تدخل لتعطى الإبرة للمريض .

وبعد لحظات انتهت الممرضة من عملها .. وغادرت الغرفة .. ومرة ثانية ضمتها الخلوة .

وجذبت المقعد بجوار الفراش ، وجلست ملاصقة له ، واضعة كفه بين كفيها .. مقبلة إياها بين آونة وأخرى .

وأقْبَضَ زوار .. ثم انصرفوا ، وهم أشد حزنًا .. ثم أقبل الليل ، وأخذت الممرضة تلقنها بعض الواجبات التى يجب عليها عملها .. ثم تركتها وحدها .

وجلست ترقبه .. وكانت تجده بين آونة وأخرى يقلب رأسه يمنة ويسرة فى تملل وضيق .. ثم يطلق تنهيدة حارة ، أو أهة متوجعة ، فتحس كأن نياط قلبها تتمزق .

ومضت الساعة تلو الساعة ، وهى جالسة فى مقعدها لا يغمض لها جفن .. وأحسّت بصداع شديد يطرق رأسها فقامت إلى الدرج الذى به « الحقن » تبحث فيه عليها تجد قرصاً من الأسبرين .

ولم تجد سوى الحقن .. والورق .

وأخذت تحرق فى الورق .. وخيل إليها أنها تسمع صوت الأب يقول :

— هذا آخر ما كتب .. إنها قصته الأخيرة .

« القصة الأخيرة » .. لقد قال لها إنه سيكتب قصتها .. وسيسميها القصة الأخيرة ، وأنها أنه سيجعل كاتبها يكتبها وهو على فراش الموت ، يلفظ آخر أنفاسه .

أيمكن أن يكون قد حدث هذا ؟!

لا .. لا .. إنه لم يلفظ آخر أنفاسه .. ولن يلفظها ! إنه يتنفس بانتظام ..

وسيفيق من غيبوته قريباً . قد يصيبه الشلل ، ولكنه سيقى على قيد الحياة ..
سيتحدث ويضحك وسيبقى حياً .

ولكن ترى ماذا كتب ؟
أتراه قد كتب عنها حقاً .. أم تراه قد نسىها فيما نسى ؟! أطواها قلبه كما طوى
غيرها ؟. لقد قال لها إنه لا يستطيع أن يعيش بغير حب .. فهل استطاعت واحدة
سواها أن تحتل مكانها كما احتلت هي مكان سواها ؟
من يدري ؟.

ترى ماذا كتب ؟
ومدت يدها فأمسكت بالأوراق .. وبدأت في قراءة بضعة الأسطر
الأولى .

وضغطت بأسنانها على شفتيها حتى كادت تدميها
إنها قصتها هي .. بل إنها رسالته إليها !
إنه يناجيها .. ويعتب عليها هجره ونسيانه
لقد كتبها من أجلها .. وفاء بوعد لها .
وعاد قول أبيه يطن في أذنيها :

— لقد أصر على كتابتها .. وكانت السبب في انتكاسه ومضاعفة حاله
ليتها ما رجته أن يكتبها .. ليتها ماتت قبل أن تسبب ذلك الجهد له !
وأمسكت بالورق ، وجلست على المقعد تقرأه بنفس مضنية ، وقلب
محروق من اليأس والعذاب .

وأخيراً انتهت من قراءتها .
وسقط رأسها على صدرها في إعياء وبأس .
وعادت تستعيد ما قال :
— لا بد أن أضع لها خاتمة من عندى .. أجعلك مثلاً تعودين في اللحظة

الأخيرة نادمة مستغفرة .. ولكنك تجديننى قد ذهبت ..
لقد عادت إليه .. غير نادمة ولا مستغفرة .. لأنها لم تنسه قط .. ولم تهجره
ولا تسلوه .. إنها ما كفت عن حبه لحظة واحدة .. ولا شغلت نفسها بغيره .
إنها عادت إليه .. ولكن قبل أن يذهب .. إنه لن يذهب قط .. إنها ستعيده
إلى الحياة .

إنه لن يذهب أبداً وهي بجواره .
إنه سيفيق من غيبوته ويرأها .. ويعرف أنها تحبه كما أحبته دائماً .. وكما
ستحبه إلى الأبد .

أجل ! ستدفع عنه ما أحزنه .. وتعيد الثقة في نفسه .. فيها وفي البشر ، وفي
الحياة .. ستجعله سعيداً .. سعيداً .. ومن غيرها أقدر على ذلك ؟
إنها لن تتخلى عنه قط .. ستكون له كما يشاء .. وعلى أى وضع يريد .
ما أشد حمقها لو حاولت بعد ذلك أن تتمسك في هذه الحياة القصيرة الزائلة
المعقدة .. التى لا منظم لها سوى قدر ساخر ، ولا محرك فيها سوى قوة جائرة لا
تبغى سوى الهزل بنا والعبث بمشاعرنا وبرغباتنا !
ما قيمة حياة طويلة رتيبة مملة قاتلة .. إذا قيسَتْ بلقاء بين ذراعيه واستسلام
تحت شفتيه ؟

ما قيمة حياتها لو لم تتخللها بضعة الأشهر التى تمتعت فيها بحبه ؟ لقد منحها
من السعادة ما يجعلها تشعر أنها قد أخذت أكثر من نصيبها من الحياة .. وما جعلها
تشعر أنها الراححة مهما لقيت من صنوف العذاب والشقاء .
إنها ستعيده إلى الحياة .. وتعيد نفسها إليه .. ليفعل بها ما يشاء ، ولن تحاول
صده أو هجره أو البعد عنه .. ليقبل الناس عنها ما يقولون .. إنها مجنونة شاذة ..
ولن تعبأ بأقوال العقلاء الطبيعيين .

فقط .. لو يعود إلى وعيه ..! لو يحس بها ويرأها ..! ويغفر لها ما قد ظنه بها !
ولكن لم يبذل لها أن هناك أية فائدة .. فلقد استمر في رقده محرراً رأسه بمنة

ويسرة في ضيق وتململ .. مرسلا الآهة تلو الآهة .. فإذا ما كف عن التلمل والآهات .. اندفع يهذى .. تارة باسمها ، وتارة بخليط مشوش من الأقوال والنداءات .

ومرت بها الأيام وهي مشدوهة تائهة .. تمر بها أشباح الزائرين ، الراحين والغادين دون أن تميز لهم وجهاً ، فما كانت تبصر إلا وجهه الذي يزداد هزاً وشحوباً يوماً بعد يوم .

واستمر الجلو كوز وغيره من الحقن تدفع في دمه وهو مسجى لا حراك به ، وبدأ يداخلها إحساس أليم باليأس .. فما كانت ترى من حولها ما ينبىء بأن هناك بادرة رجاء ، أو بارقة أمل .

كانت الوجوه كلها عابسة مقطبة والنفوس تفيض باليأس والمرارة . وجلست ذات ليلة في مقعدها ترتقبه في حزن وهو يتململ ويتأوه .. وطاف بذهنها كيف قال لها ذات يوم : إنها مسلمة ، وكيف حاولت بعد ذلك أن تكون مسلمة وكيف تعلمت الرضوء والصلاة ، وقراءة القرآن .

ولقد نسيت كل ذلك بعد زواجها .. لقد جعلها اليأس تكفر بكل شيء . ترى لِمَ لا تعاود صلاتها الآن .. وتجرب أن تلجأ إلى الله عسى أن يعيده لها ؟ وأحست من تفكيرها بسكينة كبرى ، وبدت لها في الظلمات بارقة أمل ، ولم تفتأ حتى قامت إلى الحوض الأبيض الصغير فتوضأت .. ثم افترشت منشفة على الأرض .. وأخذت في الصلاة .

ولم يكن في ذهنها إلا هو .. كانت تردد صلاتها برجاء واحد .. هو إعادته إلى الحياة .

وكانت تحديق في سقف الغرفة وهي راكعة ، وكأنها تبصر الله من خلاله ، وأخذت تتمتم هامسة :

— يارب .. أنت تسمعي . أعده إلى يارب ، ولو بضع لحظات .. لست أطمع في كثير .. بضع لحظات فقط .. ألقاه خلاها قبل الفرقة الأخيرة .. لقاء

أخبر يارب هو كل ما أرجو منك .. أريد أن أمسك يده ، وأحدثه .. أريده أن يشعر بى .. ويعرف أنى عدت إليه .. وأنى أحبه ، وسأحبه حتى أموت .. وبعد أن أموت .. لو يكون فى قدرتى أن أشعر وأن أحب .. أريده أن يموت فريراً هائلاً سعيداً .

أعده إلى يارب .. لحظة واحدة .. دعه فقط يرانى ثم يذهب .. يارب اغفر لى ولا تؤاخذنى بما سبق من خطاياى . ارحمنى الآن فقط ، وعذبنى بعد ذلك كما تشاء .. أريده يارب .. بضع ثوان .. ليس هذا عليك بكثير .

وقطع عليها همساتها الداعية .. صوت تنهيدة طويلة انطلقت من صدره ، وأعقبها أهة حارة .. وازداد تملل رأسه وحركته فوق الوسادة .

ونفضت بسرعة فوقفت بجواره وانحنى عليه تمسح بكفها جبينه .. كانت أنفاسه تتلاحق ، وبدأ عليه كأنه يبذل جهداً .

وتلاحقت أنفاسها كأنما قد شدت إلى أنفاسه .. وخفق قلبها بشدة .

أيمكن أن يكون الله قد استجاب إلى دعائها ؟!

أيمكن أن يكون فى طريقه إليها ؟

أيمكن أن يعود حقاً ؟

وبلا إرادة .. أخذت تهتف بإسمه .. كأنما تراه مقبلاً من بعيد وتتعجل

قدومه .

أخذت تهتف ، وتهتف .. هتافاً من أعماق الأعماق .. لم تكن تهتف

بشفيتها .. بل بروحها وقلبها .

إنه لا بد أن يسمعها ، ولا بد أن يعود !

وفجأة كفت عن الهتاف .

فلقد كف هو عن التملل ، وكف عن التأوه .

إنه لا شك عائد .. عائد .. إنه سيفتح عينيه ، ويراها ويتحدث إليها ...

وأحست به يأخذ شهيقاً طويلاً .. بلا زفير ، وشهيقاً ثانياً ، وثالثاً .

وبعد ذلك ساد سكون عجيب .. لا شهيق ولا زفير .. ولا تململ ولا تأوه .
وسألت نفسها في فرع : ما سر هذا السكون ؟ . لقد خيل لها أنه عائد إليها .
إمكان أن يكون قد ذهب ؟!

ذهب نهائياً .. بلا أمل في عود .. أو رجاء في لقاء ؟
ومدت أصابعها مشنجة في ذعر شديد ، وبمتهى البطء ، وضعتها على طاقتي
أنفه .

لقد كانت هذه الوسيلة الوحيدة التي تعرفها تمييز الموقى من الأحياء .
ولم تحس بهبة نفس تصدم أصابعها الباردة .

ولكنها لم تقتنع .

إنه لا يمكن أن يذهب .. لقد كان عائداً إليها .

وأحست بجسدها ينهار ، وتهاوت فوق الجسد المسجى تضمه إليها وتضع
وجهها على وجهه .. كانت تثبت به .

وشعرت ببرودة وجهه تحت لهيب وجهها ، واندفعت تنشج في بكاء
عنيف .

ولم تشعر بالباب حين فتح ، ولكنها أحست بيد تمس كتفها ثم تجذبها من
ذراعها محاولة دفعها عن الفراش .

وسمعت صوتاً يسألها :

— ماذا بك ؟! ماذا حدث ؟

وتحاملت على نفسها ونهضت عن الفراش ، وأشارت إلى الجسد الساكن
وهي تضغط بأسنانها على شفتيها وهمست :

— لقد ذهب .. انتهى كل شيء .

وأقبلت الممرضة الأخرى تتحسس الراقدة ثم جذبت الملاءة البيضاء .. فغطت
وجهه ، وجذبتها من ذراعها خارج الغرفة وهي تقول أمرة :

— تعالى .. لا فائدة من بكائك .

وسارت معها بلا مقاومة .. فقد كانت لا تملك المقاومة فكانت بلا وعى ، ولا
حسن ، ولا قوة ، ولا إرادة .

ومن العيب أن تحاول أن تذكر كيف مرّت بها الفترة التالية بعد ذلك ..
كانت أشبه بالضائعة .. الضالة .

بل كانت فعلا ضائعة ضالة .. كانت أشبه بالمتحركة في سحب ثقال معتمات
سود .

لقد غادرت حجرته ، وجلست في حجرة المرضات صامتة واجمة .. لا
بكاء ولا دموع ، ولا صوت ولا حركة .

لقد انتهى كل شيء .

كان هذا هو ما يسيطر على ذهنها .

انتهى .. انتهى .

ليت مرضة قد طال ؟ . ليت استمر في غيبوته إلى ما لا نهاية ؟! لقد كانت على
الأقل .. تراه ، وتسمع أناته وتحس يده .

كانت تخدمه وتسهر عليه .

كانت تشعر أنه لها ، وأنها تابعة له .

أما الآن .. فقد فقدت كل شيء .

إنها لا تستطيع أن تضم جسده .. أو تشيعه .. إنها لا تملك إلا التباعد
والانزواء .. فهي لا تملك حتى حق البكاء عليه ، فهي بالنسبة إليه .. لا شيء .

لا شيء أكثر من مرضة .

ولم تك تعرف إلى أين تذهب ؟ وماذا تفعل ؟ وهي شريدة منبوذة .. لقد
تركت بيتها وزوجها وابنها ، وهي لا تندم على ما فعلت ولا تفكر قط في العودة

إليهم ، وهي كذلك لا تستطيع العودة إلى أقاربها ، فهم لا شك قد لعنوها وتبرعوا
منها . واعتبروها مجلبة للعار .

ليفعل القدر بها ما شاء .. فلا تظن أنه قد بقي لديه شر مما أعطاها .. لقد وهبها

أسوأ ما عنده ، وكل ما يهبه لها بعد ذاك محتمل .
وفي وسط معمعة الموت .. خيل لها أنها أضحت عند الجميع نسياً منسياً ..
ولم تمض برهة حتى أقبل عليها الأب الشيخ الذى لم تنسه الصدمة القاتلة أن يسأل
عنها ويذهب إليها فيضمها إليه باكياً ويقول لها :
— لست أدرى ماذا أقول لك ؟ ولا كيف أكافئك ؟ فليست أملك ما يساوى
فعلك ، ولكن ...

ثم مدّ إليها يده برزمة الأوراق التى كانت فى الدرج وأردف قائلاً :
— خذى هذا فأنى أظن أنك أحق الناس به . لقد قرأت ما به ذات ليلة .. فلم
أشك فى أنه قد كتبه من أجلك .. خذيه إنه ملكك ، وليرعك الله .. فإنك لم
ترتكبى إثماً ، ولم تأتى ذنباً ، ولا تستحقين إلا كل عطف ورعاية .
وملأها قوله بعزاء عجيب .. كانت المرة الأولى التى تسمع من إنسان .. أنها
لم تخطئ .. ولم تذنب ، وأنها تستحق كل عطف ورعاية .
الحمد لله أن جعل هناك من يفهم مشاعرها ويقدر تصرفها .
ولم يكد الشيخ يودعها .. حتى أقبلت صاحبها فضمها إليها ، وقالت لها فى
لهجة شفوقة وإن كانت لم تخل من تأنيب :
— كنت أعلم أن هذا سيحدث ، والآن ماذا أنت فاعلة ؟ هيا بنا إلى البيت
لتدبر الأمر .. فلا أظنك تستطيعين الجلوس والتفكير إلى ما لا نهاية .
ولم تكن هناك فائدة من مقاومة صاحبها .. بل لم يكن هناك موجب للجدال
والمناقشة ، وإلا فأين ستذهب إذا لم تذهب معها ؟
وأضت بضعة الأيام التالية فى بيت صاحبها ، وهى فى حالة ذهول تام ..
منهارة النفس ، متداعية الجسد .. لا تكاد تتناول إلا ما يقيم أودها ، ولا تذوق
النوم إلا لما .
وأخيراً .. بدأت تفكر .
ما المصير ؟ وما النهاية ؟ إلى متى ستظل هكذا عبثاً على صاحبها ؟ . إنها لو

احتملتها غداً فلن تحملها بعد غد .. إن لكل شيء نهاية .. والكرم إذا طال ..
انقلب ضيقاً وتبرماً ، وهي لا تستطيع قط أن تفكر في أن ترغب أحداً على إيوائها
وإطعامها .

يجي إذاً أن تفكر في حل لمصيرها .

ولكن علام كل هذا الإجهاد والحل ميسور ؟

لماذا لا تعمل ممرضة كما كانت .. لِمَ لا تستمر في العمل بالمستشفى ؟! إنهم لا
شك يقبلون إيوائها وإطعامها .. نظير خدماتها .

إنها لا تريد سوى الكفاف ، من المأوى والمأكل والملبس .. إنها تريد أن تقبع
بعيدة عن الناس ، وستهيئ لها خدمة المرضى الكثير من راحة البال والضمير .
وفي ذات ليلة أنبأت صاحبها بعزمها على الرحيل في الغد لكي تعمل في
المستشفى .

وذملت صاحبها ورفعت حاجبيها متسائلة في دهشة :

— تعملين ؟ أين ؟

— في المستشفى .. ممرضة أو خادمة .. أو أى عمل يضعونني فيه .

— ما هذا الذى تقولين ؟ ألم يكفك كل هذا الهوس الذى مضى ؟ يجب أن

تعودى إلى رشدك الآن .

— وماذا تريدني أن أفعل .. وأى عمل أستطيع أن أتعيش منه سوى هذا ؟

— عمل ؟! وما الذى يجبرك على العمل ؟ ولماذا لا تعودين إلى بيتك أو إلى

ذويك ؟

— بيتي ؟ وذوى ؟ إنك حسنة النية جداً .

— بل أنت الحمقاء المجنونة .. إن كل شيء يمكن أن يقتفر . لِمَ لا ترجعين إلى

بيتك ؟ ولا شك أن زوجك سيغفر لك وسيسمح لك بالعودة !

— أولاً .. هو لن يغفر ، وثانياً ، أنا لن أقبل غفرانه ولن أعود إليه بعد ما

فعلت .

— وذوبك؟

— ولا ذوبى ، إني لست محتاجة لأحد . أنى أعرفهم جيداً .. إنهم قوم نفعيون ، أنانيون ، كفانى ما رأيت منهم . لقد نشأت بينهم كأنى فى صحراء أجديت من قطرة حنان . إني لم أعد صغيرة ولا عاجزة ، وسأعرف كيف أعول نفسى .

— على أية حال ، ليس هناك وجه للعجلة .. إنك فى بيتك ، ولن أضيق بك ذرعاً . امكثى معى حتى يحلها ربنا .

« يحلها ربنا » وانطلقت منها ضحكة قصيرة ساخرة وأجابت .

— ربنا يأبى أن يحلها فى وجهى .. لا بد أن أحلها أنا . سأذهب غداً إلى المستشفى .

— لا تكونى عنيدة .. امكثى بضعة أيام !

— لا داعى للتأجيل .. لن يكون هناك فارق كبير بين اليوم وبعد بضعة أيام .

— ابقى على الأقل إلى ما بعد غد ، حتى يدبرها المولى .

— قلت لك لن يدبرها المولى !

— سأدبرها أنا .. صبرك على .

ولم تملك إلا أن ترفع كتفها فى يأس وتجيب :

— كما تشائين .

ولم يكن يخطر على بالها كيف تنوى صاحبها أن تدبرها ، بل لم تكن تظن قولها أكثر من مجرد رغبة فى استبقائها ، ولم تشأ أن تستمر فى جداولها ، قائلة لنفسها إنه لن يضيرها أن تمكث يوماً أو يومين أو حتى بضعة أيام ، لا سيما وأن البيت لا يحتوى إلا على أمها العجوز الطيبة التى لا يكاد يحس بها أحد .. فهى والأمر كذلك .. لا تثقل على أحد .

ولكنها فى اليوم التالى فوجئت بصاحبها .. وقد أقبلت عليها قبيل الظهر بعد غيبة ساعتين خلال الصباح ، وتبينت فى وجهها تهماً وضيقاً .

ولم يكده يستقر بها المقام حتى سألتها مستفسرة :

— ما بالك ؟! إنك لا تبدين مسرورة !. هل هناك ما يضايقك ؟

هزت صاحبته رأسها في أسف وأجابت :

— لم أكن أظن البشر بمثل هذا الحقد والسوء ..

— كيف ؟ ماذا حدث ؟

— لقد ذهبت إليه .. وحاولت استغفاره .. ولئن أحاول أن أصف لك كيف

قابلني .. لقد ازدراني كما يزدري متسولاً حقيراً .. ولم يجلس معي سوى بضع

لحظات ثم نهض بعدها قائلاً لي : « إن الأمر قد انتهى .. أخبريها أن لا أمل يرجي

لها في العودة .. وأنبئها أنها لن ترى ابنها مادمت على قيد الحياة .. ومن الخير لها ..

أن تبقى في المستشفى لخدمة المرضى » .

وأحسست من قولها بقطعة ألجمة .. ليست من الخذلان بل من الإذلال .. ولكنها

كتمت ما في نفسها .. إذ لم يكن من العدل أن تثور على صاحبته .. وهى التى

عرضت نفسها للخذلان من أجل ما ظنته مصلحتها .

ومالكت نفسها وقالت في هدوء :

— كان يجب عليك ألا تذهبي .. على أية حال .. الحمد لله أن خذلك هو ..

لأنه لو رضى عودتي .. لخذلتك أنا ورفضت العودة .

وكانت تقولها فى عزم وصدق ، رغم أنها كانت تعتقد أن صاحبته لن تصدق

إلا أنها مجرد « مقاوحة » .

وفى اليوم التالى كانت تسير وإياها إلى المستشفى ، ولم يستغرق الأمر كثير

جهد .. حتى عينت بالخدمة فيه .. وارتدت ثياب المرضات .

ومضت بها الأيام وهى مجدة فى عملها .. مخلصه فيه ، وكان لديها من ذكائها

وثقتها .. ما يجعلها تهين لنفسها مركزاً طيباً ، حتى أضحت فى بضعة شهور

ممرضة ممتازة .

وعاشت حياتها فى المستشفى شديدة الانطواء على نفسها مكبة على عملها ..

لا تكاد تجد لحظة للخروج أو التفكير .

ومنحها عملها الجديد .. خير ما يمكن مثلها من عزاء وتهذئة وصبر .
ووطنت نفسها على أن تقضى حياتها في المستشفى .. ولم تعد تطمع في أى
شئ .. حتى ذلك الحين إلى ابنها الذى كان يخزها بين آونة وأخرى استطاعت أن
تسكنه تماماً ، لا سيما وأنها كانت تعرف أنه قد سافر مع أبيه .. وأن من المستحيل
رؤيته .

لقد أدركت أن أكثر ما يشقى الإنسان في حياته هو رغبته .. حقيقة أنها قد
تمتعه قليلا .. ولكنها تحمل وراء تلك المتعة كل مسببات الشقاء .. شقاء السعى ،
وشقاء الخيبة وشقاء الحرمان .. وحتى بعد الحصول عليها .. تحمل شقاء الملل .
فلو أمكن للإنسان أن يحد من رغبته .. من شتى الأنواع .. وأن يعيش بلا
رغبات .. فقد سيطر على حياته وملك زمامها .

وكذلك عزمتم هي على أن تكون .

كانت تحيا بلا رغبة .. في أى شئ .

لقد كانت لها رغبة وحيدة .. ذرتها ربح الزمن .. ومزقها القدر .. فيجب أن
تعيش بلا رغبة ولا أمل .. إنها الراجحة .. فلقد تناولت مرة واحدة كل ما يخصها
من متعة وألم ، وعليها الآن أن تقطع طريق الحياة بلا أمل ولا رغبة ولا متعة ولا
ألم ، ولا سعادة ولا شقاء .

وقد بدا لها أنها على هذا النمط قد استقرت حياتها ، وإلى هذه النهاية قد انتهى
أمرها .

حتى أقبلت عليها إحدى الخادومات ذات يوم .. تنبئها أن هناك من يطلبها في
المكتب .

ولم تشك في أن صديقتها قد أتت لزيارتها ، فقد كانت لا تفتأ تزورها بين آونة
وأخرى ، حاملة لها بعض الهدايا .

وسألت الخادمة من باب تحصيل الحاصل :

— من الذى يريدنى ؟

— رجل .

— رجل ؟!

قالتها فى دهشة شديدة .. وعادت تسائل نفسها .. رجل !! أى رجل هذا الذى يسأل عني ؟ ولمه ؟

ولم يطل بها التساؤل .. حتى وصلت إلى المكتب ، ودفعت الباب فإذا بها تجد نفسها أمام الأب الشيخ .

ونفض الرجل ومد يده إليها مرحباً ، وبادلتة الترحيب مخلصه .. فقد كانت تكن له حباً عميقاً . إنه الشيء الوحيد الباقي من روحها الذاهبة .

إنها تبصر فى وجهه المتغضن ، وشعره الأشيب .. وقامته المهيبة .. صورة حبيبها .. إن عليه سيماء الكبرياء التى كانت تلازم ابنه ، الكبرياء الظاهرة التى ملؤها الدمائية واللفظ والرفقة والمرح .

وجلس الاثنان ، وبدأ الحديث متعذراً فى أول الأمر ، وقطعت هى الصمت الذى ران بسؤالها .. ذلك السؤال التقليدى :

— كيف الحال ؟

وأجابها هو الإجابة التقليدية :

— الحمد لله .. وأنت ؟

— الحمد لله الذى لا يحمد على مكروهه سواه .. الدنيا تسير .

ومرة أخرى ساد الصمت ، وأخذت الأفكار تتزاحم فى مخيلتها .. ماذا

حدث ؟ . وماذا يريد ؟ . وفيه مجيئه لها ؟

أريد أن يعطيني شيئاً ؟ .. أوراقاً أخرى كتبها حبيبها الراحل ؟ أم ترى يريد أن يأخذ الأوراق التى أعطاها إياها .. زادها فى الحياة ، وتعلتها فى السوحشة والفراغ ؟

أم تراه يريد أن يمنحها أجراً .. ولكن متى ؟ .. بعد هذه الأشهر ؟ . ولكنها لن

تقبل منه شيئاً .. إنها ليست ممرضة مأجورة ، وماذا تكون إذا ؟! وماذا تسمى هذه النقود التي تتناولها آخر كل شهر .. أليست أجراً ؟ أليست هي ممرضة مأجورة ؟. ولكنها لم تكن كذلك .

وقطع الرجل عليها سيل أفكارها بقوله :

— لقد أتيت إلى هنا لأني أريد ممرضة ، ولم يخطر ببالى أنك مازلت هنا .. حتى أنبأتني الخادمة التي قابلتها بوجودك فأحسست بغبطة لأني أستطيع رؤيتك .

— أنا أيضاً أحسست بنفس الغبطة .

— وإنى لأرجو أن تساعدني في الحصول على ممرضة .

— لأجل من ؟ أبعد الله الشر ؟

— لأجل زوجة ابني .

— أما زالت مريضة ؟

— إنها توشك أن تضع .

وكان قوله آخر ما كانت تتوقع .

تضع ؟! لماذا ؟.. لماذا تضع ؟ وكيف ؟. إنها تذكر أنه قال لها إنه ما من سبيل له إلى الأبناء .. وأن امرأته لن تضع .. لأنها أجهضت في أول حمل لها ، وقد قرر الأطباء أنها لو حملت بعد ذلك فستعرض حياتها للخطر .

كان ذلك من أسباب تنغيص حياته .. فلشد ما كان يتوق إلى الأبناء ، ولقد أمضى حياته بلا أبناء .. فلم يكذب يذهب حتى قرر القدر أن يرزقه بهم .

ولم تملك إلا أن ترفع حاجبها في دهش وتقول لنفسها « برفو أيها القدر » . ثم أخذت تردد للرجل قوله في ذهول :

— إنها توشك أن تضع ؟

— أجل .. لم يبق سوى بضعة أيام ، وحالتها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم .

— ولكنني أعلم أن الأطباء أمروا ألا تحمل .. خشية على حياتها ؟

— لقد أمضت عشر سنوات بلا حمل ، وقبل الحادثة ببضعة أيام .. تركت

نفسها تحمل .

وران الصمت برهة وعاد الرجل يتساءل :

— أأستطيع أن أجد ممرضة جيدة ؟ إننى وحدى معها فى البيت .. وليس معنا سوى خادمة وطاه ، ولا بد أن يعتنى بها إنسان يعتمد عليه .. ولا شك أنك تعرفين الممرضات هنا جيداً ، وتستطيعين أن تدلينى على واحدة .

وفجأة .. أجابت .

— سأذهب أنا معك .

قالتها بلا سابق إنذار .. لاله .. ولا لها .. لقد فاجأته بقولها .. كما فاجأت به نفسها .

وحلق فيها الرجل وتساءل فى عجب :

— أنت !.. تذهبين معى ؟ أنت تقومين بتمريضها ؟

وفى إصرار وحزم أجابت :

— أجل .. سأذهب .. إذا لم يكن لديك مانع .

— مانع !! أبداً .. أبداً .. أيمكن أن أصطحبك معى الآن ؟

— انتظرنى برهة حتى أعد نفسى .

وتركت الرجل وسارت فى عجلة لتستبدل ملابسها .

وانطلق ذهنها يصيح بها :

— قفى .. أيتها الحمقاء .. ماذا تفعلين ؟ وإلى أين أنت ذاهبة ؟ علام تذهبين

من دون سائر الممرضات ؟ ولم ترجين بنفسك مرة أخرى فى معمرة قد تخلصت

منها نهائياً ؟ مالك ولزوجته وأبيه وبيته ؟ اقبعى فى مقرك .. وكفى اندفاعاً !!

اهدئى فى حياتك الرتيبة الراضية .. أعينى نفسك على البرء والنسيان ؟!

أية مخلوقة أنت ؟ إن الرجل لم يسألك الذهاب ، ولكنه سألك أن ترشديه إلى

ممرضة .. فلم زججت بنفسك فى الموضوع .. إن هذا آخر ما كان يجب أن

تفعله ؟

تمرضين زوجته ؟ .. وتلقين ابنه ؟ .. وتأمين في بيته ؟ وربما على فراشه ؟ ..
استريحي يا بنية ! استريحي ! وكفاك ما لقيت من انفعال وعناء .. أرسل
أية ممرضة أخرى .. أية مخلوقة على ظهر الأرض سواك .. ستكون أصلح
منك .. فلن تحس بأى إحساس لما حولها .. ولكن أنت ؟ .. تتجولين في بيته
وتعيشين مع زوجته .. هذا جنون !

كوني عاقلة .. ارجعي إلى الرجل .. وقولى له .. إنك وجدت ممرضة جيدة
ستذهب معه .. أجل ! أجل ! اذهبي إلى إحدى الممرضات وكلفيها بالذهاب
معه .

وهكذا ظل الذهن يهتف بها ملحاً مقنعاً ، وظلت هي في الوقت نفسه تواصل
ارتداء ملابسها ، وإعداد نفسها ، وكأن صيحات الذهن ليست لها .
إنها مخلوقة عنيدة .. لا ترجع عن غيها .. ولو لم تكن كذلك .. لما صارت إلى
ما هي فيه الآن .

وبعد لحظات كانت تهبط الدرج معه .. ثم استقرت في العربة بجواره .
إنها نفس العربة ، ونفس الجلسة التي كانت تجلسها فيما مضى .. لا فارق بين
أمس واليوم .. إلا أنها استبدلت بالابن الأب .. أجل لا فارق بين الجالس أمس
والجالس اليوم .. إلا جيل واحد .

وأخذت الدور تمر عليها بسرعة ، وهي جالسة في العربة ، مرت غمرة ثم
السكاكيني وشارع الملك والعباسية ، ودلفت العربة في طريق الخليفة المأمون ..
عابرة مزلقان العباسية . ثم سارت بجوار ثكنات الجيش حتى منشية البكرى .. ثم
اتجهت يساراً في أحد الشوارع الجانبية ، وبعد دورة أو دورتين وقفت العربة أمام
فيلا بادية الفخامة .

ونزل من العربة وتبعته إلى الداخل عابرة الحديقة الأنيقة الوارفة الظلال ،
ودق الجرس ، ثم وقفا برهة أمام الباب الداخل .. حتى فتح الباب خادماً صغيراً ،
وتنحى عن الباب مفسحاً الطريق للداخلين .

وأحست بأنفاسها تتلاحق وبقلبها يخفق بشدة ، وقبل أن تخطو إلى الأمام
بمجازة الباب .. ثمنت لو استطاعت أن تنكص على أعقابها وتفر هاربة من حيث
أتت .

لقد أصابها إحساس المقدم على خطر لا يعرف كنهه أو مبلغه ، فهو يظل
مندفعاً إليه غير هباب .. حتى إذا ما لاح الخطر وصادفه وجهاً لوجه .. خارت
عزمته .. وخذلته قواه .

هذا هو ما أصابها ، وهى تخطو الخطوة الأولى إلى الباب .
لقد أحست بمبلغ حمقها وجنونها ، وخيل إليها أن الكل سيمسكون بتلابيبها ثم
يقذفونها خارج الدار .

أجل !.. إنهم سيعرفونها .. سيقولون .. هذه هى حبيبته .. هذه هى التى
كانت تريد أن تنتزعه من زوجها ومن بيته .

لقد تملكها إحساس عجيب بالخطيئة ، وكأنها توشك أن ترج بنفسها إلى
القصاص .

ومع ذلك لم تملك إلا أن تسير وراء الرجل فتجتاز الممر القصير إلى الردهة ..
ثم تقف مترددة برهة وهى تراه قد صعد درجاً خشبياً مفضياً إلى الدور العلوى .
ولا حظ ترددها فناداها فى أدب :

— تفضلى اصعدى .. إنها راقدة فى الدور العلوى .

ما كان عليها من هذا كله ؟! أما كان خير لها أن تقبع آمنة فى المستشفى بين
مرضاها المجتهولين ؟

وصعدت السلم .. ووصلت إلى القاعة العلوية ، فوجدت خادمة عجوزاً فى
انتظارهما ، وقال الرجل للخادم الصغير وقد وجدها ما زالت تحمل حقيبة
التمريض :

— خذ الحقيبة من الهائم .

الهائم ؟! لا .. لا .. يجب أن يكون الرجل أكثر حرصاً .. إنها ليست بهائم ..

إنها مجرد ممرضة .

ومد الخادم يده فتناول الحقيبة ووضعها على منضدة وسط القاعة ، وسأل
الرجل الخادمة العجوز :

— كيف حال سيدتك ؟

— كما هي .. لقد نامت نصف ساعة .. ثم استيقظت ثانية ...

— أهي الآن يغطي ؟

— أجل .

ووجه الحديث إليها قائلاً :

— تعالى .. تفضلى .. هذه هي حجرتها .

ومرة أخرى أصابها نفس الخور والانهيار الذى أصابها عندما همت باجتياز
باب البيت ، ولكن هذه المرة كان أشد .. حتى لقد همت بأن تقول صارخة :
« لا .. لا .. أعيدونى . ارحمونى . لا أريد أن أراها . إننا غريمتان .. طالما
كرهتها ، وحقدت عليها ، وتمنيت لها الموت .. طالما تخيلتها جالسة فوق ساقيه ،
أو راقدة بين أحضانها ، كان ذكرها يقتلنى قتلاً . كلا .. كلا . لن أدخل إليها ،
ولن أمرضها . اجثوا لها عن ممرضة أخرى واطركونى أعد .. أطلقوا سراحي .. لقد
تبت إلى الله .. ما عدت أفكر فى مثل هذا الحمق مرة أخرى » .

كان الهاتف يصيح بها فى داخلها ، وكانت قدماها تعبران الغرفة كأنها منساقاة
بدافع داخلى ، لا قبل لها على وقعه أو مقاومته .

وأخيراً وقفت فى الغرفة .. غرفة غريمته .. أو غرفة حبيبها .

وكان أول ما صدمها ، صورة مكبرة له بالألوان ، نفس الصورة التى أعطاها
لها مصغرة والتى مازالت محتفظة بها مع خطابات وأوراقه ، وهداياه .. ذخيرة
العمر ، وزاد الحياة . أجل إنها نفس الصورة التى لا يغمض لها جفن كل ليلة إلا
عليها ، ولا يستقر لها بدن حتى تضمها بيدها وتضعها على شفتيها .

ويبدو أنها حملت فى الصورة أكبر مما يجب ، حتى إنها لم تبصر المريضة ،

وحتى اضطر الأب أن يلفت نظرها بقيامه بواجب التعريف بين المرأتين مرفقاً اسميهما بكلمة هانم .

أما زال يصر على أنها هانم ؟ .. يجب أن تلفت نظره إلى ذلك ، كما يجب أيضاً أن تحذره من أن يفصح — دون أن يقصد — عن حقيقتها وعن أصلها .
ورحبت المريضة بها بصوت رقيق عطوف خافت قائلة وهي تبتسم ابتسامة باهتة :

— أهلاً وسهلاً .

إذا فهذه هي غريميتها ، والتي طالما أقضت مضجعها .
ولكنها ليست كما كانت تتصور ، ليست كما تعودت أن ترسمها في ذهنها .. إنها توحى بالمحبة والسلام والنسكينة والهدوء .
إن الإنسان — كائنات من كان — لا يملك إلا أن يحبها ، فقد كانت تفيض من وجهها الطيبة والرفقة .

ما أعجب هذا الزمن !

أكان يخطر ببالها يوماً ما وهي تنقلب على الفراش مسهدة متخيلة حبيبها بين أحضان زوجته ، أنها ستقف أمامها يوماً وجهاً لوجه ، وتشعر لها بالعطف والحنان ؟

أكان يخطر لها ببال وهي التي كانت — عندما يتملكها شيطان الغيرة — تتمنى لها الموت ؟ .. أكان يخطر لها ببال أنها ستتمنى لها البقاء .. وستبذل كل ما في وسعها لإنقاذ حياتها ؟

كانت تحس في قرارة نفسها أنها ستقدم على عملها ذاك وهي أشد ما تكون رضا وغبطة .

ومدت يدها فأمسكت بيد المريضة وضغطت عليها برفق وهتفت في إخلاص وحرارة :

— إن شاء الله تقومين بالسلامة .

وتم التعارف بينها وبين غريماتها .. تعارف رقيق ودود ما كانت تتخيله قط .
وران الصمت برهة .. ووقفت تنظر إليها .
وقالت المريضة للأب :

— دعها .. ترى حجرتها .. وتغير ملابسها .. وتستريح .

عجياً لهذه المرأة !!! .. إنها أبداً .. تبحث عن راحة غيرها !

وعلا صوتها الضعيف ، تنادى الخادمة قائلة :

— أعدى الفراش في الحجرة التي بجوار السلم ، وضعى المنضدة .

ولكنها قاطعتها برفق قائلة :

— لا داعى أن ترهقى نفسك بشيء .. سأذهب أنا وأتولى كل شيء ..

استريحى الآن .. وسأعود إليك بعد برهة .

ساكنة الكمن

١٥

وهكذا استقبلت في بيته . استقبالا طيباً بدد كل مخاوفها ، وملاها شجاعة ورغبة وإخلاصاً .

وذهبت إلى الحجرة التي قادت إليها الخادمة .. كانت حجرة صغيرة نظيفة أنيقة مرتبة .. ذات فراش ودولاب ومنضدة وبدت كأنها معدة دائماً لاستقبال أى ضيف .

كانت الحجرة غربية بحرية تطل على الحديقة ، وكانت تواجهها حجرة بدا من بابها المفتوح نصف فتحة أنها حجرة مكتب .. حجرته هو التي كان يجلس للكتابة فيها .

وجلست على الفراش وانطلقت منها تنهيدة طويلة .

لشد ما كانت تحس بالراحة والطمأنينة ، والعزاء .. إنها هنا في بيته ، وكل شيء يقع عليه بصرها قد وقع عليه بصره من قبل ، وكل شيء تمسه يدها قد مسته يده . تطلعت ببصرها من باب الشرفة المظلة على الحديقة ، فوجدت الشمس تنساب وراء الأفق .. لم تكن تبدو كالشمس ، ولم تكن أشعتها تذهب بالبصر .. بل كانت قرصاً أحمر قانياً ، كأنه قرص جمر ، وكان يفيض من حمرة الصافية على كل ما حوله ، على قمم البيوت ، وعلى رءوس الشجر وأطراف الأعمدة المتناثرة على بعد .

وعادت تذكر خلوتها معاً ، يرقبان القرص الهاوى ، وتذكرت قوله :

« اذكرى هذا المنظر واذكرينى .. اذكره جيداً ، فمأستوعبه في رأسي حتى أذكرك كلما رأيته » .

إنها تذكره جيداً ، تذكره كلما رأت شمساً غاربة ، أو نجماً هاوياً .. فما أشبهه به شكلاً وموضوعاً .

وأخرجها من شرودها طرق خفيف على الباب ودخل الخادم يسألها :
— ماذا ترغبين في العشاء ؟

— أى شيء .. أنا لم أعود إلا عشاء خفيفاً ، وما زال الوقت مبكراً .

— إني أسأل حتى نستطيع إعداده .. إذا كنت تريدين شيئاً معيناً ؟
— شكراً .

— أتريدين الآن الشاي ؟

— لا أريد شيئاً .. لا تزعجوا أنفسكم من أجلى .

— إن السيدة أمرتنا بأن نعد لك كل ما تطلبين .

— شكراً للسيدة .. ولكم جميعاً .. شكراً لله أن منحني بضعة أيام في داره
وفي مقره .

وبدأت حياتها في دار الحبيب الراحل ، وتمريضها لزوجته الراقدة .. وهي
قريرة النفس ملء قلبها الغراء والسكينة .

وأحببت هي المريضة ، وأحببت المريضة .

تحابت الغريمتان حباً خالصاً في بضعة أيام .

لم يكن عجباً أن تحبها الزوجة وتأنس إليها ، وقد وجدت منها تفانياً في خدمتها
وسهرأ على راحتها ورقة في جلستها ، وجمالاً في خلقها وتكوينها ، ولطفاً في
عشرتها ، ولم يكن عجباً أيضاً أن تحب هي الزوجة .. الطيبة الودود ، المسألة
الأمينة التي تأتي إلا أن تعاملها كأخت .. لا كمرضة مأجورة .

كانت قريرة النفس .. لإحساسها أنها تخدمه هو .. بطريقة غير مباشرة ..
إنها تخدم شيئاً متعلقاً به .. إنها تخدم ابنه الذي يوشك أن يرى النور والذي طالما
تاق هو إلى رؤيته .

وكانت تمر بها أوقات يستبد بها الحنين ويهفو بها الشوق .. كانت أوقاتاً
عسيرة أشبه بالأزمات .

عندما تجلس في حجرة المريضة في الليل ، والسكون سائد ، والصمت محيم

إلا من أنفاس المريضة النائمة تتلاحق في هدوء ، ويطوف بصرها في أنحاء الحجره باحثاً منقباً حتى يستقر على الفراش الخالى بجوار المريضة .

هنا كان يرقد .. كم تخيلت فراشه في أرقها ، وكم تخيلت الحجره بأكملها .. كانت تسأله كيف ينام ، وكان ينبهها ضاحكا :
— كبقية خلق الله .

— أتنام على ظهرك أم على جنبك ؟

— أبدأ بالنوم على جانبي الأيمن واضعاً ذراعى اليمنى تحت الوسادة وذراعى اليسرى مشية من المرفق فوق رأسى هكذا أبداً ، ولست أدري على أية صورة مضحكة ينتهى لى الوضع إذا ما استغرقت فى النوم ، على أية حال أنا لا استريح إلا على جانبي الأيمن .

كانت دائماً تتخيله فى نومه ، وكانت لا تنام إلا على جانبها الأيسر كأنها تواجهه ، وقد وضعت إحدى الوسائد بين أحضانها كأنها تشاركه الفراش .. كانت سعيدة بالتخيل وكانت لا تفتأ تحدث الوسادة وتناجىها ، وعندما قبل يدها أول مرة .. كانت تنظر إلى يدها وتقبلها فى حسد ثم تمس موضع قبلته بشفتيها وتهمس ليدها قائلة :

— أنت يد محظوظة لأنه قبلك .. سأظل دائماً أعتز بك .

كانت تطوف برأسها كل هذه الذكريات ، وهى تجلس صامتة فى بهمة الليل ترقب الفراش الخالى ، ويعودها الشوق فترفع يدها وتمسها بشفتيها كما مستها فى زمن خلا .

ويتنقل بصرها من الفراش إلى الشرفة . هذه هى الشرفة التى كانت تنتظره فيها زوجته حتى يعود .

كانت فتذاك تحسدها على انتظارها له وقلقها من أجله وكانت تقف هى فى شرفتها متوهمة أنها تنتظره .. متوقعة قدومه فى كل وقع خطوات تسمعها فى الطريق .

كانت مجنونة .

كانت ١٩ بل إنها مازالت .. وستبقى مجنونة به ، حتى الرمق الأخير .
وينتقل بصرها من الشرفة إلى المشجب إلى الدولاب إلى التسيريحة .. فتخيله
في كل وضع له في الحجرة .. ينشف رأسه بالمنشفة ، أو يعلق بدلكته في الدولاب ،
أو يمشط شعره أمام المرأة .
وأخيراً يستقر بصرها على صورته .. وتهتف باسمه كما تعودت ان تهتف ،
ولكن في صوت خافت خشية أن توظف النائمة .. أو خشية أن يضبطها أحد
متلبسة بجريمة الهتاف باسمه .

ألا تعتبر جريمة ١٩ !

ماذا إذاً يمكن أن يعتبر ما يجول برأسها .. وما يستعر في قلبها ؟
يارب حمدك أن طويت الصدور على خباياها وأطبقت الرعوس على أفكارها
وخفاياها .
يارب حمدك أن تركت للبشر حرية الشعور والتفكير .. تلك هي الحرية التي
لا يستطيع أن يسلبها إياها مخلوق .

عندما كان يرهقها الجهد ويضنيها السهر .. كانت تأوى إلى فراشها فترقد
عليه مستسلمة مسترخية .
كانت تحب حجرتها ، إذ كانت تحس فيها بهدوء وطمأنينة وكان يتمتعها أن
تجلس في المقعد الكبير المواجه للحجرة المقابلة حجرة مكتبه .
كانت تبصر من مكانها طرف المكتب ، وقد وضع مائلاً في إحدى زوايا
الحجرة ، وكانت تبصر زف الكتب في مواجهتها ، وزهرية على منضدة صغيرة
بها زهور ذاوية .

لم تكن تجرؤ على دخولها .. بل لم تكن تجرؤ على التحرك في البيت إلا فيما بين
حجرتها وحجرة المريضة .. حتى سأها الأب أن تناوله قرصين من الأسبرين ،
(بين الأطلال)

وأمسكت بالزجاجة الموضوعة فوق المنضدة التي في القاعة لتخرج له قرصاً فوجدتها فارغة .

وبساطة قال لها :

— أظن أنه كانت توجد زجاجة أخرى .. في درج المكتب الأوسط .. لقد تعود أن يحتفظ بها .. إذ كان كثيراً ما يصاب بالصداع .

وترددت برهة .. لقد كان قوله بمثابة أمر بأن تذهب لإحضار الزجاجة ، وكانت تهيب بدخول الحجره ، ولكنها كانت أيضاً لا تجرؤ أن تقول ذلك .. فلم تملك إلا أن تتجه إلى الحجره متحركة في تشاقل ، ودفعت الباب الذي كان مغلقاً نصف إغلاقاً واتجهت إلى المكتب وفتحت الدرج الأوسط فلمحت بعض صور له ، وأوراقاً بخطه متناثرة في الدرج ، وتمنت لو تستطيع البقاء في الحجره برهة ، ولكنها لم تجرؤ .. فتناولت الزجاجة وعادت بها إلى الرجل .

وكانت الحجره قد علتها الأتربة ، وبدت كأن لم تمتد إليها يد التنظيف منذ أن رحل صاحبها .

وسألت الخادمة ذات مرة :

— لِمَ لا تنظفون حجره المكتب ، وترفعون الزهور الذابلة من الزهرية ؟
— لقد أمرتنا سيدتى ألا نقربها .. إنها كانت دائماً تنظفها بيدها .. لأنها كانت تخشى أن نعبث بأوراقه أو كتبه أو لا نضع شيئاً في موضعه فتسبب له ضيقاً وإزعاجاً . أما الزهور .. فقد قالت إنه هو الذي نسقها آخر مرة ولا تريد أن تزيلها من موضعها .

وتعودت بعد ذلك أن تتسلل بين وقت وآخر فتجلس في حجرته ساكنة سامة .. مجرد جلوس .. دون أن تحاول أو تفتح درجاً .. أو تعبث بورقة .. كانت تتوق لأن تقرأ كل كلمة مكتوبة في هذه الحجره .. ولكنها لم تجرؤ مع ذلك على أن تمس ورقة واحدة .

ويوماً بعد يوم أخذ تهيبها من الدار يزول .. وبدأت ترتاد . الحديقة بين آونة

وأخرى ، وتنتقل في الدار كأنها دارها واطمأنت إلى كل شيء .. عدا شيئاً واحداً .. هي الخادم العجوز .. التي كانت دائمة التقطيب والعبوس .. تنظر إليها في ريبة وشك .. كأنها توجس منها خيفة .

ولكن حتى هذه .. ما لبثت حتى أقبلت عليها في ثقة واطمئنان .. بعد أن ثبت لها فرط إخلاصها لسيدتها .

وأخذ موعد الولادة يقترب .. وكلما اقترب الموعد ازدادت الأعصاب توتراً .. والنفوس قلقاً .. والقلوب رجفة ورعباً .

كانت حالة المريضة لا تنبئ بخير .. وعندما زارها الطبيب آخر مرة .. غادر غرفتها وهو يحاول جهده أن يخفي قلقه ، وعندما شرع يهبط الدرج سمعته يتمتم :
— ربنا يسلم .

ثم التفت إليها وهز رأسه في ضيق وقال لها :
— كنت أعرف هذا من قبل .. لقد توقعت كل ما حدث .. وحذرتها من الحمل .. وأوضحت لها مدى خطورته على حياتها .. وقلت لها إن حياتها في ناحية .. والحمل في ناحية أخرى .

وأحست بالمرارة تملأ نفسها ، ولم تملك إلا أن نجيه :
— ربنا يسلم .. ليس أمامنا من ملجأ غيره .

وعادت إليها بنفس مهمومة .. بعد أن ودعت الطبيب على الباب .
وجلست بجوارها على الفراش .. ونظرت إلى وجهها الشاحب وعينيها الغائرتين ، وقالت مطمئنة :

— الحالة جيدة بإذن الله ، وستكون الولادة طبيعية .
وضحكت المريضة ضحكة صفراء ، وتمتمت قائلة :

— الحالة جيدة .. حالة من ؟ .. حالتي أنا ؟ لا .. لا .. قولي شيئاً غير هذا .. إنني أدري بنفسى منك .

— إنك بخير .

— بخير أو بشر .. إني لا أرجو لنفسي شيئاً .. وأنا أحفظ جيداً ما سبق أن قاله الأطباء .. لقد حذروني من الحمل ، وقالوا إني سأقضى على حياتي لو حملت ، ومع ذلك فقد أقدمت على الحمل راضية ، وأنا أعرف كل عواقبه .
— أحقاً فعلت ذلك ؟

— أجل ! لقد أقدمت على الحمل برغمه .. بل دون أن يدري .. ولقد مات وهو لا يعرف أني حامل .. لقد حملت من أجله .. ومع ذلك فقد تركني وذهب .. ومن يدري ربما أذهب أنا .. وأترك الطفل ! عجيبة هذه الدنيا ! نحن نقدر .. وهى تقدر .. ويمحو تقديرها كل ما قدرنا .. ويجعل أمانينا فى واد .. والواقع فى واد آخر .. كنت أعلم دائماً أنه يحب الأطفال . وأنه يتعمى لو رزق ابناً أو ابنة ، ولم يكن يحز فى نفسى قدر أن أراى عاجزة عن أن أهبه مطلبه .. المطلب الطبيعى الذى تهبه كل زوجة لزوجها .. إنه لم يحاول قط أن يظهر ضيقاً أو تبرماً .. بل كان معى رقيقاً إلى أبعد حدود الرقة .. ما سأله شيئاً إلا وأجاب .. بل إنه لم يدع لى الفرصة أن أسأله شيئاً .. فقد وفر لى كل شيء .. كان حنوناً ودوداً .. مرحاً لطيفاً .. ما ذكرت أنه غضب علتى .. أو لامنى أو عنفنى .. إني لم أكن معصومة من الهنات البسيطة .. ولكنه كان دائماً كريماً متسامحاً .. ومع هذا — ورغم أنه لم يحاول الإفصاح — لم يغب عنى لحظة واحدة .. حينه إلى الأطفال ولهفته عليهم .. ولكن كان يعلم ألا سبيل إليهم إلا على حساب حياتي .. كان واثقاً — بناء على تحذير الأطباء — أنى سأكون الثمن الذى يدفعه لأول ابن .. ولذلك لم يحاول قط أن يدعنى أحمل .. بل كان أشد منى تحرزاً .. ومرت السنة تلو السنة وأنا أراى وحيدى .. وأراى مقصورة فى حقه .. هو يعطينى كل شيء ، وأنا لا أعطيه الشيء الوحيد الذى يجب أن أعطيه له .. وأخيراً بدا لى أن أقدم على المغامرة .. لقد بت أخشى عليه من الملل والسآمة .. بل بت أخشى على الرابطة بيننا أن تنفصم عراها .. وما قيمة حياتي بعد ذلك بدونى ؟ .. وساءلت نفسى : أحقاً يصدق الأطباء فى أقوالهم ؟! أهم

يعرفون كل شيء ؟ أم أن هناك رباً علمه فوق علمهم ، وتقديره فوق تقديرهم ؟
أيكثر على الله أن يهينى من لدنه رحمة ، ويهينى على من يأسى أملاً ؟! ألا يجب أن
نسلم أمرنا لله ، وهو يدبره !!

وبهذا الرجاء ، وبهذا الإيمان والأمل فى الله ، وبرغبتي القوية فى أن أنجب له
ابناً ، وبقلقى على الرابطة التى تضمنا أقدمت على الحمل .. لقد كانت مقامرة ..
اندفعت فيها قائلة : إما حياة هنيئة ، أو لا حياة .. إني لا أستحق العيش إذا لم
أنجب له ولداً .. أما إذا ذهبت .. وأنجبت له الابن ، فإن حياتى لن تذهب سدى
بل سيكون لها ثمن .

هذه هى الاحتمالات التى افترضتها .. كانت كلها تملؤنى شجاعة وإقداماً ،
ورغبة فى التضحية .

شيء واحد هو الذى لم يخطر لى ببال .

احتمال وحيد .. هو الذى أسقطته من حسابى فلم أدخله مع غيره من
الاحتمالات .

أن يذهب هو .. ويتركنا .

كان هذا هو الشيء الذى لم أقدره .. وما كنت لأقدره أبداً .. فقد كنت من
فرط حبيى له .. أراه شيئاً خالداً باقياً ، لا يجسر الموت أن يمد له يداً .
كنت أود أن أفاجئه بالأمر .. ولكنه فأجاني قبل أن أفاجئه .. فاجأنى
وذهب ..

لقد صرعتنى الصدمة .. ولكنى مخطئة .. يجب على أن أتحمل .. يجب أن
أتق فى الله .. وأن أؤمن بحكمته .. يجب أن أذكر قوله « الذين إذا أصابتهم مصيبة
قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » .

الحمد لله على كل حال .. إنه هو الذى يملك المصاب . وهو الذى يملك
العزاء .. أما نحن البشر .. فما حيلتنا سوى الخضوع لمشيئته .. وحمده على كل ما
وهبنا .

عجيبة هذه المرأة ! ما كل هذا الإيمان والسكينة والطمأنينة ؟ وهى التى لو كفرت بالله وملائكته ورسله .. ما لامها لائم ؟
فيم كان الحمل .. وفيم كانت التضحية .. إذا كان المضحي من أجله قد تركها وولى ؟!

فيم كل هذا العناء ؟ وهى ترقد الآن بحملها فى جوفها ، وبحياتها فى مهبط الريح .. وصاحب المطلب قد خذلها وفر :

ومنع ذلك فهى تحمد الله .. علام ؟!؟ ماذا يمكن أن يفعل بها شر من هذا ؟ ولم تملك إلا أن تخفى مشاعرها الثائرة فى صدرها .. إذ كانت ترى واجبها هو أن تزيد سكينه المريضة .. لا أن تزيد لوعتها .

وأمسكت بيد المريضة المستسلمة الطيبة وربت عليها برفق وقالت :
— ربنا يعوضك بولدك خيراً .. إن شاء الله تقومين سالمة ، وتتمتعين به ، إن الله لا بد أن يكافئك على تضحيتك .

كانت تقولها قول المتمنى المخلص .. فقد أحسست بحب شديد للمريضة .. كانت تجد أن مصابهما واحد .. وأنها شريكتان فى ضربة القدر القاسية .. لقد كرهتها عندما كانت تشاركها المتعة .. وأحببتها وهى تشاركها الألم .. غارت منها وهى تراحمها على الحى .. ورثت لها وهى تقاسمها الميت .

وفى الليلة التالية بدأت الولادة ، وكان الطبيب قد أعد نفسه لكل الاحتمالات .. وجهاز أدوات العملية .. كان يعرف أن المسألة لن تمر بسلام ، وكان بؤده لو وضعها من أول الأمر فى المستشفى .. ولكنه كان يعرف أن فى نقلها خطورة عليها .

بدأت الولادة .. ومن بدايتها أحسست أنها بدأت تخوض المعركة الثانية ضد الموت .

مالها هى ولكل هذا .. لو لم تأت إلى هذه الدار ، لو قت نفسها كل هذا الأسى والألم .. إنها باتت تخشى على غريمتها السابقة أكثر مما تخشى على نفسها .. ولو بقيت

حيث كانت ولم تغامر بخدمتها لكانت تجلس الآن مستريحة هائلة .. بل إن نبأ وفاتها لو حدث .. لما أحدث في نفسها أى تأثير ، بل من يدرى ؟ ربما كان قد سرّها وأطربها !

أما الآن فهي تخوض معمعة الموت وكأنها طرف فيها .

كانت تشعر أنها هي التي تقاوم الموت لا المريضة المستسلمة .

وبدأ الطلق ، وعلت بضع صرخات ضعيفة .. ما لبثت حتى خفتت ، وراحت المريضة فى إغماء ، واشتد شحوب وجهها .. لقد كانت فى حالة شديدة من الضعف .

وتشاور الطبيب برهة مع مساعده ، ولم يكن هناك بد من إجراء عملية ، وبدى بإجراء العملية ، وكانت تحس بإرهاق شديد ، وكانت تتحرك هنا وهناك لتناول الطبيب أدواته .. وهى تحس أنها مغرقة فى ظلمة كثيفة . وأخيراً أخرج الجنين .

حمداً لله .. هذه أولى بشائر الخير .. إن الجنين حى .

إنه بنت .. كان خيراً لو كان ولداً ، ولكن لا بأس بنت أو ابن .. كله خير .. المهم أن تنهض الأم سليمة .

وأخذ الطبيب يتمم العملية ، وقامت هى والمرضة الأخرى بتجفيف الطفلة ولفها .

وأخيراً انتهى الطبيب من عمله .. حمداً لله .. إن كل شئ على ما يرام .. إن المريضة شديدة الشحوب ، ولكن صدرها .. يعلو ويهبط بانتظام .

وخرج الطبيب ، ووقف الأب يتساءل فى لهفة :

— كيف الحال يا دكتور ؟

— الحمد لله .. بخير إن شاء الله .. ربنا يم فضله ويسترها .

— سليمة بإذن الله .. سليمة .

وجلس الطبيب يستريح برهة فى القاعة .. وبقيت فى غرفة المريضة .. كان

كل شيء يشتر بخير ، وكانت الساعة قد بلغت السادسة صباحاً ، وبدأ الطبيب يستعد للانصراف قائلاً .

— سأعود بعد بضع ساعات ، وإذا حدث أى شيء فاتصلوا بى فى العيادة أو البيت . ولكن إن شاء الله لن يحدث شيء .

وقبل أن يرحل ، دخل الحجرة ليلقى نظرة أخيرة على المريضة .. نظر فى وجهها ، ثم أمسك بيدها يحس نبضها ، وبدأ على وجهه القلق وهمس قائلاً :
— النبض ضعيف جداً .

وألقى على المريضة نظرة فاحصة ثم عاد يهمس فى قلق :
— الظاهر أنه قد حدث نزيف .. أحضرى أسطوانة الأكسجين
وبدا التنفس الصناعى .

كانت المريضة تفلت من أيديهم رويداً .. رويداً . كان الموت يذهب بها بعيداً بعيداً .

ولم يطل بهم الأمر ، حتى أعلنوا الاستسلام .

مرة أخرى .. انتصر الموت .

أبعد هذا سخرية ؟!

أبعد هذا يطلب من العبد حمد الله والإيمان به ؟

بل .. أبعد هذا يوجد شيء اسمه الله ؟ أيوجد رب مدبر منظم حكيم ؟

لا .. لا .. كل هذا عبث فى عبث ، إن ما حدث لا يمكن أن يكون من تدبير مدبر ، ولو كان من تدبير مدبر فلا مراء فى أن هذا المدبر ، يغى السخرية والهزل ، هذا لا يمكن أن يكون تدبير جاد حكيم .

هذا هو الطفل .. المطلب العزيز ، والأمنية المستعصية قد باتت ملء اليد ، وما عاد مستعصياً ولا متعزراً .

فأين الطالب ؟ وأين المثمنى ؟

أين صاحب الأمنية .. يحملها بين يديه ، ويحمد عليها ربه ؟

أهذه أمنية ؟

أمنية تعسة يائسة ، يتيمة الأم والأب .. لا عائل لها ، سوى جد ، رجله — كما يقولون — والقبر .

أمنية لم تكن قادمة ، بل كان المفروض ألا تأتي ، لو لا مقامرة أمها ورغبتها في التضحية ، وإرضاء زوجها .

كانت ككل أمنية مطلوبة .. لا تأتي ، فلما كف طالها عن طلبها ، أتت ! سحقاً لها .. ما كان أغناها عن هذا كله ، لقد زجت بنفسها في معركة خاسرة ، لم يكن نصيبها منها سوى التعاسة والحزن والدموع .

والآن خير لها أن تنسحب بهدوء ، وتعود إلى مقرها في المستشفى .
إنهم لم يعودوا في حاجة إليها ، وما كان بها من حاجة إلى شهود جنازة أخرى .. إنها منهارة تماماً ، وهي لا تكاد تقف على قدميها .

ووسط بكاء الخدم والعويل والصراخ .. تسلفت إلى حجرتها وارتعت في الفراش دافئة وجهها في الوسادة كأنها جثة هامدة .

ومضت عليها فترة طويلة في رقبتها ، والصراخ يطن في أذنيها .. ثم أخذت تتحامل على نفسها وتناولت حقيبتها وسارت تجر ساقها متسللة إلى الخارج .. كالهاربة .

ولم تكد تهبط بضع درجات حتى سمعت صوتاً يهتف باسمها .
وتوقفت .. لقد كان صوت الأب .. كان الله في عونهِ وصبرهِ على ما بلّاه ..
لشد ما قاسى الرجل ، ولكن ماذا يريد منها ؟ لعله ينو أن ينقدها أجراها .. ليس هذا وقته .. ليس الآن .. إنها تريد أن تفر ، وأن تنأى بنفسها عن هذا المحيط المروع .

وتلفتت بإعياء .. فوجدت الرجل مقبلاً عليها ، محطماً مهتماً ، مقروح الجفن ، متاقل الساقين .. وسألها في صوت يائس :

— إلى أين ؟

— عائدة إلى المستشفى .. لم يعد هناك من حاجة إلى .

— عائدة إلى المستشفى ؟ وتركينا وحدنا ؟!

تركهم وحدهم ، وما صفتها هي .. حتى لا تتركهم وحدهم ؟. إنها ممرضة مأجورة .. ليس لها من وضع بينهم سوى هذا .. إنها حقاً تشعر أن البيت بيتها ، ولكن هذا شعور في قرارة نفسها .. لا يشاركها فيه أحد ، ولا يقره أحد ، ولا يعترف به أحد .

ولم تعرف بماذا تخيب ، ولكنها نطقت بضعة كلمات لجرد الرد قائلة :

— أنا أسفة جداً ، وحزينة لما حدث .. البركة فيك .

وعاد الرجل يتساءل في يأس :

— كيف تذهبين وتركينا ؟

— لم يعد لي ما أعمله .

— والطفلة ؟

« الطفلة » ؟ كأنها هي التي وضعتها !! إنها تمنى لو كرس حياتها من أجلها .. إذ تشعر أنها طفلتها هي . أليست ابنته ؟ ألم تكن تمنى أن تكون أم أولاده ؟!

ولكن هذا مجرد تمنى .. إنها ليست أمها فعلاً ، لا صفة رسمية لها ، ولا تستطيع أن تدعى عليها حقاً .

وعاد العجوز يتوسل :

— والطفلة من يتولى أمرها ؟ أرجوك ، امكثي معنا ، على « الأقل » ، حتى

نتدبر أمرنا ... إلى خاتر القوى .. لقد نفذ جهدي ، وتحطمت قواي .. إني لم أعد أصلح لشيء .. أريد من يتولى أمري أنا .. لم يعد هناك فائدة ترجى مني ، وليس لي من أحد أعتمد عليه .. لا أقارب ولا أصدقاء .. بعد أن ذهب كلاهما وخلفائي وحدي .

وهي أيضاً ، خاترة القوى ، نافذة الجهد .

ولكن أهى مثله لم تعد تصلح لشيء ؟! ألم يعد يرتجى منها فائدة ؟
ونظرت إلى الشيخ المتداعي المنهار ، وأحست بالندم يحزها .. كيف سؤلت
لها نفسها العاجزة أن تفر هاربة ؟!

كيف سؤلت لها نفسها ، أن تترك أباه وابنته ؟
وتساقط الدمع من عينيها وأحست بحنين شديد إلى الشيخ والطفلة ، إنهما
أقرب الناس إليه ، وبالتالي أقرب الناس إليها ؟ كيف تخذهما في محنتهما ؟
أما زالت تتعلق بالأوضاع الرسمية والشكليات ؟! إن ثلاثتهم كل ما بقى منه !
لقد عجزت على أن تكون زوجته .. أيستطيع أحد أن يمنعها أن تكون
أرملته ، وأن ترعى أباه وابنته ؟

لا . لا . هنا موضعها ، في بيته وبين ابنته وأبيه ، إنها لم تكن زوجته شرعاً ،
ولكن كانت زوجته روحاً ، وحساً ، ولو أنهم في السماء يقدرון الأمور بحقيقتها
لا بشكلها ، لأعتبروها لا محالة زوجته .
على أية حال . إنها باقية في الدار .. باقية حتى يدبر الله أمرهم ، أو حتى لو لم
يدبره .

لا بد لها أن تحتمل ، وأن تقاوم إعياءها وانهارها ، وأن تتمالك وتتأسك
وتتجلد ، وتضحى سيدة الموقف وربة البيت .
وهكذا استمدت من ضعفها شجاعة وكفكت دمعها ، وأجابت الشيخ
الذى ينتظر متوسلاً :

— سأبقى ، سأبقى حتى تقول لى .. اذهبي .. لم نعد في حاجة إليك .
— لن تذهبي أبداً ، أنت ابنتى والطفلة ابنتك ، ويجب أن تتولى أمرنا .

وكما يمر كل شيء مرّت إجراءات الموت من جنازة ودفن وعزاء .
وكما تهدأ كل عاصفة ، هدأت هذه العاصفة ، وساد الدار سكون عميق أشبه
بسكون ما بعد العاصفة

كانت الحوادث تمر بها تبعاً . وكانت تجد نفسها تعمل بطريقة آلية ، لا دخل للذهن فيها ، كانت تكلم هذا وتحدث ذاك .. كانت تأمر وتحيب ، بلا إدراك ولا وعي .. أو بوعي باطنى لا سيطرة لها عليه ، حتى انتهى كل شيء ، واستقرت مرة أخرى ، تفكر فى أمرها ، وتستعيد لذهنها كل ما مر بها .
أين هى الآن ؟!

عجباً !! عجباً !! أبعد هذا يمكن أن يكون عجب ؟!
إنها تقطن فى داره ، وحدها ، لا شريكة لها فيها .. إنها ربة بيته ، أم ابنته ، ورعاية أبيه .
كل ما له أضحي لها .. من ابنته إلى أبيه .. إلى كتبه إلى فراشه .. إلى .. إلى .. إلى كل شيء .
إنها تملك كل شيء له ، إلا هو .

وما قيمة كل هذا دونه ؟!
ما أشبهها بقاطنة الأطلال الخربة ، والدمن العافية !
إنها تجلس الآن فى داره .. إن كل شيء يبدو كما تركه ، لم يصبه الخراب ولم تمتد إليه يد الليل ، وبالمكان أحياء يتحركون ، وأصوات تسمع ، ومع ذلك ، فهى لا تحس أثراً لتلك الحياة فى نفسها .. إن المكان قد فقد روحه ، وبغير الروح ، لا يبقى سوى الأطلال ، ولو بقى هو فى قفرة جرداء لملأها حياة ، ولكانت لها خيراً من كل هذه الدمن المحيطة بها .
إنها فقدت الروح ، وبقيت لها الأطلال .. أما هى .. الزوجة الراحلة .. فقد لحقت بروحه ، وتركت لها الرماد الخامد والأنقاض الخاوية .
ويجها !. إنها دائماً الراحمة ، فى الحياة ، وفى الممات . أما كان خيراً .. لو أنها هى التى ماتت ؟!

ولكنها لا تملك أن تموت .. إن عليها أن تبقى لتعاود سيرتها فى حمل الأعباء .. أعباء أحزانها ، وحرمانها ، ويأسها . عليها أن تبقى لتقوم بواجبها فى رعاية أبيه وابنته .

ولكن أهذا شيء يستدعى منها الحزن ؟
أليست الأطلال خيراً من القفرة الجرداء ؟ ألا يبقيا الطلل من هجير الوحدة
وقر الفراغ ؟ أليس شيء خيراً من لا شيء ؟ ألا تشعر بعزاء جميل ، وهي تجد
نفسها قد استقرت في داره ، ولتجد نفسها تلقى الأعباء التي كان يمكن أن
يتلقاها لو بقي هو حياً ؟

أى شيء يمكن أن تطمع فيه أكثر من أن تتولى أمر ابنته ، وتجعلها ابنتها ؟
أهناك عزاء لنفسها أجمل من هذا ؟
وأى شيء يسعدها أكثر من أن تقدم يد المعونة إلى أبيه وأحب الناس إليه ؟ ألا
يسعدها أن تخفف لوعته ، وتذهب شجنه ؟

ومرت بها الأيام .. يوماً بعد يوم ، وفي كل يوم تزداد طمأنينة واستقراراً ..
حتى أضحت تحس كأنها تحيا في بيتها الذي ولدت فيه وقضت بين جدرانها
عمرها .

وبدأت تحس بنوع عجيب من المتعة الهادئة .. وهي تضم الطفلة إلى صدرها
وتلقمها زجاجة اللبن .. وتجلس في الشرفة بجوار الجد المتكى في سكرينة على
إحدى الأرائك ، والشمس القانية الحمراء تهوى في الأفق .. وكأنها تبصر في
قرصها وجهه يتسم في رضاء وحبور .. ويكاد يهمس بها : « هذه ابنتنا ! »
أجل ! إنها ابنتهما .. إن حقها فيها أكثر من حق أمها ، لقد حملتها أمها تسعة
أشهر .. وهي ستحملها وحدها العمر كله .

ولقد رقدت بضعة الأيام الأولى على الفراش الصغير في الحجرة الصغيرة .. إذ
كانت تحس برهبة شديدة من استعمال الحجرة الكبيرة .. ومن الرقاد على الفراش
الذي كانا يرقدان فيه .

ولكن الأيام تحت الرهبة .. ولم تجد هناك ما يمنعها من استعمالها بعد أن ألح
عليها الأب بقوله :

— إذا كنت مصرّة على ترك الحجرة خالية .. فخير لنا أن نغلق البيت
وننصرف عنه .

وهكذا احتلت الغرفة ووقدت على نفس الفراش . وفي أحضانه .. ليس هو
بالذات ، ولكن جزء منه .. ابنته .

وفتحت حجرة المكتب وأزالت الغبار عنها وأعدت ترتيبها وتنظيفها ،
وأعدت ملء الزهرية بالزهور ، وحاولت جهداً أن تبعث الحياة بين الأطلال ،
أو على الأقل ، تضيئ على الأطلال بعض الرونق والبهاء .

وسارت الحياة بالثلاث .. هي والابنة والأب ، وثيدة مترفقة هادئة ، ليس
بها ما ينغص ولا ما يسيء .. وكان دخل الأب من ممتلكاته وعقاراته كفيلاً بأن
يسبى لهم كل مطلب ويجعلهم في رغد من العيش .

وكفت الأم عن الحديث وran على المكان سكون عميق .
وأحست « سامية » بأطرفها تتراخي ... وأعصابها تفتت .. لقد أنهكها
طول الاستماع .. ولم تشعر إلا وهي تعلق بقولها :

— خاتمة عجيبة ! لقصة عجيبة ! أهذه الأشياء تحدث في حياتنا هذه ؟ إن
تلك المرأة وذلك الحب لا يمكن أن يوجد على ظهر الأرض .. إنها لا شك مجرد
قصة .

ولم تنبس الأم بينت شفة .. ومدت يدها في الظلمة فتحسست رأس ابنتها
وضمتها إلى صدرها برفق .

وكانت القصة قد استرعت كل اهتمام الفتاة واستحوذت على كل تفكيرها ..
حتى كادت تنسيتها مسألتها الأصلية .

ولكن لم تكد تمضي برهة مستندة إلى صدر أمها حتى عاد السؤال يلح عليها ،
وصاحت بأمرها فجأة :

— ولكنك يا أماه .. لم تحبيني بعد ، على ما سألتك عنه .. لم تنبئيني بعد

بحقيقة ما أقض مضجعى

وصمتت الأم ، ولم تجب فى أول الأمر ، ورفعت الفتاة رأسها إليها متوسلة بقولها :

— أرى يحينى يا أماه .. فولى أى شىء ..! إلى لن أقتل نفسى .. أهو ابنك حقاً ؟
وأخيراً جداً .. وبساطة عجيبة أجابت الأم :

— نعم !

وندت عن الفتاة صرخة دهش وعادت تردد فى ذهول :

— نعم !

وأحست بأنها تنهار تماماً ، ولم تستطع المقاومة فاندفعت تنشج فى بكاء عنيف دافئة رأسها فى صدر أمها .

وهتفت بها الأم :

— كفى عن البكاء .. فليس هناك ما يدعو إليه .. إنه ابنى .. وليس ابنى ..
وأنتى ابنتى ولست ابنتى .. إن هذه المرأة التى تقولين عنها لا يمكن أن توجد على
ظهر الأرض هى أنا .. أنا تلك المخلوقة العجيبة الشاذة .. التى أفنت عمرها بين
الأطلال ، والتى ترملت دون أن تتزوج ، والتى أنجبت ابنة دون أن تحمل أو
تلد .. لقد واصلنا الحياة سوياً .. أنا وأنت وجدك .. حتى حانت منية جدك بعد
عام أو بعض عام ، وبقينا فى الحياة وحيدتين أنا وأنت .

بقينا وحدنا فى الدار الطويلة العريضة ، وبقي لنا من الدخل ما أعاننا على
الحياة ، وما أعاننى على تربيتك تربية مثلى .. ولقد تركنا الدار ، فما كان بنا من
حاجة إلى تلك الحجرات الفسيحة .. ومكثنا فى هذه الفيلا الصغيرة ..
وانقطعت كل صلة لى عن بقية الناس .. لا أزور ولا أزار ، حتى صاحبتى لم أعد
أراها بعد أن تزوجت .. وانشغلت ببيتها وأولادها .

كنت أنت هدفى فى الحياة وكانت سعادتك هى بغيتى ومطلبى .. وكنت
أنت عوضى عن كل شىء .. عوضى عن الأهل القساة ، والحياة المضطربة

المنهكة ١ عوضى عن أيلك الحبيب الراحل ، وجدك الطيب الحنون .. عوضى عن أمك الطيبة التى عاشت غريمتى ، وماتت وهى أعز الناس لىدى .
لقد كرسى حياتى من أجلك .. ولأول مرة شعرت أن القدر كافأنى وأن جهدى لم يذهب سدى .

إنى لم أر ابنى الحقيقى منذ تركته ، فلقد تعاونت ظروف أبيه وقسوته على حرمانى منه .. كان دائماً مع أبيه خارج القطر ، أو يبدو لى أن أباه قد قصد ذلك ، وأنه لم يرغب فى البقاء فى مصر بعد أن هجرته ، أو بعد أن طردنى ، واستمر ممعناً فى السفر

ولست أظننى أشعر بشوق كبير لى رؤيته .. ولا بحنين لى لقائه .
الدم يحن .. هراء .. ذلك الذى يقولون عن الدم الذى يحن .. إنها مسألة عشرة لا أكثر ولا أقل .. إبنى لم ألدك .. ومع ذلك لا أطيق عن فرقتك صبراً .. وإبنى ولدته ، ومع ذلك فإبنى واثقة أننا لو التقينا ولم أعرف أنه ابنى ولم يعرف أنى أمه .. لمرأحدنا بالآخر مر الكرام .

إنى إذا أحببته الآن .. فسأحبه كزوج ابنتى .
وأحسست « سامية » بسعادة عجبية ، وهى تسمع أمها تدعوه بزوج ابنتى .
إن المسألة إذاً تعتبر منتهية .
ولكنها ما لبثت حتى تجهم وجهها .. وداخلها خاطر أوجست منه خيفة ، وملأها بالوساوس والشكوك .

ماذا يقول أبوه إذا علم بأمرها ؟ . أما زال يكرهها ؟ لقد رفض فيما مضى عودتها ، وحرّم عليها رؤية ابنها .. أيقبل بعد هذا أن يزوجه ابنتها ؟
واتخذ السؤال طريقه لى شفتها متردداً حائراً .. وأخيراً لفظت به متسائلة :
— ولكن يا أمها . أترين أباه سيقبل أن يزوجه لى ؟

وقالت الأم فى حدة :
— يقبل ؟ طبعاً يقبل .. أهنالك خير منك على ظهر الأرض .. إن أباك خير

منه .. وأنت مثل للزوجة .

— ولكن أترينه قد نسى ؟

— وما شأنه في .. إذا لم يكن قد نسى فإنك تستطيعين التبرؤ مني ، ومن أمومتي .

— لا تقولي مثل هذا القول يا أماء .. إنك لَدَيَّ خير من الدنيا بأسرها .

— على أية حال لا تتعبى رأسك كثيراً .. دعي الأمر للغد .. فقد يدبره الله

بحكمته .

الخاتمة

١٦

استيقظت « سامية » في الصباح ، أو على الأصح غادرت فراشها ، فما نظرت
أن النوم قد قارب جفنيها من فرط ما كان في نفسها من انفعالات صارخة
صاحبة .

كانت أفكارها مختلطة مشوشة .. لا تكاد تستبين منها شيئاً محدداً واضحاً ..
فقد هزتها الصدمة التي تلقتها في ليلتها الماضية هزة عنيفة .. كانت أشبه بزلزال
يقلب أسفل الأرض عاليها ، وعاليها أسفلها .

ما كل هذه الخفايا التي كان يخفيها سطح حياتها الهادئ الراكد ؟. أحقاً قد
احتوى الماضي المطوى كل هذه العجائب ؟!

أبائها ، ومذكراته .. أمها الأولى ، وأمها الثانية ، أو الراحلة والباقية .. الميتة
والحية .. الصحيحة والزائفة .

زائفة ؟! حاشا لله ، إنها ما أحسست بحبها لها أقوى منه الآن .. لقد صدقت في
قولها ، إن صلات القرني لا تقوم على صلات الدم ، بل على العشرة الطويلة
والحب الصادق العميق .

لقد كانت أمها خلال تلك الفترة الماضية من حياتها ، وستبقى أمها إلى الأبد .
وابنها ؟!

عجيباً ! أن يكون ابنها !

ولكن لا .. ليس عجيباً ! إنها أحبته — دون بقية خلق الله — حباً جنونياً . ألا
يحتمل أن يكون ذلك مرجعه لأنه ابن أعز مخلوقة لديها ؟

إنهما يستطيعان الآن الزواج !

حمداً لله .

ماذا كان يمكن أن يحدث لو كان هو فعلاً أنحاه؟ لا . لا . إن هذا أمر لم يكن يمكن حدوثه ، لأنها تحبه حباً عنيفاً ، والقلوب تستطيع أن تميز الشخص الذى يجب أن تحبه والمحرم عليها حبه .

إن العقدة قد حلت .. لقد عقدها القدر ثم أسرع بحلها ، عقدها بطريقة روائية مفاجئة ، وحلها بنفس الطريقة .

كل شيء على ما يرام .. إنه يستطيع أن يتقدم الآن لخطبتها رسمياً .. وفى بضعة أيام ينتهى الأمر .

ولكن .. هناك أبوه ، و « الحاجة » !

إن « الحاجة » لا بد قد أنبأت أباه بالأمر ، وإذا كان قد سبق أن رفض عودة أمها إلى بيته ، وحرّم عليها رؤية ابنها .. أيعقل بعد ذلك أن يرضى بهذا النسب ؟! أيمن أن يقبل هذا الوضع العجيب والصلة الجديدة ؟ أيرضى بأمها .. حماة لابنه ؟ أيرضى بأن تعود المياه إلى مجاريها بعد هذه القطيعة الطويلة ؟
لِمَ لا ؟!

ولم نعم ؟! إنه عنيد .

ولكن ابنه سيصر .. سيتزوجها رغم كل شيء سيضحى بأبيه من أجلها ، وستضحى هى بالعالم كله من أجله .

وأمها !! أمها ! لا ! لا ! إن أمها أولاً .

وهكذا استمرت الأفكار تصطبّخ فى رأسها حتى تركته يكاد ينفجر . وجلست وأمها إلى الأفطار ، ولم تتناول كل منهما إلا لقمات معدودات ، ورشفة من فنجان الشاي .

ولم تجرؤ « سامية » على أن تبدأ الحديث ، رغم أنها كانت تتلهف على تنويع أمها عمله .

وأخيراً تحدثت الأم محاولة أن تضيف على قولها شيئاً من المرح وأن تزيل عن نفسها ذلك العبء الجاثم من ليلة أمس ، قالت :

— أظن من الخير أن أقوم بزيارة لهم لتسوية الأمور مع أبيه .. لا بد من الذهاب حتى أقنعه بأن يسدل ستاراً كثيفاً على ما مضى ، وألا يجعل من ماضينا معاً عقبة في سبيل مستقبلكما ، سأرجو منه أن يعتبرني غير كاثنة ، وألا يعتبر أن هناك أية صلة بيننا ، وأنا بعد كل شيء .. لست أملك الحقيقة ، فمن الجنون أن يأخذك بحريتي نحوه .

— ما هذا الذي تقولين يا أماء ؟ لقد قلت لك ، إنى أفضلك على كل شيء ..
— إنى أستطيع أن أجد زوجاً آخر ، ولكنى لا أستطيع أن أجد أمّاً أخرى !
— يا حبيبتي .. هذه حياتك ، وهذا مستقبلك ، وأنا لم أبلغ من الأنانية إلى الحد الذى يجعلنى أحرملك نصيبك من السعادة والهناء .. لقد كان كل هدفى فى الحياة هو أن أبقى بجوارك لأسعدك ، والآن يجب أن أنتحى عنك لنفس السبب .
— إن غرضى أولاً هو سعادتك أنت .

— على أية حال . ليس هناك ما يمنع من زيارتي له .. فربما يكون الزمن قد أزال ما علق به منى .. وقد تكون السنون أنسته الذكريات المريرة .
— لا .. لا .. لن تذهبنى .. إنهم هم الذين يجب أن يأتوا أنا لم أرخص بهذا القدر حتى تذهب أُمى لكى تخطب لى .. إنك ستبقيين هنا مكرمة .. وإذا كان هو يريدنى حقاً .. فليأت إليك .

— أوكد لك أنى لن أشعر مطلقاً بأية غضاضة فى الذهاب إليه .
— ولكنى أنا أشعر .. إنك أُمى ، ولا أحتمل قط أن تقفى من أى أحد موقف الرجاء والسؤال .. حتى ولو كان من أجل مستقبل .. لقد عودتنى دائماً أن أحصل بنفسى على أريد .. فدعى الأمر لى .

— هذا أمر أخطر من أن أدعه لك .. إنه واجبى نحوك .

— على أية حال دعينا ننتظر اليوم .. فقد يدبرها الله كما قلت بالأمس .
وسمعت كلناهما صوت عربة تقف بالباب .. وأحست « سامية » برخفة شديدة .. أيمكن أن يكون قد أتى هو لإنهاء الأمر .. بعد أن سواه مع أبيه ؟ ليت

يكون قد فعل .. ليته يأتي .. حتى يجنب أمها مرارة الرجاء وذل الاستغفار .
ونفضت إلى الباب لترى القادم ، فأبصرت سيدة كبيرة في مثل سن أمها تنزل
من العربة وتجتاز الممر المؤدى إلى الدرج ، ثم ترفع بصرها إليها متسائلة في رفق
وبشاشة :

— أظنك سامية ؟

— أجل يافندم .. أنا سامية .. تفضلى .

— ماما موجودة ؟

— أجل ! موجودة .. تفضلى .

وصعدت السيدة الدرج . وقادتها « سامية » إلى حجرة الصالون ، وعادت
إلى القاعة فسألتها أمها :

— من ؟

— سيدة تسأل عنك .

وبعد لحظات قصار كانت الأم تقف بباب حجرة الصالون وتمتف في دهشة
شديدة ، وفرحة بالغة :

— أنت ؟ بعد هذه الغيبة الطويلة ، أراك أخيراً .. أهلاً وسهلاً .. حمداً لله
على السلامة .. كيف حالك ؟ وما أخبارك ؟ وكيف حال أولادك وزوجك ؟

— بخير كلهم .

— أى ربح طيبة قذفت بك إلى .. بعد طول غياب ؟

وأجابت الضيفة ضاحكة :

— إنها ربح طيبة حقاً .. إني قد أتيت إليك .. طالبة القرب .. أتصدقين

هذا ؟

وبلغ هذا القول الضاحك مسامع « سامية » ، وهى تقف فى القاعة تعد
أكواب المربطات لتقدمها إلى الضيفة .. وتملكتها الدهشة وأرهفت أذنيها
فسمعت أمها تتساءل :

— طالبة القرب ؟ حقيقة ؟

— أجل حقيقة ! بعد هذا الفراق الطويل يشاء الله أن يجمعنا مرة ثانية ، وفي

هذه المرة برباط نسب متنين .

وكانت الأم في حالة دهشة وعجب لم تمكنها من أن تقول شيئاً .

واستمرت الضيفة في حديثها قائلة :

— لقد دهشت أكثر منك .. فقد كان يحدثني عنها ، وأنا خالية الذهن تماماً ،

عن أنها « سامية » التي أعرفها .. ولقد أصرَّ على أن أتى لخطبتها .. ولكن لم أشأ أن أتقدم إلا بعد البحث والاستقصاء .. ولشد ما أدهشني أن أعرف أن المسألة في

بينها .. وأنى لن أخطب غريبة .. بل حبيبة ، وابنة حبيبة .. إنها لا تعرفني .. وأنا أيضاً لم أكن أعرفها إلا بالتخمين .. إني لم أرها منذ أن كانت طفلة ، لقد أصبحت فتاة بافعة مكتملة .. إنه معذور في لففته عليها .

من هو ؟

كانت « سامية » تنصت مشدوهة مذهولة .

أيمكن أن يكون حبيبها « كمال » ؟

ولكن من هي ؟ وما صلتها به ؟

أمعقول أن تكون هذه هي « الحاجة » ؟

لا .. لا .. إن هذه سيدة أرستقراطية .. و « الحاجة » مجرد « دادة » لا تريد

عن خادمة .

إذاً من تكون هذه ؟ وما تلك الأحاجي والألغاز ؟

وكانت الأم صامتة مطرقة الرأس ، والضيفة مستمرة في حديثها :

— لقد قال لي إنه مذرآها في أول مرة في المعهد .. أحس أن هذه هي زوجته .

المعهد !! عجباً !! لا بد أن يكون « كمال » ، ولعل السيدة حالته أو إحدى

قربياته .

أجل ! أجل ! لقد وضح الشك .

واستمرت السيدة تقول :

— لقد كان « أنور » دائم الإعراض عن الزواج !! كان يفضل دائماً أن يكون حراً طليقاً .

أنور !! أنور !! أنور من ؟

زميلها في المعهد .. المحامي المهذب الرقيق .. الذى ظل يوصلها بعربته كل يوم إلى البيت ، والذى سألتها مرة أن يقبل يدها .. عجباً له ! أكان جاداً فى شعوره نحوها إلى هذا الحد ؟

لشد ما يسوءها أن تخذله ، ولكنها لا تستطيع إلا أن تفعل ... إن هناك من احتل قلبها وذنها ونفسها .. إنها لا ترضى به بديلاً ، ولا تقبل عنه عوضاً يا للفتى الطيب اللطيف .. لشد ما يحزنها أن ترده فاشلاً .

ولكن من تكون أمه ؟ وما سر صلتها الوثيقة بأمرها ؟

وعاد صوت السيارة يقرع أذنها مرة أخرى :

— من كان يخطر له ببال .. أنى سأتى إليك فى يوم ما خاطبة ؟

« ومن كان يخطر له ببال ، أنى سأردك خائبة ؟ » .

بهذا حدثت الأم نفسها ، والأسى ملء جوانحها . ولا حظت السيدة ما يبدو

على الأم من حزن ووجوم .. فسألتها فى عجب :

— ما باللك مطرقة ؟ أهناك شىء يزعجك ؟

وصمنت الأم فترة قبل أن تجيب فى صوت ملؤه الأسى :

— الواقع أن لا أدرى كيف أجيبك .. يبدو لى أن القدر يأبى إلا أن يعيد

مفاجآت وسخرياته بعد طول هدوء وسكينة .. ما كنت أظن أن هناك شيئاً

يسعدنى قدر أن أرتبط معك بصلة نسب وأقدر أن ألبى لك طلباً .. أى طلب ..

مهما كان عسيراً . ولكنى الآن بعد هذا العمر الطويل .. أجد نفسى عاجزة عن

تلبية أبسط طلباتك . الطلب الذى اعتبره جميلاً منك وفضلاً لك على .

وصمنت الأم برهة ثم أردفت قائلة فى أسف شديد :

— إن ابنتى قد خطبت .

ووجهت السيدة ، وفجرت من العجب فاهها ، وتمتمت قائلة :

— خطبت ؟ مبروك .. كان يجب أن أعرف ذلك . منذ متى خطبت ؟

— منذ أيام قلائل .. ليست خطوبة تامة .. إنها شبه خطوبة ، أو أمل في خطوبة .

— لست أدري ما تعنين ؟

— قبل أن أشرح لك .. أظن أن من الخير أن أنبئك من يكون الخطيب ؟ ومن تظنينه ؟

— من يكون ؟

— كمال ؟

— كمال من ؟

— كمال .. ابن عبد الرحمن بك .. أو ابنى أنا ، الذى أنبأك أبوه عندما ذهبت لتسأليه الصفح والمغفرة أنه سيحرم على رؤيته ، وقد فعل ، فلم أره حتى الآن .. ولكنه رأى « سامية » وخطبها . أرأيت أشد من هذا سخرية من القدر !؟

وهتفت الضيفة تقول مشدوهة :

— ماذا تقولين ؟ .. خطب « سامية » ؟ وأين التقى بها ؟ وكيف رآها ؟

— رآها فى المعهد .. كما رآها « أنور » .. لقد اشتغل معيداً فى الجامعة عقب

عودته من كمبردج .. وكان يقوم بتدريس الإنجليزية لها .

— مدعش ! ما سمعت أعجب من هذا قط .. هذا شيء لا يمكن تصديقه .

— هذا هو ما حدث .. لقد سألتها الزواج منذ أيام .

— وماذا قال أبوه ؟

— لا أحد يعرف بعد .. من يدري ماذا يمكن أن يقول !

— أتظنينه سيقبل ؟

— الله أعلم .

وعاد ذهن الضيفة القهقري إلى أعوام خلت ، وتذكرت ذهابها إلى الرجل في بيته وترجوه إعادة زوجته والعفو عنها ، وكيف صدها ونهرها وازدراها واحتقرها .. ونظرت إلى الأم المطرقة الجالسة أمامها في وجوم ، وأحست لها برئاء شديد عندما سمعتها تهمس قائلة :

— هذه المرة .. لا يعنينى الأمر وحدى .. بل يعنى مخلوقة أعز على من نفسى .. لقد ضربت به عرض الحائط لأن الأمر كان أمري .. أما هذه المرة .. فإنه أمرها هى .. أمر سعادتها ومستقبلها وهنائها .. ولست أطيق أن أراها تشقى .. لا بد أن أطايطى الرأس .. وأرجو وأتوسل .. ولا أظنه سيظل حاقداً على بعد هذا العمر الطويل .. ولا أعتقد أنه سيأخذها بجريرتى .

وساد الصمت مرة أخرى .. وعادت السيدة ترقبها فى عطف شديد . مسكينة !.. إن القدر يأبى أن يتركها نهذاً وتستريح .. كيف تذهب لتتذلل إليه بعد هذا العمر الطويل !! إنه رجل حقود ممزور ، ولن يتورع عن صدها وخذلانها وإذلالها .

ولم تملك إلا أن تلقى إليها بوضع كلمات على سبيل المواساة والتشجيع قائلة :

— لا تحزنى ولا تيئسى .. دعى الأمور لله يدبرها .

— الله يدبر أمورى أنا ؟ .. أمورى أنا ؟ .. يبدو لى أنه قد تخلى عنى تماماً !

— لا .. لا .. لا تيئسى من رحمة الله أبداً .. إنى آسفة من أجلك .

— أنا الأشد أسفاً .. ماذا ستقولين لأنور ؟

— لا شىء .. سأقول له إنها ليست لك ، فدعك منها ولكن أين سامية ؟ لِم لم

تحضر لأراها !

ونادتها أمها .. فأقبلت وهى تحاول أن تخفى عنها ذلك الوجوم الذى تملكها .

إذا فهذه هى الصديقة القديمة لأمها .. التى كانت لها خير العون ونعم

النصير ، والتى لم تحذها عندما خذها سائر الأهل والأقرباء .

يا للسخرية !! لقد خذلناها في أول مطلب لها !
ورحبت السيدة بها ، وجرى الحديث في أمور عادية ، فسألتها عن الدراسة
والجامعة ، ولم تشر إحداها إلى ما جرى قبل ذلك من حديث .
وأخيراً نهضت منصرفة وودعتهما قائلة :
— أرجو أن أراكما قريباً ، هذه فرصة سعيدة لإعادة الصلة بيننا مرة أخرى .
وجلست الأم وابنتها وحدهما وقدران عليهما صمت ، وبدا عليهما الشرود .
وأخيراً قالت الأم :
— أتعرفين من هذه ؟

— أجل أعرف كل شيء ، وسمعت كل شيء !
وصمت الأم برهة ثم عادت تقول :
— لقد ساءنى منها فيما مضى أن ذهبت إليه ترجوه الغفران .. أما الآن فكم
أتمنى لو تعاود الكرة ، إن الأيام تجبرنا دائماً على أن نتلهف على ما كنا نسخر
منه .. إنها خير من تقوم بمهمة الوساطة ، ولكن كيف أسألهذا ذلك ، وهى قد .
كيف أسألهذا أن تذهب لتخطب لك ؟

وبعد الغداء نهضت الفتاة إلى حجرتها ، وجلست وحدها شاردة الذهن .
ترى ماذا حدث لكمال ؟ هل أنبأت الحاجة أباه بحقيقة الأمر ؟ وهل ثار
أبوه ؟ ولكن « الحاجة » نفسها لا تعرف الأمر على وضعه الصحيح .. إنها تظن
أو كمال إخوة ، وهى ستنبئ أباه بالخبر ، وسيؤكده له أبوه بالطبع ويقص عليه
قصة أمه بخذافيرها .

أترى سيحاول « كمال » بعد ذاك لقاءها ؟ أتراه سيحجى في الموعد بعد أن
أقنعوه بأنها أخته ؟

أمه، ولكن لا. لا نظنه يفعل ذلك، فلا شك أن أباه والحاجة، سوف يسممان
أفكاره ويقنعانه بمقاطعتها كما أقنعه من قبل أنها ميتة.
وعلى ذلك فلن يأتي إليها .

إذاً فلا بد أن تحاول هى لقاءه وإحاطته بجمالية الأمر .
ولكن .. ماذا سيكون رأيه ؟ . هل سيستمر على حبها كما كان ؟
لا . لا . إنه لا شك سيعرض عنها .
أف لهذه الأفكار التى تكاد تفجر رأسها ، لو استطاعت النوم ، أو الكف عن التفكير .

واستلقت على الفراش .. إنها لن تذهب إلى الموعد .
ولن تذهب إلى الجامعة ، ولن تفعل شيئاً أبداً .. إنها ستظل راقدة هكذا ..
إنها جد منهكة .. جد منهارة .

وأغمضت عينيها ، وكان الجهد والسهر قد أخذتا منها كل مأخذ ، فسلمت
النوم إلى عينيها وراحت فى إغفاءة طويلة ..

ورأت فيما يرى النائم أحلاماً مضطربة مشوشة ما لبثت حتى استبانته
ووضحت ، فوجدت نفسها تجلس بجواره فى العربة وقد سارت تطوى بهما
الأرض فى طريق الهرم . وما لبثت حتى أحسست بالطريق قد غمره الماء حتى صار
نهرأ متدفقاً ، وإذا بالعربة قد أضحت قارباً ، وجلسا كلاهما متجاورين
متلاصقين ، وقد سار القارب بهما فى رفق ينساب على سطح الماء ، وهب النسيم
عليلا هادئاً ، ولكنه أخذ يشتد شيئاً فشيئاً حتى انقلب إلى عاصفة هوجاء ، أخذت
تدفع القارب أمامها بشدة ، وعلى حين غرة ضربته موجة عالية فقلبتة رأساً على
عقب .. وأمسك كل منهما بالآخر يضمه بشدة ، وأحسست بجسديهما يهويان فى
الماء وكأن يداً قاسية تجذبهما إلى أسفل ، ونظرت وراءها فإذا بوجه عجوز تكسر
عن أنيابها كأنها عفريت وقد تشبثت بهما وأخذت تدفعهما إلى جوف الماء .

وحاولت الصراخ ولكن صوتها خرج متحشراً مبوحاً .. وفجأة
أبصرت أمها تعدو على الشاطئ وهى تقترب منهما مادية إليهما يدها ..
لإخراجهما ، ولكنها لم تكد تصل إليهما حتى أبصرت برجل يطبق عليها ويحاول
أن يصرعها وأحسست بنفسها تنهوى هى وصاحبها ، وبلغ بها اليأس مبلغه وهى

ترى أمها تقاوم الرجل محاولة الإفلات لإنقاذهما .. وأخيراً كادت تغلب على أمرها لولا أن بدت في الأفق امرأة تعدو إلى أمها فتشاركها في صراعها مع الرجل حتى تغلبا عليه ثم تهبطا إلى النهر لإنقاذهما ، وتصل إليها الأم وهي في الرمق الأخير وتنشئ بها صائحة :

— أماه ؟! أنقذيني !

وأحست بذراعين حنونين يضمانيها وسمعت صوت أمها تقول في لهفة :

— لا تصرخي يا حبيبتي .. إني بجوارك !

وفتحت عينها فوجدت أمها تضمها برفق وتهتف بها في حنان :

— لا تبكي .. أنبئيني عما أزعجك ؟

وجلس الفتاة في الفراش وهي تحس بفرط التعب من الحلم المزعج ومن صراعها في الماء .

ووجدت على وجه أمها فرحة ظاهرة ، وأدهشها ألا تجد به أثراً لذلك العبء الذي كان يثقل كاهلها منذ ليلة أمس .. لقد بدت سعيدة قريرة ضاحكة وهي تقول لها :

— انهضي يا سامية ، والبسي ثيابك بسرعة .

— له ؟

— هناك ضيوف في حجرة الصالون .. يريدون رؤيتك .

وبدت الدهشة على وجه سامية ، وهتفت :

— ضيوف ؟ يريدونني أنا ؟ من يكونون ؟

— إنها أم أنور .

— أم أنور ؟ مرة ثانية ؟ له ؟

— أسرع يا سامية .. ليس هناك وقت للسؤال .

وغسلت وجهها وأبدلت ثيابها ، وسارت إلى حجرة الصالون ، وقبل أن تبلغها فاجأ أذنيها صوت حبيب إليها .. صوت « كمال » .

وأصابها هزة فرح ، واجتازت الباب ، فإذا بها تبصر صديقة والدتها ،
و « كمال » ، وكهلاً آخر لم تره من قبل .

ومدت يدها محيية ، وقال « كمال » على سبيل التعريف يشير إليها وإلى
الكهل :

— سامية خطيبتى .. عبد الرحمن بك أبى .

وازدردت « سامية » ريقها وهى تتلفت حولها فى دهشة !

وقال « كمال » موضحاً فى اختصار وهو ينسم فى جذل :

— لقد أنبأت الحاجة أبى بالخبر ، وأرته الصورة . ولم يكن هناك مجال للشك
بعد ذلك ، ولقد أصبحت فى حالة يائسة وحيرة شديدة . بعد أن علمت أنك
أختى ، ولم أكن أعرف كيف أتصرف .. حتى أقبلت علينا السيدة والددة
الأستاذ « أنور » ، وطلبت مقابلة أبى ، وذكرته بنفسها وقالت له إنها تزوره
للمرة الثانية بنفس الرجاء ، وهو الصفح والغفران .. ثم شرحت له جلية الأمر ،
ولم نجد هناك ما نفعل بعد ذلك أفضل من أن نتنقل إليكما لنتهى المسألة نهائياً ..
حالا .. وبلا أقل انتظار .

وضحك أبوه قائلاً :

— أمتعجل إلى هذا الحد ؟

— أجل متعجل جداً .. خشية أن يظهر القدر بمفاجأة جديدة .. سأخذها
معى الآن وسرحل عنكم ، وقانا الله شر مفاجآتكم .
— إن مفاجأتنا ستكون سارة .. لا تخش شيئاً .

واستمر الحديث يجرى بينهم مرحاً ضاحكاً .. حتى نهض « كمال » قائلاً :

— أظن قد آن لنا الانصراف .. سأخذ سامية معى لألبسها « الدبلة » !

وقامت السيدة والددة « أنور » وشدت على يدهم فى حرارة وقالت
لصديقتها :

— إني أحس الآن بمنتهى السعادة .. سعادة أكبر كثيراً مما لو كنت قد خطبتها

(بين الأطلال)

إلى ابني .. سأذهب إليه الآن وأقول له إنى خطبتها لغيره .
وانتهجت السيدة إلى عربتها ، ووراءها « كمال » و « سامية » ، وفي المؤخرة
سار الأب بخطوات متباطئة ، وقد أخذ ينظر إلى الأم نظرات مترددة كأنه يود أن
يقول شيئاً .. وأخيراً همس :

— أستيقين وحدك؟! إلى على استعداد لعودتك .. إلى آسف على ما
مضى .. هيا بنا ، ودعينا ننسى كل شيء .

وأجابته في صوت خافت يائس :

— بعد هذا العمر الطويل ؟ .. لا .. لم تعد هناك فائدة .. لقد تعودت
الوحدة ، والنهاية لم تعد بعيدة .

ونظر إليها نظرة ملؤها التوسل ، ولكنها هزت رأسها في آسف ويأس .

وتحرك الركب ووقفت في الشرفة ترمقهم وتلوح لهم .

عندما اختفى الركب .. كان هناك شيء آخر يوشك أن يختفى

كان هناك القرص الأحمر الدامي يغيب ببطء وراء الأفق .

ووقفت ترمق القرص ينساب في هدوء ، وأحست كأن ذيول الأشعة

الحمراء يد تممر على جبينها برفق وحنان .. وبدأ لها في الشفق الأرجواني شبح
ابتسامة رقيقة .

وهبت نسمة سرت في أطراف الشجر ، فأرسلت من الورق حفيفاً خيل إليها

أنه يهمس بها :

« .. وأنت .. أنت ياتووم الروح .. يا منية النفس الدائمة الخالدة .. يا

أنشودة القلب في كل زمان ومكان .. مهما هجرت .. ومهما نأيت » .

وعندما أوشك القرص الدامي على الاختفاء .. عاد الحفيف يردد :

« ارقبيه جيداً .. وإذا رأيت مغيبه وراء الأفق فاذاكريني » .

واختفى القرص ، فاستدارت ببطء عائدة إلى الدار الخالية ... وفي حجرتها

لمدت يدها إلى أحد الأدراج فأخرجت منه صندوقاً صغيراً .. أخذت تتحسس

محتوياته بخنان شديد .

كانت المحتويات رسائل قديمة ، وصورة باهتة ، وفتاتاً من الشكولاته ، وهشيماً من زهور البنفسج .

كانت بقاياها .. أو اطلاله .

كانت تلك هي كل ما بقى لها من سلوان في الأرض .. وفي السماء .

إن عزاء اليائسين من الحياة ، هو أمل في لقاء في السماء . أما هي .. فلن يكون لها حق اللقاء .. حتى في السماء .

إن زوجته قد سبقتها هناك إلى اللقاء .

بالعمر الضائع سدى .. الذاهب هباء !

أخيلق التوهمان في هذا الوجود ، فلا يلتقيان إلا لقاء مسافرين في قطارين متضادين .. لا يصير كلاهما الآخر إلا لحظة يطويهما بعدها الفراغ ويلفهما العدم .. بلا أمل في عودة أو رجاء في لقاء ؟

لحظة واحدة .. تعادل العمر كله .. ورب لحظة كيوم ، ويوم كعام .. وعام

كدهر .

لحظة واحدة .. تخلد في النفس أبد الدهر .. هي ذخيرة الحياة ، وما بعد الحياة ، لو كانت هناك ، بعد الحياة ، حياة .

وأمسكت بالرسائل والزهور ، فرفعتها ببطء إلى شفيتها ، وبدا وجهها الحزين ، وقد نشر عليه الأسى ظلاله ، وهبطت من مقلتها قطرات من دمع جموح شرود .. أطلقتها الذكرى ، وألهبها اليأس والجوى .

وانسابت الدموع فامتزجت بهشيم الزهور ، واختلطت بالسطور .. كأنها تؤكد اختلاط الروحين ، وامتزاج المهجتين .. وإن كانت إحداهما في الأرض والأخرى في السماء .

وسقطت الظلمة .. فلفت في حاياها الجسد الواهن ، والنفس المضناة .. التي لا تملك من عزاء .. في حياتها الفانية والفاقية ، سوى العيش بين الأطلال .

فهرس

الصفحة

٥	 الإهداء
٦	 المقدمة

الجزء الأول — سوط على قلب

١٠	 ١ — امتحان
١٩	 ٢ — هزلت
٢٩	 ٣ — غيبة
٥٠	 ٤ — أمنية تتحقق
٧٣	 ٥ — أجيى يا أماء

الجزء الثانى — القصة الأخيرة

٩٠	 ٦ — صراع فى نفس
١٠٦	 ٧ — غير مذب
١٢٦	 ٨ — ألوان من الغيرة
١٤٣	 ٩ — بداية النهاية
١٥٩	 ١٠ — وداعاً

الجزء الثالث — شمس غاربة

١٨٢	 ١١ — النصف المحرم
٢٠٠	 ١٢ — أما من نظرة
٢٢٠	 ١٣ — نداء
٢٣٦	 ١٤ — فى العرين
٢٥٨	 ١٥ — ساكنة الدمن
٢٧٨	 ١٦ — الخاتمة

رقم الإيداع : ٧٧٤٧ / ٨٦

الترقيم الدولى : ٩ — ٠٢٧٢ — ١١ — ٩٧٧

